

من آيات الإعجاز العلمي

النبات في القرآن الكريم

١٤٢٦ ٢٠٠٥

الطبعـــة الثانية

١٤٢٦هـ ـ مايو ٢٠٠٥م



٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهرة

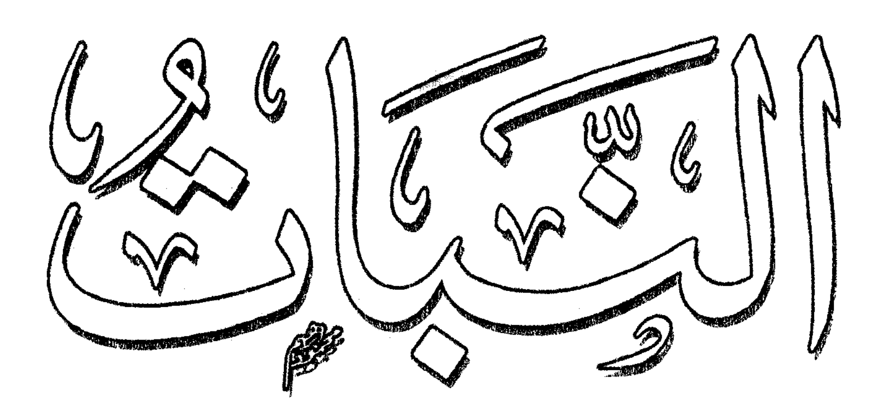
تليفون وفاكس : ٤٥٠١٢٢٨/٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: Shoroukintl@hotmail.com

Shoroukintl@yahoo.com

أ. د. زغلول النجار

من آيات الإعجاز العلمي (٥)



النبات في القرآن الكريم

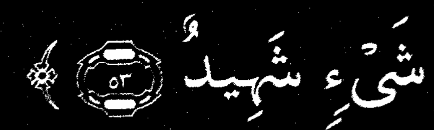


المحتويات

الموضوع	الصفحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله ـ تعالى ـ حمد الشاكرين، وأصلى وأسلم على جميع أنبيائه ورسله، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأخص منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين:

سيد الأولين والآخرين، وإمام المتقين الذى ختمت بنبوته النبوات، وببعثته الرسالات، وانقطع بعده وحى السماء، فتعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بحفظ رسالته الخاتمة فى نفس لغة وحيها ـ اللغة العربية ـ فحفظت حفْظًا كاملاً: كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، وآية آية، وسورة سورة، بنفس الترتيب الذى نراه فى بلايين المصاحف والأشرطة الممغنطة والحواسيب، وفى صدور عشرات الملايين من الحفاظ. وحفظت هذه الرسالة الخاتمة فى القرآن الكريم وفى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، وتعهد الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بحفظها إلى الأبد وفقال عز من قائل:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وكان المصطفى ﷺ يجهد نفسه الشريفة فى متابعة جبريل ـ عليه السلام ـ حتى لا يتفلت منه حرف واحد مما يوحى إليه، فنزل القرآن الكريم مطمئنًا هذه النفس الزكية بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد تعهد بجمع القرآن، وفى تفهيمه لمن يشاء من عباده الصالحين، وفى ذلك يوجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله، فيقول:

﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة : ١٦ ـ ١٩].

ولذلك بقى القرآن الكريم ـ كلام الله الخالق ـ بصفائه الربانى، وإشراقاته النورانية، وتميزه عن كلام البشر، ودقة وصدق كل ما جاء فيه، بقى متميزاً على غيره من كتب الديانات الأخرى التى ضاعت أصولها، وتعرض ما بقى من ذكريات عنها للتحريف تلو التحريف، وللتبديل والتغيير، وللمراجعة والتحرير حتى فقدت صلتها بوحى السماء، وانحرفت عن منهج الله القائم على التوحيد الخالص لجلاله، والإيمان بجميع أنبيائه ورسله، وبملائكته وكتبه، وبالبعث والحساب والجنة والنار، والتصديق بالأخوة الإنسانية، والسعى الجاد الدءوب من أجل القيام بواجب الاستخلاف فى الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها. وبالانحراف عن ذلك المنهج الربانى فقدت هذه الديانات دورها فى هداية أصحابها، وتحولت إلى أنماط من التعصب الأعمى، والأنانية القاتلة التى تجسدت فى حربين عالميتين حصدتا عشرات الملايين من الأرواح وأقعدت أضعاف هذا العدد، وشردت مئات الملايين من البشر، ودمرت من المبانى والمنشئات ما قيمته آلاف الملايين من الدولارات.

كما تجسد هذا الانحراف عن منهج الله فى العديد من المظالم البشعة، والمؤامرات القذرة، وإهدار كرامة الإنسان وتعريضه للإبادة والمهانة والإذلال كما حدث فى اتفاقية سايكس ـ بيكو، وفى اغتصاب أرض فلسطين وإغراقها فى بحر من الدماء والأشلاء والخراب والدمار باسم الدين، والدين الحقيقى من ذلك برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

وكما حدث ولا يزال يحدث فى بلاد القوقاز، وفى كلٍّ من التركستان الغربية والشرقية، وعلى أرض شبه القارة الهندية خاصة أراضى كشمير المسلمة، وفى جنوب الفليبين وجنوب تايلاند، وفى أرض البلقان الحزينة، وفى جوانتانامو، وفى الاجتياح الأنجلو/ أمريكى الغادر لأراضى كلٍّ من أفغانستان والعراق متجاوزين بذلك كل القوانين والأعراف الدولية، وكل القيم الإنسانية. وكل الضوابط السلوكية بين الدول الأعضاء فى هيئة الأمم. وقد كشفت هذه الدول

الغازية عن وجهها القبيح فى تجاوزاتها الهمجية الوحشية غير الإنسانية فى سجون كلٍّ من أفغانستان والعراق (وجرائم سجن أبو غريب المجردة من أبسط القيم الإنسانية، وجرائم غيره من السجون لا تزال ماثلة أمام أنظار كل إنسان حر فى العالم أو إنسان لديه بقية من إنسانية)، وقد ذكّر ذلك بجرائم الاستعمار الغربى طوال القرون الثلاثة الماضية للعديد من دول العالم الثالث وأغلبها دول مسلمة.
وأصل من أصول الإسلام العظيم أنه: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ...﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وأصل من أصول الإسلام العظيم يأمر به ربنا - تبارك وتعالى - خاتم أنبيائه ورسله ﷺ أن يقول للكفار والمشركين: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [الكافرون: ٦].

وذلك لأن من حقوق الإنسان ذلك المخلوق المكرم، ذى الإرادة الحرة أن يختار وبحرية كاملة ما يدين به نفسه لله - تعالى - أو لغير الله؛ لأنه على أساس ذلك الاختيار سيكون خلوده فى الآخرة: إما فى الجنة أبدًا، أو فى النار أبدًا.

ولكن انطلاقًا من رباط الأخوة الإنسانية الذى يصفه القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

* ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾ [النساء: ١].

وقوله - عز من قائل -:

* ﴿**وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**﴾ [الأنعام: ٩٨].

وقوله - جل جلاله -:

* ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ...﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقوله - سبحانه وتعالى -:

* ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۞ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٦، ٧].

وانطلاقًا من هذا الرباط ذاته الذى يصفه المصطفى ﷺ بقوله الشريف:

«كلكم لآدم وآدم من تراب».

وقوله: **«لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم، أو مما طلعت عليه الشمس، أو من الدنيا وما فيها»** أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وانطلاقًا من ذلك كله نحاول ـ نحن معشر المسلمين ـ أن نشرك غيرنا فيما عندنا من خير دون إكراه، وذلك بعرض ما فى القرآن الكريم وما فى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين من حق بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة والمنطق السوى.

والقرآن الكريم هو فى الأصل كتاب هداية من الله ـ تعالى ـ للإنسان فى القضايا التى يعلم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بعلمه المحيط أن الإنسان بحسه المحدود، وبقدرات عقله المحدودة، لا يستطيع أن يضع لنفسه فيها أية ضوابط صحيحة، وذلك مثل قضايا **العقيدة** (وهى قائمة على الغيب المطلق)، **والعبادة** (وهى قائمة على الأوامر الإلهية المطلقة والتى قد يفصلها كلام النبى الرسول) وكلٌّ من قضايا **الأخلاق والمعاملات** (وهى ضوابط للسلوك) والتاريخ القديم والحديث يؤكد على عجز الإنسان عن وضع ضوابط عادلة لسلوكه لما ينتابه من أنانية وحب للنفس وميل للشهوات، وطمع فى الدنيا، وخوف من المستقبل، ومن هنا كانت ضرورة الدين.
وقضايا الدين كما جاءت فى كتاب الله وفى سنة رسول الله ﷺ ما عرضت على عقل منصف محايد ورفضها أبدًا، ولكن أين الإنصاف والحيدة عند الغالبية العظمى من الناس الذين اتخذوا الدين هوية شخصية، فيقبلونه بتسليم أعمى، عاجز عن البصر، فاقد للبصيرة، خاصة وأن حقائق الدين من الألوهية والربوبية، والوحى، والنبوة، والرسالة، والبعث بعد الموت، والحساب، والجزاء، والجنة والنار قد شوهت فى كل الأديان المحرفة تشويهًا كبيرًا. . !!

لذلك أبقى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى رسالته الخاتمة : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من صور التحدى باللغة والبيان والنظم، وباستعراض تاريخ عدد من الأمم السابقة بدقة فائقة، وبخطاب تربوى فريد، وخطاب نفسى يرقى بتلك النفس الإنسانية فى معارج الله كما لا يمكن أن يفعل أى خطاب آخر، وأسس اقتصادية عادلة، وضوابط إدارية منصفة، وإشارات إلى العديد من حقائق الكون، وأشيائه وظواهره، وتنبؤات عديدة صدق تحقق أعداد منها، وسوف يأتى المستقبل بتحقق باقيها، وفوق ذلك كله يأتى حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية حفظًا كاملاً، والتحقيق العلمى المنهجى السليم لهذه القضايا يجمع تحت مسمى «إعجاز القرآن الكريم» و«إعجاز السنة النبوية المطهرة» بمعنى عجز كلّ من الجن والإنس فرادى ومجتمعين عن الإتيان بشىء من مثل هذا الوحى الربانى. وقد اعترض بعض الكُتّاب على استخدام لفظى ـ معجزة ـ و«إعجاز» بهذا المفهوم على أساس من أن اللفظ لم يرد له ذكر فى كتاب الله ولا فى الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة بهذا المعنى الشائع اليوم، وإن وردت مشتقات له للدلالة على عدد من المعانى القريبة من هذا المعنى الشائع أو المغايرة قليلاً له، وذلك فى ستة وعشرين موضعًا من القرآن الكريم الذى استخدم إلى مدلول المعجزة بلفظة «آية» بصيغة المفرد والمثنى والجمع. وهذه حجة مردودة؛ لأن التعبير عن «إعجاز القرآن الكريم» قد استخدم دون أدنى غضاضة منذ القرون الهجرية الأولى.

ونحن نؤكد هنا أن الإشارات الكونية فى كتاب الله الكريم، وفى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين لم ترد من قبيل الإخبار العلمى المباشر؛ وذلك لأن الكسب العلمى قد ترك لاجتهاد الناس جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، ولأن العقل الإنسانى يصعب عليه تلقى الحقائق العلمية دفعة واحدة، بل لا بد له من التأمل والملاحظة والاستنتاج، أو التجربة والملاحظة والاستنتاج؛ كى يستوعب سنن الله فى الخلق.

ونحن نؤكد هنا أيضًا أن الإشارات الكونية فى كتاب الله جاءت فى مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة فى الخلق، وعلى أن الذى خلق قادر على إفناء خلقه وعلى بعثه من جديد، وكانت قضية البعث عبر التاريخ هى حجة الكافرين والمتشككين والمرتابين.

كذلك جاءت هذه الآيات الكونية فى كتاب الله للشهادة لهذا الخالق العظيم بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه ؛ لأنه ـ تعالى ـ خلق كل شىء فى هذا الوجود ـ من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان ـ فى زوجية واضحة حتى يبقى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ منفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه .

وجاءت الآيات الكونية فى أحاديث رسول الله ﷺ شهادة له بالنبوة وبالرسالة ، وقد أنكرهما كثيرٌ من الكفار والمشركين والعصاة المتنطعين من زمانه إلى اليوم ، وقد يستمر ذلك إلى قيام الساعة .

وجاءت الإشارات الكونية فى كل من القرآن الكريم وأحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين دعوة إلى أهل عصرنا ، عصر العلم والتقنية الذى نعيشه باللغة التى يفهمونها ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

* ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام : ٦٧] .

ويقول :

* ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص : ٨٧ ، ٨٨] .

ويقول :

* ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول فى وصف القرآن الكريم بأنه : « . . . **لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد** » .

من هنا كان اهتمامنا بقضية الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم وفى أقوال خاتم الأنبياء والمرسلين ، ومبرراتنا لذلك ما يلى :

(١) علينا ـ نحن معشر المسلمين ـ فهم كلٍّ من القرآن الكريم وأقوال خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فهمًا دقيقًا ، والآيات الكونية فى هذين المصدرين من مصادر الوحى لا يمكن أن تفهم فهمًا كاملاً فى إطار اللغة وحدها ، بل لا بد من توظيف كل الحقائق العلمية المتاحة من أجل فهم دلالة الآية القرآنية الكريمة أو الحديث

النبوى الشريف فهمًا صحيحًا، ومن أجل إثبات ما بكلّ منهما من سبق علمى بالعديد من حقائق وأشياء وظواهر الكون قبل وصول العلوم المكتسبة إلى شىء منها بقرون عديدة، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدرًا لهذه العلوم غير الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ.

(٢) هذا الفهم المتدبر لآيات القرآن الكريم ولسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ قد يعين فى حل كثير من المسائل الفقهية والشرعية، وفى تصحيح عدد من الأخطاء الواردة فى بعض كتب التفسير.

(٣) إن توظيف المنهج العلمى فى تفسير الآيات الكونية فى كتاب الله وفى أقوال رسول الله ﷺ قد يؤدى إلى تصحيح العديد من المفاهيم العلمية خاصة فى قضايا غائبة عنا غيبة كاملة، مثل قضايا الخلق والإفناء والبعث.

(٤) إن توظيف هذا المنهج قد يؤدى إلى الكشف عن العديد من الحقائق الكونية غير المعروفة، وذلك بالاستفادة بما فى هذين المصدرين من مصادر وحى السماء من حق.

(٥) إن الحقائق العلمية المكتشفة فى القرآن الكريم وفى أحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ هى واحدة من أنجع الوسائل الملائمة للدفاع عن إسلامنا، وقرآننا، وسنة وشخص نبينا الكريم، وعن أراضينا، وأعراضنا، ودمائنا، ومقدساتنا، ومصالحنا، إن لم تكن هى أنجع الوسائل وأكثرها ملاءمة لطبيعة العصر.

انطلاقًا من ذلك أكتب مقالاً يوميًا فى صفحة كاملة من صفحات جريدة الأهرام المصرية صبيحة كل يوم اثنين، تحت عنوان «من أسرار القرآن»، وقد صدر من هذه المقالات إلى اليوم أكثر من مائة وسبعين مقالاً تعد الآن للنشر فى موسوعة مكونة من سلسلة من المجلدات.

وفى جانب آخر صدر لى تحت عنوان «من آيات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم» سلسلة من أربعة أجزاء، والكتاب الذى بين أيدى قارئه الكريم هو الجزء الخامس من هذه السلسلة.

وقد احتوى الجزءان: الأول والثانى من هذه السلسلة على نص حوار دار بينى وبين الأخ الكريم الأستاذ أحمد فراج فى برنامجه التلفازى المميز والمعنون «نور على نور»، وقد سعدت بفرح العديد من الشباب بهذا الأسلوب من أساليب عرض الحقائق العلمية فى كتاب الله، والذى وجدوا فيه يسرًا فى توصيل كلٍّ من الحقيقة العلمية والحقيقة القرآنية. وقد تمت ترجمة الجزء الأول من هذه السلسلة إلى اللغة الإنجليزية وجارى ترجمة الجزء الثانى.

أما الجزء الثالث فقد جاء تحت عنوان «المفهوم العلمى للجبال فى القرآن الكريم»، وهذا الكتاب كان قد سبق نشره فى واشنطن باللغة الإنجليزية تحت عنوان The Geological Concept of Miuntains in the Glorions Quran، وذلك فى سنة ١٩٩١م، وأعيد نشره فى القاهرة فى سنة ٢٠٠٣م، والجزء الرابع جاء تحت عنوان «النبات فى القرآن الكريم» وقد اشتمل على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة بالإضافة إلى ثبت بالمراجع. وتحدث الباب الأول عن «**إعجاز القرآن**»، وناقش الباب الثانى «**موقف المفسرين من الآيات الكونية فى القرآن الكريم**»، أما الباب الثالث فقد تناول «**الضوابط اللازمة للتعامل مع قضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم**»، وتناول الباب الرابع عدداً من «**آيات تهيئة الأرض لاستقبال الحياة**» وشملت قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

١ ـ ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

٢ ـ ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

٣ ـ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠].

٤ ـ ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

٥ـ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

ثم جاءت بعد ذلك الخاتمة وثبت بالمراجع .

وهذا الجزء الرابع هو الواقع مقدمة للجزء الخامس الذى هو بين يدى القارئ الكريم ، والذى جاء بعنوان «**النبات فى القرآن الكريم (٢)**» ، ولذلك لم أشأ تكرار شىء من القضايا التى نوقشت فى الجزء الرابع من هذه السلسلة من مثل قضايا «إعجاز القرآن» ، «موقف المفسرين من الآيات الكونية فى القرآن الكريم» أو «الضوابط اللازمة للتعامل مع قضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم» على أهمية ذلك وضرورته قبل الدخول إلى مناقشة عدد من الآيات القرآنية الكريمة .

وباعتبار الجزء الرابع من هذه السلسلة مقدمة طبيعية للجزء الخامس ، دخلت هنا مباشرة إلى استعراض عشر من آيات النبات فى القرآن الكريم هى على النحو التالى :

١ـ﴿**وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ [الحج : ٥] .

٢ـ﴿**إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ . . .**﴾ [الأنعام : ٩٥] .

٣ـ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ**﴾ [الروم : ١٩] .

٤ـ﴿**وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد : ٤] .

٥ـ ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر : ٢١] .

٦ـ ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا . . .**﴾ [فاطر : ٢٧] .

٧ـ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا . .﴾ [الأنعام : ٩٩] .

٨ـ ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل : ١٠] .

٩ـ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ [طه : ٦] .

١٠ـ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٥] .

وأتبعت هذه الآيات العشر بخاتمة وثبت بالمراجع .

والإشارات القرآنية إلى النبات جاءت فى أكثر من مائة موضع من كتاب الله العزيز ، ولذلك فسوف أتبع هذين الجزءين عن النبات بأجزاء أخرى ـ إن شاء الله تعالى ـ تحت نفس العنوان «من آيات الإعجاز العلمى : النبات فى القرآن الكريم : ٣ ، ٤ ، ٥ . . . »على أن تجمع هذه الأجزاء مستقبلاً ـ إن شاء الله تعالى ـ فى مجلد واحد شبيهًا بالأجزاء التى صدرت والتى تحت الإعداد ، وعناوينها كما يلى :

(١) السماء فى القرآن الكريم (صدر)

(٢) الأرض فى القرآن الكريم (على وشك الصدور) .

(٣)تهيئة الأرض لاستقبال الحياة فى القرآن الكريم (صدر) .

(٤) النبات فى القرآن الكريم (صدرت أجزاء منه) .

(٥) الحيوان فى القرآن الكريم (تحت الطبع) .

(٦) الإنسان فى القرآن الكريم (تحت الطبع) .

(٧) مشاهد الآخرة فى القرآن الكريم (تحت الطبع) .

(٨)بعض جوانب الإعجاز التاريخى للقرآن الكريم (تحت الطبع) .

والله أسال أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ، وخدمة للدين الحنيف ،

وهداية للشباب فى زمن الفتن الذى نعيشه، ودعوة لغير المسلمين أن يطلعوا على عدد من حقائق هذا الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لعل الله - تعالى - أن يشرح صدورهم للحق، وهو - سبحانه - يقول الحق ويهدى إلى سواء السبيل - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

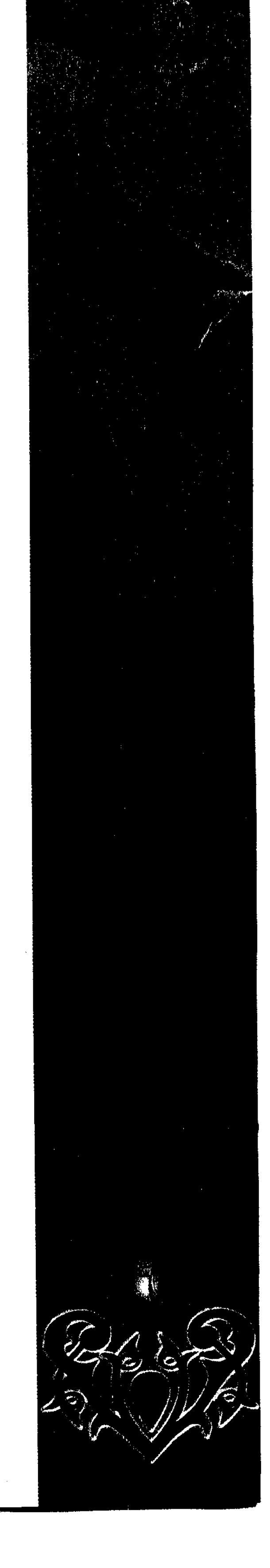
الفقير إلى عفو ربه

زغلول النجار

٥/١٢/١٤٢٥هـ
١٦/١/٢٠٠٥م

* * *





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿... وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾

(الحج: ٥)

هذه الحقيقة الكونية المبهرة جاء ذكرها بهذا النص القرآنى الكريم فى ختام الآية الخامسة من سورة الحج، وهى سورة مدنية، ومجموع آياتها ثمان وسبعون بعد البسملة، وهى السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التى جمعت بين سجدتين من سجدات التلاوة، وقد سميت باسم هذه الشعيرة الإسلامية الكبرى «الحج» لورود الإشارة فيها إلى الأمر الإلهى إلى أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام بالأذان فى الناس بالحج.

ويدور محور السورة حول العديد من التشريعات الإسلامية بأحكام الحج، والطعام، والإذن بالقتال والجهاد فى سبيل الله دفاعًا عن النفس، وعن الدين، وشعائره، ومقدساته، وعن أعراض، وأموال، وممتلكات، وأراضى المسلمين، ودفعًا لظلم الظالمين، ولبغى الباغين المتجبرين فى الأرض بغير الحق من أمثال العصابات الصهيونية الباغية والمحتلة لأرض فلسطين، والعصابات الأنجلو/ أمريكية المجرمة والمحتلة لأراضى كل من العراق وأفغانستان، والعصابات الروسية الغازية لأرض الشيشان، والاحتلال الهندوسى البغيض لأراضى كشمير المسلمة وغيرها.

ويصحب هذه التكاليف الوعد القاطع من الله ـ تعالى ـ بنصر المجاهدين فى سبيله، وبالتمكين للمؤمنين به الذين ينهضون فى غير تردد لدفع كل عدوان باغٍ على المسلمين أو حتى على غيرهم من البشر المسالمين . . !!! مع تأكيد قوة الله البالغة، وضعف الشركاء المزعومين، والإشارة إلى مصارع الغابرين من الكفار والمشركين والظالمين، وإلى سنن الله فى ذلك، وهى سنن لا تتوقف ولا تتبدل ولا تتخلف . ومن الأمور المسلم بها أن التشريع لم يؤمر به إلا بعد قيام الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة، ومن هنا كان الاستنتاج الصحيح بأن السورة مدنية .

عرض موجز لسورة الحج

ابتدأت سورة الحج بالتحذير الإلهى للناس كافة من هول الساعة، وبالتأكيد على حقيقة البعث، وبالتركيز على توحيد الله، وإنكار الشرك، وبذكر الدمار الذى لحق بالمكذبين من الأمم السابقة، وتفيض السورة بوصف مشاهد الآخرة، وأهوال البعث والحساب، وجزاء المؤمنين، وعقاب الكافرين وهى من قضايا القرآن المكى، وإن كان لا ينفرد بها وحده . وتُكثر السورة من الأدلة الكونية المثبتة لطلاقة القدرة الإلهية فى الخلق، وفى الإفناء والبعث، وفى الحساب والجزاء .

وقد استهلت السورة الكريمة بالأمر بتقوى الله، وبالتحذير الشديد من أهوال ما سمته «زلزلة الساعة»، وفيها يدمر كل شىء فى الكون فى آخر عمر الدنيا، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾ [الحج : ١ ـ ٢] .

وتنتقل السورة بسرعة إلى الحديث عمن يضلهم الشيطان فيجادلون فى الله ـ تعالى ـ بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، أى بالجهل والباطل، وهؤلاء لهم فى الدنيا خزى، ولهم فى الآخرة عذاب شديد؛ لأن مهمة الشيطان فى الدنيا هى محاولة إضلال الناس حتى يقود من يطيعه منهم إلى الجحيم . . . !!!

وتضرب سورة الحج برهانًا على حتمية البعث من حقيقة خلق الإنسان من تراب، مرورًا بمراحل الجنين المتعاقبة، حتى يخرج إلى الحياة طفلاً ناميًا ثم يبلغ

أشده فيحيا فى هذه الدنيا كما أراد له الله، وليس له من بعد هذه الحياة إلا الموت، طال أجله أم قصر، وحينئذ ترد الروح إلى بارئها، ويرد تراب الأرض إلى الأرض، وينتقل الوجود الإنسانى إلى عالم البرزخ فى انتظار البعث والحساب والجزاء، ثم الخلود فى الدار الآخرة إما فى الجنة أبدًا أو فى النار أبدًا.

وشبهت السورة بعث الإنسان بعد موته بخلق النبات، وذلك بإنزال الماء على الأرض الهامدة، فتهتز وتربو إلى أعلى حتى تنشق لتفسح طريقًا سهلاً للنبتة الطيبة المنبثقة - بقدرة الله - من داخل البذرة النابتة المدفونة فى تربة الأرض فتندفع من خلالها إلى ما فوق سطح الأرض، وسوف يتم إحياء الموتى بنفس الطريقة التى يحيى بها الله - تعالى - الأرض الهامدة، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**ما بين النفختين أربعون**» قالوا: يا أبا هريرة أربعون يومًا؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: «**ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل**»، قال: «**وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»(1).

وتشير السورة الكريمة إلى ظاهرة من ظواهر النفس الإنسانية مؤداها أن من الناس من يعبد الله - تعالى - طمعًا فى عظيم عطائه فقط، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه فخسر الدنيا والآخرة، وهو الخسران المبين، وحذرت السورة من رجس الوثنية، ومن قول الزور، ومن الشرك بالله، وعرضت لشيء من أوضاع المشركين الذين يعبدون من دون الله -تعالى- شركاء لم ينزل بهم سلطانًا، والله منزه عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، وتنكر السورة الكريمة هذه الشراكة المفتراة، وتؤكد عجز هؤلاء الشركاء عن نفع أو ضر من أشركوا بهم، وفى ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ [الحج: ٧٣].

---

(١) [صحيح] مسلم فى الفتن: ب ٢٨: حديث (١٤١).

كما تعرض سورة الحج لشيء من ثواب المؤمنين، ومن عذاب الكافرين فى الآخرة، كما تعرض للفصل بين أصحاب الملل والنحل المختلفة، وتؤكد أن جميع ما فى هذا الوجود يسجد لله - تعالى - فى عبودية كاملة، وأن هذا الخضوع بالعبودية لله الخالق هو قمة التكريم للمخلوقات، ومن يُعْرِضْ عن ذلك الخضوع لله من أصحاب الإرادة الحرة فليس له من مكرم.

وأشارت سورة الحج إلى أن من ألوان الكفر بالله الصد عن سبيله، وعن المسجد الحرام، والإلحاد والظلم فيه، وأشارت إلى هداية إبراهيم ﷺ إلى مكان البيت الحرام، وأمره برفع قواعده، وإعادة بنائه وتطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود هو وولده اسماعيل ﷺ، وشَرَّعَت السورة الكريمة لفريضة الحج وما فيها من تعظيم لشعائر الله، وأكدت أن هذا النسك الإسلامى كان قد شُرِّع للأمم من قبل بعثة النبى الخاتم والرسول الخاتم ﷺ حتى يشكروا الله - تعالى - على فضله.

وتكرر سورة الحج تأكيد وحدانية الله، وتشهد على طلاقة قدرته، وتأمر بالخضوع الكامل لجلاله بالإسلام له، وتبشر الذين تخشع قلوبهم بذكره، والصابرين على قضائه، والذين يقيمون الصلاة استجابة لأمره، وينفقون مما رزقهم الله طلبًا لمرضاته، وتبشر كل هؤلاء بخيرى الدنيا والآخرة، وتؤكد دفاع الله - تعالى - عن المؤمنين به، كما تؤكد أنه -تعالى- لا يحب كل خوان كفور.

ويتكرر الإذن بالقتال الدفاعى للذين ظُلموا من الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله - كإخواننا أهل فلسطين المظلومين فى زماننا الذين أخرجتهم من أرضهم وممتلكاتهم ومساكنهم حثالات الأمم ونفايات الشعوب من المستعمرين والصهاينة الشرقيين، والغربيين. وتؤكد السورة الكريمة أن الله - تعالى - على نصرهم لقدير، وتشجع على مناصرتهم بالتأكيد على أن الله - سبحانه - ناصر من ينصره.

وتتحدث السورة الكريمة فى أكثر من موضع منها عن جزاء المهاجرين فى سبيل الله، والشهداء فى ميادين الجهاد من أجل إعلاء دينه وإقامة عدله فى الأرض، وتكرر تعهد الله -تعالى- بنصرة المظلومين، وتقارن بين جزاء المؤمنين بآيات الله وعقاب المكذبين بها، الساعين فى محاولة يائسة لإطفاء نور الله فى الأرض كما تحاول العصابات الأنجلو/ أمريكية المجرمة المحتلة لأرض كلٍّ من العراق

وأفغانستان، وكما حاولت ولا تزال تحاول العصابات الصهيونية الجائرة والمحتلة لأرض فلسطين، ولكن هيهات هيهات!! وتنذرهم الآيات فى سورة الحج بهزيمتهم المنكرة فى الدنيا، ثم بإلقائهم فى جهنم وبئس المصير فى الآخرة.

وتصف السورة الكريمة المؤمنين بالله بأنهم إن مُكّنوا فى الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وأن لله عاقبة الأمور، وهذا فى مقابلة واضحة مع جرائم الكافرين والمشركين فى الأرض.

وتخاطب السورة الكريمة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مواسية إياه: بأن تكذيب الكافرين لنبوته ولرسالته ليس أمرًا جديدًا فى طبائع البشر، فقد كذبت الأمم الكافرة من قبل كل أنبياء الله ورسله: وكان منهم قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وقوم موسى وغيرهم، وكان عقاب المكذبين الدمار الذى تشهد به آثارهم من القصور المهجورة والآبار المعطلة، وتتساءل السورة الكريمة: أفلم يتحرك الناس فى الأرض فيدركوا هذه الحقائق حتى تكون عبرة لهم؟ وتؤكد أنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور.

ويتعجب سياق السورة الكريمة من استعجال الكافرين لعذاب الله، وتؤكد أن الله -تعالى- لن يخلف وعده، وإن استبعد الكافرون ذلك لطول الآماد عند الله، وتأمر السورة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يبلغ الناس كافة بأنه نذير من الله مبين.

وتختتم سورة الحج بتقرير أن الله - تعالى - يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس، وتأمر بعبادة الله - تعالى - ركوعًا وسجودًا وذكرًا بما أمر، كما تأمر بفعل الخيرات، وبالجهاد فى سبيل الله حق الجهاد، حتى يفلح العباد. وتؤكد أنه ما فى دين الإسلام من حرج، وأنه رسالة السماء التى أنزلها الله - تعالى - هداية لأهل الأرض جميعًا على فترة من الرسل، ثم أكملها وأتمها وحفظها فى الرسالة الخاتمة التى بعث بها النبى والرسول الخاتم ﷺ ولذلك قال تعالى: ﴿..مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا

شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ . . . ﴾ ، [الحج : ٧٨] ولكى نكون جديرين بهذه الشهادة على الناس تختتم السورة الكريمة بأمرنا بإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وبالاعتصام بالله ـ تعالى ـ وهو مولانا ومولى كل موجود ، وهو ـ سبحانه ـ نعم المولى ونعم النصير .

من الإشارات الكونية فى سورة الحج

من الأدلة الكونية التى ساقتها سورة الحج تصديقًا لما جاء بها من أمور الغيب وأوامر الله ما يلى :

(١) الإشارة إلى خلق الإنسان من تراب ، ودقة وصف مراحل الجنين المتتالية التى يمر بها حتى يخرج للحياة طفلاً ، يحيا ما شاء له الله ـ تعالى ـ أن يحيا ، ثم يتوفاه الله عند نهاية أجله المحدد ، وهذه الحقائق لم تعرف إلا فى العقود الأولى من القرن العشرين على أحسن تقدير .

(٢) ذكر اهتزاز الأرض ، وارتفاعها ، واخضرارها ، وإنباتها من كل زوج بهيج ، بمجرد إنزال الماء عليها ، وتشبيه ذلك بخلق الإنسان من تراب ، وبإعادة بعثه من التراب .

(٣) التأكيد على سجود كل من فى السماوات ومن فى الأرض لله -تعالى ـ طوعًا أو كرهًا .

(٤) الإشارة إلى نسبية كل شيء من معارف الإنسان بذكر قوله ـ تعالى- : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧] . والآية الكريمة فيها إشارة إلى سرعات فائقة كسرعة الضوء ، والتى لم تكن معروفة فى زمن الوحى .

(٥) التعبير عن دوران الأرض حول محورها بإيلاج كل من الليل والنهار فى الآخر .

(٦) التأكيد على تسخير كل ما فى الأرض ، وجرى الفلك فى البحر بأمر الله .

(٧) الإشارة إلى إمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذن الله .

(٨) التأكيد على إحياء الإنسان ، أى خلقه من العدم ، ثم إماتته ، ثم إحيائه مرة أخرى أى بعثه .

(٩) التأكيد على عجز المخلوقين عن الخلق، وعن استنقاذ ما يسلبهم الذباب .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذا فسوف أقتصر هنا على النقطة الثانية فقط من القائمة السابقة التى يقول فيها الحق -تبارك وتعالى :

﴿ ... وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج : ٥]

وقبل ذلك لا بد من استعراض سريع لدلالات الألفاظ الغريبة فى الآية الكريمة ولأقوال المفسرين فيها .

الدلالة اللغوية

من الألفاظ التى تحتاج إلى تبيان دلالاتها اللغوية فى هذا النص القرآنى الكريم ما يلى :

(١) **هامدة** : يقال فى اللغة (همدت) النار أى خمدت وطفئت جذوتها وذهبت البتة؛ ومنه أرض (هامدة) أى لا نبات فيها، ونبات (هامد) أى يابس و(الإهماد) هو الإقامة بالمكان كأنه صار (ذا همد)، وقيل (الإهماد) السرعة وهى عكس الخمود والخمول، وإن كان ذلك صحيحًا فتصبح الكلمة من الأضداد كالإشكاء فى كونه تارة لإزالة الشكوى، وتارة لإثباتها، ومعنى قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أى جافة ، قاحلة لا نبات فيها، يقال (همدت) الأرض (تهمد) (همودًا) أى يبست ودرست، و(همد) الثوب أى بلى .

وقد وردت الصفة (هامدة) مرة واحدة فى القرآن الكريم، فى الآية الخامسة من سورة الحج، وجاءت بنفس المعنى بالتعبير (خاشعة) فى قول الحق - تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت : ٣٩] .

(٢) **اهتزت**: هذا الفعل بهذه الصياغة وفى نفس المعنى جاء فى كتاب الله مرتين (الحج : ٥ ، وفصلت : ٣٩)، كما جاء بصيغة الأمر (هزى) مرة واحدة (مريم : ٢٥)، وبصيغة المضارع (تهتز) مرتين (النمل : ١٠ ، القصص : ٣١) .

ومعنى اهتزت هنا: انتفضت وتحركت فى رأى العين، يقال: (هز) الشىء (فاهتز) أى حركه فتحرك بشدة؛ لأن (الهز) هو التحريك الشديد، ومنه (الهزة) الأرضية وهى الزلزلة، وهى أيضًا النشاط والارتياح.

(٣) و(ربت): أى زاد حجمها فانتفخت وعلت، يقال فى اللغة: (ربا) الشىء (يربو) (ربوًا) أى زاد ونما، و(الربوة) و(الرابية) ما ارتفع من الأرض، وكذلك (الرباوة)؛ و(الربا) الزيادة فى كل من المال والسلع بغير مقابل، يقال: (أربى) و(أربَيْتَ) إذا أخذت أكثر مما أعطيت، ويقال: (أربى) عليه بمعنى ارتفع عنه فأشرف عليه، و(الربو) هو مرض النفس العالى، ويقال: (ربا) إذا أخذه مرض (الربو)، ويقال (رباه) ـ (تربية) و(ترباه) ـ أى تعهده بالرعاية والعناية حتى (نما) وهذا لكل ما (ينمو أو ينمى) كالولد، والزرع، ونحوه.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ... **وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾. [الحج: ٥]

* ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: « ﴿**وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً**﴾ هذا دليل آخر على قدرته ـ تعالى ـ على إحياء الموتى، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة وهى المقحلة التى لا ينبت فيها شىء، وقال قتادة: غبراء متهشمة، وقال السدى: ميتة، ﴿ **فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾: أى فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿**اهْتَزَّتْ**﴾ أى تحركت بالنبات وحييت بعد موتها، ﴿**وَرَبَتْ**﴾ أى ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من ثمار وزروع، وأشتات النبات مع اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ أى حسن المنظر طيب الريح . . . ».

* وجاء فى تفسير الجلالين ما مختصره: « ﴿**وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً**﴾ أى يابسة ﴿ **فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ**﴾ تحركت ﴿ **وَرَبَتْ**﴾ ارتفعت وزادت ﴿ **وَأَنْبَتَتْ**﴾ ﴿ **مِن**﴾ زائدة ﴿ **كُلِّ زَوْجٍ**﴾ صنف ﴿ **بَهِيجٍ**﴾حسن» .

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه : «والهمود درجة بين الحياة والموت . وهكذا تكون الأرض قبل الماء ، وهو العنصر الأصيل فى الحياة والأحياء . فإذا نزل عليها الماء ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ وهى حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام ، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهى تتشرب الماء وتنتفخ فتربو ثم تتفتح بالحياة عن النبات من كل زوج بهيج ، وهل أبهج من الحياة وهى تتفتح بعد الكمون ، وتنتفض بعد الهمود؟ ، وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعًا ، فيسلكهم فى آية واحدة من آياته . وإنها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة ، وإنها لدليل على وحدة عنصر الحياة ، وعلى وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك ، فى الأرض والنبات والحيوان والإنسان» .

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن ـ على كاتبه من الله الرضوان ـ ما نصه : «﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ يابسة لا نبات فيها ، يقال : همدت الأرض تهمد همودًا ، يبست ودرست ، وهمد الثوب بلى . ﴿اهْتَزَّتْ﴾ تحركت فى رأى العين بسبب حركة النبات ، يقال : هز الشىء (من باب ردّ) فاهتز ، حركه فتحرك .

﴿وَرَبَتْ﴾ زادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات . يقال : ربا الشىء يربو ربوًا ، زاد ونما ، ومنه الربا والربوة .

﴿بَهِيجٍ﴾ نضر حسن المنظر ، من بهج (كظرف) بهاجة وبهجة أى حسن» .

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيرًا ـ ما نصه « . . . وأمر آخر يدلك على قدرة الله على البعث أنك ترى الأرض قاحلة يابسة ، فإذا أنزلنا عليها الماء دبت فيها الحياة وتحركت وزادت ، وارتفع سطحها بما تخلله من الماء والهواء ، وأظهرت من أصناف النباتات ما يروق منظره ، ويبهر حسنه ، وتبتهج لمرآه» .

* وجاء فى صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبه خير الجزاء ـ ما نصه : «﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذه هى الحجة الثانية على إمكان البعث ، أى وترى أيها المخاطب ،

أو أيها المجادل الأرض يابسة ميتة لا نبات فيها ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ ، أى فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت وزادت وحييت بعد موتها ، ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ أى وأخرجت من كل صنف عجيب ما سر الناظر ببهائه ورونقه» .

الدلالة العلمية للنص القرآنى الكريم

ترد لفظة الأرض فى القرآن الكريم بثلاثة معان محددة تفهم من سياق الآية القرآنية ، وهى إما الكوكب ككل ، أو الغلاف الصخرى المكون لكتل القارات التى نحيا عليها ، أو قطاع التربة الذى يغطى صخور ذلك الغلاف الصخرى للأرض .

وواضح الأمر هنا أن المقصود بالأرض فى النص القرآنى الذى نتعامل معه هو قطاع التربة الذى يحمل الكساء الخضرى للأرض والذى يهتز ويربو بسقوط الماء عليه .

قطاع التربة الأرضية

تتكون تربة الأرض بواسطة التحلل الكيميائى والحيوى لصخورها ، كما تتكون نتيجة تفكك تلك الصخور بواسطة عوامل التعرية المختلفة التى تؤدى فى النهاية إلى تكون غطاء رقيق لصخور الغلاف الصخرى للأرض من فتات وبسيس الصخور على هيئة حطام مفروط يعرف باسم «عادم الصخور» .

وعلى ذلك فإن تربة الأرض تمثل الطبقة الرقيقة من عادم الصخور الناتج عن تحلل أجزاء من الغلاف الصخرى للأرض ، والذى يغطى صخور ذلك الغلاف فى كثير من أجزائه ، سواء كان ناتجًا عن تحللها مباشرة ، أو منقولاً إليها ليغطيها . والتربة بذلك تمثل الحلقة الوسطى بين الغلاف الصخرى للأرض وكلا من غلافيها الهوائى والمائى ، ولذلك فهى خليط من المعادن التى تفككت من صخور الأرض بفعل عوامل التعرية المختلفة ، ومن المركبات العضوية وغير العضوية الناتجة عن التفاعل والصراع بين تلك النطق الثلاثة من نطق الأرض ، أو المتبقية عن الكائنات الحية التى تعمر قطاع التربة ، وهى كثيرة مثل البكتيريا ، والطحالب ، والفطريات ، والنباتات

بمختلف هيئاتها ومراتبها، فالتربة هى مصدر كل الغذاء والماء لحياة النباتات الأرضية؛ لأنها وسط تتراكم فيه بقايا كل من العمليات الأرضية، والسلاسل الغذائية، والتى تتحلل بواسطة الكائنات الدقيقة التى تزخر بها التربة والتى تجهز بنشاطاتها المختلفة كل العناصر اللازمة لنمو النباتات الأرضية .

وتتكون التربة الأرضية أساسًا من معادن الصلصال، والرمال، وأكاسيد الحديد، وكربونات كل من الكالسيوم والمغنسيوم . وبالإضافة إلى التركيب الكيميائى والمعدنى لتربة الأرض فإن حجم حبيباتها ونسيجها الداخلى له دور مهم فى تصنيفها إلى أنواع عديدة، وتقسم التربة حسب حجم حبيباتها إلى التربة الصلصالية، والطميية، والرملية، والحصوية، وأكثر أنواع التربة انتشاراً هو خليط من تلك الأحجام .

ويقسم قطاع التربة من سطح الأرض إلى الداخل إلى النطق الأربعة التالية :

(١) نطاق السطح الأرضى أو نطاق (O):وهو غنى بالمواد العضوية من مثل أوراق الأشجار وفتات زهورها، وثمارها، وبذورها، وأخشابها، وتزداد فيها نسبة المواد العضوية المتحللة «الدبالية ـ **Humus**» من أعلى إلى أسفل .

(٢) نطاق التربة العليا، أو نطاق (A):ويتكون أساسًا من فتات المعادن الخشن نسبيًا، ولكنه يزخر بالنشاط العضوى مما يزيد من محتواه فى المواد الدبالية، والتى تصل إلى ٣٠٪ من مكوناته فى بعض الحالات .

(٣) نطاق ما تحت التربة العليا، أو نطاق (B): وهو نطاق يتجمع فيه كثير من العناصر والمركبات التى تحملها المياه الهابطة من السطح إلى أسفل من النطاقين العلويين، ولذا يعرف باسم «نطاق التجمع»، ومع كثرة هبوط حبيبات الصلصال الدقيقة من النطاقين العلويين إلى نطاق ما تحت التربة العليا أو نطاق التجمع هذا، فإنه يحتفظ بالماء الهابط إليه من سطح الأرض .

وتمثل النطق الثلاثة **(O+A+B)** ما يسمى باسم **«التربة الحقيقية»** وهى التى تزخر بالعمليات الحيوية، وبكل صور الحياة التى تشتهر بها تربة الأرض وتمتد إليها جذور النباتات من فوق سطحها .

(٤) نطاق الغلاف الصخرى للأرض المتأثر ببعض عمليات التجوية: ويتجمع فوقه قطاع التربة.

وهذه النطق لا تتمايز بهذا الوضوح إلا بعد تمام نضج قطاع التربة، فكثيراً ما تتكدس كلها فى نطاق واحد غير متمايز إلى تلك النطق خاصة فى المراحل الأولى من تكونه.

وتمثل مجموعة النباتات الدقيقة من مثل البكتيريا، والفطريات، والطحالب أهم أنواع الحياة فى تربة الأرض، وتشكل البكتيريا أغلبها ـ نحو ٩٠٪ ـ. وتنقسم بكتيريا التربة إلى ذاتية التغذية، وغير ذاتية التغذية، ومن الصنف الأول بكتيريا العقد الجذرية، وقد أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على تثبيت غاز النيتروچين وتحويله إلى مركبات نيتروچينية مهمة فى التربة، ولذا تعرف باسم «بكتيريا النيتروچين».

وهناك بكتيريا الهيدروچين، وبكتيريا الكبريت، وبكتيريا الحديد وغيرها، وهى تلعب أدواراً مهمة فى تزويد التربة بالأغذية المناسبة للنباتات الأرضية. واستكمالاً لهذا الدور المهم، فإن البكتيريا غير ذاتية التغذية تقوم بتكسير المواد العضوية المعقدة من مثل المواد السليلوزية والكربوهيدراتية والبروتينية والدهنية، وتحويلها إلى مواد يستطيع النبات الاستفادة بها.

كيف تربو هذه التربة الأرضية بإنزال الماء عليها؟

يتكون جزىء الماء من اتحاد ذرة أكسچين واحدة مع ذرتى هيدروچين برابطة قوية لا يسهل فكها، وترتبط هذه الذرات مع بعضها البعض بشكل حاد الزوايا، له قطبية كهربية واضحة؛ لأن كلاً من ذرتى الهيدروچين يحمل شحنة موجبة نسبية، وذرة الأكسچين تحمل شحنة سالبة نسبية، مما يجعل جزىء الماء غير تام التعادل كهربيًا، وإلى هذه القطبية الكهربية تعود صفات الماء المميزة له من مثل قدرته الفائقة على الإذابة، وعلى التوتر السطحى، وشدة تلاصق جزيئاته مما يجعل له القدرة على التسلق بالخاصية الشعرية، وعلى التكور فى هيئة قطرات، وعدم امتزاج محاليله امتزاجًا كاملاً. والماء بهذه الصفات الطبيعية المميزة إذا نزل على تربة الأرض أدى إلى إثارتها كهربيًا مما يجعلها تهتز وتتنفس ويزداد حجمها فتربو وتزداد؛ وذلك لأن تربة الأرض تتكون فى غالبيتها من المعادن الصلصالية التى تحمل على أسطحها

شحنات كهربية، كما تحتوى بين تلك الأسطح على كميات من الغازات، فإذا خالطها الماء أزاح هذا الهواء المخزون وحل محله فترفع راقات صلصال التربة إلى أعلى، وتتنافر الشحنات الكهربية المتشابهة على أطراف جزئى الماء وعلى أسطح رقائق الصلصال ولذلك يؤدى تميؤها إلى اهتزاز مكونات التربة، وزيادة حجمها، وارتفاعها إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتنشق مفسحة طريقًا سهلاً آمنًا لسويقة ـ ريشة ـ النبتة الطرية الندية المنبثقة من داخل البذرة النابتة المدفونة بالتربة .

ومن أسباب اهتزاز التربة وانتفاشها وربوها ما يلى :

(١) تتكون التربة أساسًا من المعادن الصلصالية، ومن صفات تلك المعادن أنها تملك قابلية عالية للماء فتمتصه بكميات كبيرة حتى تتشبع بالتميؤ، أى بامتصاص الماء، مما يؤدى إلى زيادة حجمها، فيؤدى ذلك إلى اهتزازها بشدة وانتفاضها بمجرد نزول الماء عليها .

(٢) تتكون المعادن الصلصالية من رقائق من أكاسيد السليكون والألومنيوم تفصلها مسافات بينية مملوءة بجزيئات الغازات، وعند التسخين تطرد هذه الجزيئات، فتنكمش تلك الرقائق بطرد هذه الجزيئات البينية، وعند إضافة الماء إليها تنتفض، وتهتز وتربو نتيجة لملء المسافات البينية الفاصلة لرقائق المعدن بالماء .

(٣) نظرًا لدقة حجم الحبيبات الصلصالية ـ والتى لا يتعدى قطرها واحدًا على ٢٥٦ من المليمتر أى أقل من ٠,٠٠٤ من المليمتر ـ وهى المكون الرئيسى لتربة الأرض، فإن اختلاط الماء بتلك التربة يحولها إلى الحالة الغروية وهى حالة تتدافع فيها جسيمات المادة بقوة، وبأقدار غير متساوية فى كل الاتجاهات، وعلى كل المستويات فى حركة دائبة تعرف باسم «الحركة البراونية» نسبة إلى مكتشفها، وهى من عوامل اهتزاز التربة بشدة وانتفاضها، وكلما كان الماء المختلط بالتربة وفيرًا باعد بين حبيبات التربة لمسافات أكبر، وزاد من سرعة حركتها .

(٤) تتكون المعادن الصلصالية أساسًا من سيليكات الألومنيوم المميأة، وهذا المركب الكيميائى له قدرة على إحلال بعض ذرات الألومنيوم بذرات قواعد أخرى مثل المغنسيوم والكالسيوم، وكنتيجة لإحلال ذرات الألومنيوم بذرات غيرها من

العناصر ترتبط بعض الأيونات الموجبة الشحنة مثل الصوديوم والكالسيوم على حواف وأسطح راقات الصلصال لمعادلة الشحنات السالبة الناتجة عن إحلال ذرة الألومنيوم الثلاثية التكافؤ بذرة الكالسيوم أو المغنسيوم الثنائية التكافؤ. والأيونات الموجبة مثل أيونات الصوديوم والكالسيوم سهلة الإحلال بقواعد أخرى، مما يحدث اهتزازًا عنيفًا فى مكونات رقائق الصلصال فى وجود جزىء الماء القطبى الكهربية.

(٥) إن العمليات المعقدة التى كونت تربة الأرض عبر ملايين السنين أثرتها بالعديد من العناصر والمركبات الكيميائية اللازمة لحياة النباتات الأرضية، كما أن الكائنات الحية الدقيقة والكبيرة التى أسكنها الله ـ تعالى ـ تربة الأرض لعبت ولا تزال تلعب دورًا مهمّا فى إثرائها بالمركبات العضوية وغير العضوية، وعند نزول جزيئات الماء ذات القطبية الكهربية، وإذابتها لمكونات التربة فإن ذلك يؤدى إلى تأين تلك المكونات، وإلى تنافر الشحنات المتشابهة على أسطح رقائق الصلصال وفى محاليل الماء، مما يؤدى إلى انتفاض تلك الرقائق واهتزازها بشدة.

(٦) تحمل الرياح، والطيور، والحشرات، والكائنات الدقيقة إلى التربة بذور العديد من النباتات خاصة مما يسمى بـ«البذور المجنحة» والأبواغ والجراثيم وحبوب اللقاح التى تحملها الرياح لمسافات بعيدة، وعندما ينزل الماء على التربة الأرضية وتستقى منه تلك البقايا النباتية القابلة للإنبات مثل البذور فإن أجنتها تنشط بالنمو، وعندما تتغذى على المواد المذابة فى مياه التربة فإنها تزداد فى الحجم، وتندفع جذورها إلى أسفل مكونة المجموعات الجذرية لتلك النابتات، وتندفع سويقاتها ـ ريشتها ـ إلى أعلى مسببة اهتزازات عنيفة لمكونات التربة.

(٧) مع ازدياد هطول الماء على التربة تنتعش كل صور الحياة فيها من البكتيريا، والفطريات، والطحالب، وغيرها، كما تغلظ المجموعات الجذرية للنباتات القائمة على سطح الأرض، ويؤدى النشاط الحيوى لكل من هذه الكائنات إلى زيادة حجم التربة، وإلى زيادة الأنشطة الكيميائية والفيزيائية فيها، مما يؤدى إلى انتفاض مكوناتها واهتزازها، وربوها، وكثرة الإنبات فيها، وقد صورت هذه المراحل بالتصوير البطىء مؤخرًا، وأثبتت الصور صدق القرآن الكريم، فى كل ما أشار إليه فى هذه القضية .

وهذه حقائق لم يدركها الإنسان إلا فى العقود القليلة الماضية، وورودها فى كتاب الله المنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة بهذه الدقة العلمية، والتسلسل المنطقى الذى يقول فيه الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ ... وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج : ٥]، وتكرار المعنى فى مقام آخر من كتاب الله حيث يقول عز من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت : ٣٩].

إن هذا كله لمن أبلغ الدلائل على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وعلى أن هذا النبى الخاتم الذى تلقاه كان موصولاً بوحى السماء، ومعلمًا من قبَل خالق السماوات والأرض. فالحمد لله الذى أنزل القرآن بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه فى نفس لغة وحيه (اللغة العربية) فحفظه على مدى أربعة عشر قرنًا أو يزيد، وسوف يبقى محفوظًا بحفظ الله حتى يرث الأرض ومن عليها، ولذلك أنزل فيه قوله الحق مخاطبًا نبيه الخاتم ﷺ ورسوله الخاتم فيقول عز من قائل: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء : ١٦٦].

فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، خاتم الأنبياء والمرسلين، وسيد الأولين والآخرين، وإمام المتقين، وهادى الخلق أجمعين إلى الدين القويم، من لدن بعثته الشريفة وإلى يوم الدين، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته الحقة فى الأولين والآخرين، وحتى يوم البعث والنشور اللهم آمين.

***


تحت الارض
فوق الارض
ينمو الجذير في الاسفل
تتساقط
فوق الارض

بسم الله الرحمن الرحيم

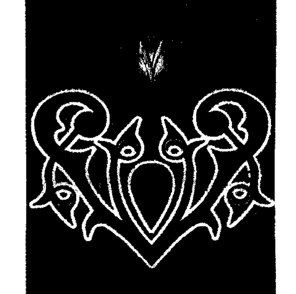
﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ..... ﴾

(الأنعام: ٩٥)

هذا النص القرآنى المعجز جاء فى مطلع النصف الثانى من سورة الأنعام، وهى سورة مكية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها خمسًا وستين ومائة بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى الأنعام فى أكثر من موضع؛ ومن خصائص هذه السورة المباركة أنها أنزلت دفعة واحدة.

عرض موجز لسورة الأنعام

استهلت سورة الأنعام بحمد الله ـ تعالى ـ الذى خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وباستنكار مقابلة ذلك بكفر الكافرين، وبشرك المشركين، دون أدنى قدر من البصيرة أو العقل. ثم انتقلت السورة الكريمة بالإشارة إلى خلق الإنسان من طين، وإلى تحديد آجال المخلوقين فى سجل مدون عند رب العالمين، وعلى الرغم من ذلك يجادل الكافرون فى إمكانية البعث والنشور، وترد عليهم الآيات بأن الله ـ تعالى ـ هو رب السماوات والأرض ومن فيهن، الذى يعلم السر والجهر، ويعلم ما تكسب كل نفس. وتتجه الآيات بالخطاب إلى رسول الله ﷺ بأن المشركين لا تأتيهم آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها



معرضين، فقد كذبوا بالقرآن الكريم، ولذلك فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون من خزى في الدنيا، وعذاب في الآخرة، وهو صائبهم لا محالة، وتذكرهم الآيات بأمم كثيرة من قبلهم أهلكهم الله - تعالى - بذنوبهم بعد أن أعطاهم من أسباب القوة المادية والتمكين فى الأرض ما لم يعط كفار قريش، فلم يشكروا نعم الله - تعالى - ولذلك قضى عليهم، وأنشأ من بعدهم قومًا آخرين.

وتضيف سورة الأنعام أنه لو أنزل دليل نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مكتوبًا فى كتاب يراه الكفار والمشركون بأم أعينهم نازلاً من السماء ولمسوه بأيديهم لقالوا: إن هذا إلا سحر مبين، ولطالبوا بملك ينزل من السماء يصدق دعوى هذا النبى الخاتم والرسول الخاتم ﷺ. ثم يرد الحق - تبارك وتعالى - عليهم بأنه لو أنزل ملكًا ولم يؤمنوا به لقضى الأمر بإهلاكهم دون إمهال، ولو أنزل ملكًا لأنزله على هيئة البشر حتى يستطيعوا رؤيته والفهم عنه؛ لأنهم ببشريتهم لايستطيعون رؤية الملك وهو فى هيئته الملائكية، وإذن للتبس عليهم الأمر - بسبب سوء نيتهم - ولوقعوا فى نفس الخطأ الذى هم فيه واقعون. . .، وما انطبق على كفار قريش ومشركيها ينطبق على الملايين من منكرى البعثة المحمدية الشريفة ممن جاءوا بعد قريش إلى يومنا الراهن، وحتى قيام الساعة.

وتعاود سورة الأنعام توجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ فى مواساة رقيقة بأن الكفار قد سخروا برسل من قبله فحاق بالذين سخروا ما كانوا به يستهزئون، وتأمره ﷺ الآيات أن يقول للكافرين: سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، وأن يسألهم: لمن ما فى السماوات والأرض؟ وأن يؤكد لهم أن ذلك كله لله الذى كتب على نفسه الرحمة بخلقه، وقرر أنه جامعهم جميعًا إلى يوم القيامة الذى لا شك فيه، وأن الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر قد خسروا أنفسهم فى الحياة الدنيا ويوم البعث، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وتتابع الآيات خطابها إلى رسول الله ﷺ فتأمره أن يقول لكفار زمانه، وللكافرين فى كل عصر وحين من بعده: هل يعقل - بعد كل هذه الأدلة - أن أتخذ

وليّا غير الله الذى خلق السماوات والأرض على غير مثال سابق، وهو الذى يطعم عباده بإمدادهم بمختلف أنواع الرزق، وهو غنى عن ذلك وعنهم أجمعين؟ وأن الله ـ تعالى ـ قد أمره بأن يكون أول المسلمين، وأن يؤكد مخافته ﷺ من عذاب الآخرة؛ وأن هذا الإله القادر إذا أصاب عبداً من عباده بسوء فلا كاشف له إلا هو، وإذا أصابه بخير فلا راد لفضله؛ لأنه على كل شيء قدير، وهو الغالب بقدرته فوق عباده.

ثم تعاود الآيات مطالبة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بأن يسأل المكذبين بنبوته وبرسالته ـ من زمانه وإلى قيام الساعة ـ قائلاً: أى شيء أكبر وأعظم شهادة وأحق بالتصديق من الله ـ تعالى ـ منزل القرآن الكريم حجة على جميع الخلق وشاهداً على صدق نبوته ورسالته، ومنذراً قريشًا وكل من بلغه خبره، ومحذراً من جريمتى الشرك والكفر بالله؟!

وتقرر الآيات فى سورة الأنعام أن أهل الكتاب يعرفون خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم عليهم أجمعين ـ كمعرفتهم أبناءهم، وذلك من نصوص كتبهم التى على الرغم مما تعرضت له من تحريف فقد بقيت بها بعض بقايا الحق القديم. وعلى ذلك فإن عدم الإيمان ببعثة المصطفى ﷺ يجعل الكافرين به وببعثته يخسرون أنفسهم خسرانًا مبينًا؛ لأنه ليس فى الوجود أظلم لنفسه ممن افترى على الله الكذب أو كذب بآياته، أو أشرك به أو كفر بنعمائه، ومن أبشع صور الشرك ادعاء نسبة الصاحبة أو الولد لله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ أو نسبة غير ذلك من الأوصاف التى لا تليق بجلاله. ومثل هؤلاء الظالمين لا فلاح لهم فى الدنيا، ولا نجاة لهم فى الآخرة.

وتشير الآيات إلى أن هؤلاء المشركين سوف يُسْألون يوم القيامة: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟ فيحاولون التخلص من شركهم بالكذب على الله ـ تعالى ـ الذى يقسمون بعزته وجلاله أنهم لم يكونوا مشركين.

ومنهم من كان يستمع إلى رسول الله ﷺ ـ وهو يتلو القرآن الكريم ـ لا بقصد فهمه، والاهتداء بهديه، وإنما بقصد تلمس السبل للطعن فيه، والسخرية منه، وما

أكثر الطاعنين فى الحق والساخرين منه فى زماننا وإلى قيام الساعة، وهؤلاء المشركون فى القديم والحديث محرومون من الانتفاع بما يسمعون، وقلوبهم محجوبة عن رؤية حجيته، وآذانهم قد أصابها الصمم فلا تسمع جمال نظمه، وروعة تعبيراته، وجلال معانيه، وعقولهم قد أغلقت دون فهم أدلته، واستيعاب آياته لدرجة أنهم يرون الدليل واضحًا جليًا فلا يؤمنون به، ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، فتارة يتخيلون التناقض فى القرآن الكريم وليس به من تناقض، وتارة يدّعون كذبًا أنه من أساطير الأولين وما هو بذلك أبدًا، فى محاولات يائسة للصد عنه، والاستخفاء من نوره فى دياجير الضلال والظلام، وهم يتوهمون الهروب عن هديه، ولا يدركون أنهم بذلك إنما يهلكون أنفسهم وهم لا يشعرون، والتاريخ يعيد نفسه فكما كان هذا هو حال المشركين فى زمن البعثة المحمدية ـ على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ يتكرر فى زماننا على هيئة قطعان من الجرذان البشرية المذعورة والمستترة خلف شاشات شبكات المعلومات الدولية المعروفة باسم الشبكات العنكبوتية (أو الإنترنت) يملأون صفحاتها بتجنيهم على الله وعلى رسوله وكتابه بألفاظ لا تليق بأقل الناس أدبًا أو ذوقًا أو فهمًا أو علمًا . . . !!!

وترد الآيات فى سورة الأنعام على هؤلاء المتطاولين على الحق فى القديم والحديث ـ وإلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها ـ بالإشارة إلى مصيرهم وهم يعرضون على النار، ويعانون من أهوالها، فيصرخون متمنين الرجوع إلى الدنيا لإصلاح ما قد أفسدوا فيها، التصديق وليؤمنوا بآيات ربهم، وبخاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ حتى يكونوا من الناجين، وهم لن يقولوا ذلك إلا من رهبة ما يشهدون من ألوان العذاب المبين. وتقرر الآيات أنهم لو ردوا إلى الحياة الدنيا لعادوا إلى كفرهم الذى نهوا عنه، وإلى كذبهم على الله، وافترائهم على أنبيائه ورسله، ولقالوا كما رددوا من قبل قولتهم الدالة على كفرهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

وتعاود الآيات استعراض موقف هؤلاء الكافرين والمشركين وقد وقفوا للحساب أمام ربهم الذى يسألهم: أليس هذا بالحق الذى كذبتم به، وأنكرتموه فى

دنياكم؟ فيجيبون فى ذلة : بلى وربنا إنه الحق !! فيرد الله ـ تعالى ـ عليهم بأمره أن يذوقوا عذاب النار فى الآخرة جزاء كفرهم فى الدنيا . . . !!!

وبذلك تقرر الآيات فى سورة الأنعام أن الذين كذبوا بلقاء الله، أو أشركوا به، وظلوا على إنكارهم حتى فاجأتهم مشاهد الآخرة قد خسروا خسرانًا مبينًا، وأن الحياة الدنيا ما هى إلا لعب ولهو ـ لقصر أجلها، وقلة خيرها ـ وأن الدار الآخرة هى الحياة الحقيقية لأبديتها وخلودها .

وتعاود الآيات توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فى مواساة جميلة لتكذيب الكافرين والمشركين ببعثته الشريفة ـ وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٣-٣٤] .

ثم تحدثت الآيات عن عدد من الأمم السابقة الذين كانوا إذا جاءهم بأس الله تضرعوا إليه ليكشف عنهم العذاب، وبدلاً من العودة إلى الله ـ تعالى ـ بعد رفع العذاب عنهم تصفهم الآيات بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : **﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** [الأنعام : ٤٣] .

فلما نسوا الاتعاظ بالابتلاء ـ كما نساه أهل عصرنا ـ مد الله ـ تعالى ـ لهم، وفتح عليهم أبواب كل شيء ليأخذهم أخذ عزيز مقتدر ـ وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : **﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾** [الأنعام : ٤٤-٤٥] .

وكما انطبق ذلك على الأمم السابقة من أهل الكفر والشرك والضلال ينطبق اليوم على غطرسة الصهاينة المجرمين، والمتجرين من الأمريكيين، والخائنين من الإنجليز، وغيرهم من غلاة الضالين، فى زماننا، والذين فتح الله لهم أبواب العلوم والتقنية

فأغراهم ذلك بالاعتداء على غيرهم من الأمم باجتياحات رهيبة، كالتى حدثت ولا تزال تحدث فى كل من فلسطين وأفغانستان والعراق، والبلقان والشيشان، وكشمير، وأراكان، وجنوب الفيليبين، والصومال، والسودان، وغيرها من أراضى المسلمين، مما سوف يعجل بدمارهم - إن شاء الله رب العالمين.

وأردفت الآيات بالإشارة إلى عدد من نعم الله على عباده، وحذرت من هلاك الظالمين يوم يأتى عذاب الله بغتة، وأكدت أن رسالة المرسلين هى البشارات والنذر، وتعاود توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم عليهم أجمعين - أن يبلغ الكفار والمشركين بأنه يتبع ما يوحى إليه من ربه لينذر.

﴿ ...الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١].

وتقرر الآيات فى سورة الأنعام أن الله - سبحانه وتعالى - قد امتحن المتكبرين من قريش بسبق المستضعفين إلى الإسلام، وتستمر فى استنكار شرك المشركين، متبرئة إلى الله - تعالى - منهم ومن شركهم، ومؤكدة صدق ما جاء به القرآن الكريم فى حقهم.

ثم تهدد الآيات بوعد الله ووعيده فى الدنيا قبل الآخرة، وتنهى عن الجلوس فى مجالس الكفار وهم يتطاولون على القرآن الكريم بالطعن فى صحته، أو بالسخرية مما جاء فيه من الحق، وتأمر بالرد على تطاولهم الكاذب لعلهم يكفون عن باطلهم، كما تأمر بتذكيرهم بالآخرة وأهوالها، يوم ترتهن كل نفس بعملها، ولا ناصر ولا معين فيه إلا الله - تعالى - وفيه لا تقبل فدية للنجاة من العذاب.

وتأمر الآيات عباد الله الصالحين كذلك بالإعراض عن المشركين بعد دعوتهم إلى الدين الحق، وبالانصراف إلى عبادة الله الواحد القهار، وأداء الصلاة بحقها من الخشوع والخضوع له - تعالى - وتقواه، فإن مصير الخلق جميعًا إليه...!!!

بعد ذلك تنتقل سورة الأنعام بالإشارة إلى جوانب من سير عدد من أنبياء الله، مؤكدة وحدة رسالة السماء التى تكاملت فى بعثة النبى الخاتم ﷺ.

وتستعرض الآيات حال الظالمين وهم فى غمرات الموت، والملائكة ينزعون أرواحهم من أجسادهم، وينذرونهم بالعذاب المذل المهين جزاء ما كانوا يتقولون على الله بغير الحق، ويتطاولون على آيات القرآن الكريم بالتكذيب، ويستكبرون عن النظر فى أنفسهم وفى الكون من حولهم لاستقراء آيات الله فى الآفاق والاعتبار بها. فعلى الرغم من الأدلة القاطعة فى كل ذلك على ألوهية الله، وربوبيته، ووحدانيته، فإن الكافرين قد أشركوا الجن مع الله، واختلقوا له البنين والبنات، وفى ذلك ترد عليهم الآيات بقول الحق - تبارك وتعالى:

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

[الأنعام: ١٠١ - ١٠٣].

وتتابع الآيات التأكيد على صدق القرآن الكريم فى كل ما جاء به، وعلى كذب الكافرين الذين أقسموا على أنه إذا جاءتهم آية ليؤمنن بها، وذلك لما أصاب قلوبهم من ظلام الكفر أو الشرك بالله، فإذا جاءت كل آية فلن يؤمنوا بها أبدًا إلا أن يشاء الله.

وتقرر الآيات أن كل نبى من أنبياء الله قد جوبه بأعداء من عتاة الإنس والجن وذلك ليمحص الله عباده المؤمنين، وليختبر غيرهم ممن لا يؤمنون بالآخرة.

ولما قال المشركون للمؤمنين: أتأكلون ما قتلتم أنتم - أى ذبحتم - ولا تأكلون ما قتل ربكم - أى الميتة - ؟ نزل قول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨].

وبينت الآيات ما حرمه الله - تعالى - على عباده المؤمنين من المطعومات التى لايجوز أكلها إلا ما دعت إليه الضرورة.

ثم انتقلت إلى عدد من آيات الله فى الكون، مؤكدة أن الإسلام العظيم هو صراط الله المستقيم، وواصفة جانبًا من أحوال الكافرين فى يوم الدين، والملائكة يدفعون بهم إلى النار جزاء كفرهم بالله وآياته، وناقضة ما ابتدعته أوهام هؤلاء

الكافرين من زعم باطل بأنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا، ولشركائهم الذين أشركوهم مع الله - تعالى - ظلمًا وعدوانًا نصيبًا آخر، فما يجعلونه للأوثان يصل إليها، وما يجعلونه لله لا يصل شيء منه إلى الفقراء والمساكين. كذلك زينت لهم أوهامهم قتل أولادهم ذبحًا تقربًا لأوثانهم، وسوف ينالون العقاب على ذلك من الله الذى لو شاء ما فعلوه، ومن ذلك أيضًا تحريمهم لأنعام معينة، ولمحاصيل محددة لا يأكلها أحد إلا من يختارون من خدمة أوثانهم، وأنعام حرموا ركوبها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها عند ذبحها افتراء على الله، ومن أوهامهم التى ابتدعوها القول بأن ما فى بطون الأنعام التى حرموا ذبحها أو ركوبها من أجنة هى خالصة للذكور منهم دون الإناث، فإذا نزلت ميتة فهم فيها شركاء مدعين كذبًا أن هذا تشريع من الله - تعالى - الذى سوف يجزيهم وصفهم، إنه حكيم عليم. وتوصى الآيات رسول الله ﷺ أن يتركهم وما يفترون على الله من الكذب الذى سوف ينالون العقاب الرادع عليه - إن شاء الله تعالى -.

وتؤكد الآيات فى سورة الأنعام أن الإسلام العظيم برىء من الذين فرقوا الدين الواحد بالعقائد الزائفة، والتشريعات الباطلة، وصاروا بذلك فرقًا دينية متعددة، والرسول الخاتم ليس مسئولاً عن انحرافاتهم وعصيانهم؛ لأن الله - تعالى - وحده هو الذى يملك أمرهم ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون.

وتختتم السورة الكريمة بتقرير وحدة الدين مرة أخرى، وذلك بقول الحق - تبارك وتعالى - على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

[الأنعام: ١٦١ - ١٦٤].

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ...﴾ [الأنعام : ٩٥].

* ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره : «يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى، أى يشقه فى الثرى فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى، ولهذا فسر قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ﴾ بما جاء بعدها....».

* وذكر صاحبا تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ ما مختصره : « ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ﴾ شاق ﴿الْحَبِّ﴾ عن النبات ﴿وَالنَّوَى﴾ عن النخل...».

* وجاء فى الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما نصه : « إنها المعجزة التى لا يدرى سرها أحد، فضلاً على أن يملك صنعها أحد !! معجزة الحياة نشأة وحركة... وفى كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية، وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة. والحياة الكامنة فى الحبة والنواة، النامية فى النبتة والشجرة، سر مكنون، لايعلم حقيقته إلا الله، ولا يعلم مصدره إلا الله... وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها، وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها... تقف أمام السر المغيب كما وقف الإنسان الأول، تدرك الوظيفة والمظهر، وتجهل المصدر والجوهر، والحياة ماضية فى طريقها، والمعجزة تقع فى لحظة !!!».

* وذكر صاحب صفوة البيان لمعانى القرآن ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه : « ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ شروع فى ذكر دلائل كمال القدرة والعلم والحكمة، بعد تقرير دلائل التوحيد والنبوة. و ﴿فَالِقُ﴾ أى شاق، يشق الحبة اليابسة كالحنطة فيخرج منها النبات الأخضر النامى، ويشق النواة اليابسة فيخرج منها النخلة والشجرة النامية....».

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه : «إن دلائل قدرة الله على البعث، واستحقاقه وحده للعبادة، متوافرة متنوعة، فهو وحده الذى يشق الحب، ويخرج منه النبات، ويشق النوى ويخرج منه الشجر».

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما يلي: «من دلائل قدرة الله -سبحانه وتعالى- خلق الحب والنوى والجنين في كل مكان منهما يشغل حيزًا ضيقًا، أما باقي جسم الحبة أو النواة فيتكون من مواد مكتنزة غير حية، وعندما يتنبه الجنين ويبدأ في الإنبات تتحول هذه المواد المكتنزة إلى حالة صالحة لتغذية الجنين، ويبدأ في النمو، وتتكون الخلايا الحيّة حتى تنتقل الحبة النابتة من طور الإنبات إلى طور البادرة فيبدأ النبات في الاعتماد على غذائه من الأملاح المذابة في ماء التربة التي يمتصها الجذير مع ما تكونه الأوراق الخضراء من مواد كربوهيدراتية كالسكريات والنشويات في وجود ضوء الشمس، وعندما تتم دورة حياة النبات تتكون الثمار وبداخلها الحب أو النوى من جديد».

* وجاء في صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خيرًا ـ ما نصه: «عاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين بعجائب الصنع ولطائف التدبير، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ أي: يفلق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها، ويفلق النوى لخروج الشجر منها. وقال القرطبي: أي يشق النواة الميتة فيخرج منها ورقًا أخضر وكذلك الحبة. . . .».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

للبذور النباتية اسمان متمايزان أولهما: (الحب)، وثانيهما (النوى)، ويعبر بلفظة (الحب) أو (الحبوب) عن البذور المستخدمة كمحاصيل غذائية أساسية للإنسان، مثل حبوب القمح (الحنطة)، والشعير، والذرة، والشوفان، وكلها من حبوب النباتات الوعائية، المزهرة، المكونة من فلقة واحدة، أما ذات الفلقتين فيطلق عليها اسم (البذور) من مثل بذور العائلة القرنية التي منها: الفول، الحمص، البازلاء، الفاصوليا، اللوبيا، العدس، الترمس، فول الصويا، الفول السوداني، الحلبة، البامية، كما قد تطلق على البذور التي لا يأكلها الإنسان مثل بذور البرسيم، والقطن، وغيرهما. أما البذور التي لها قدر من الصلابة فيطلق عليها اسم النوى (ومفردها نواة) كما قد تجمع على (أنواء) وذلك مثل نواة كل من البلح، والمشمش، والبرقوق، والخوخ، والزيتون، وغيرها، واللفظة تذكر وتؤنث، وقد وردت في القرآن الكريم مرة واحدة. وأيًا كانت طبيعة غلاف أو أغلفة البذرة، رقيقة هشة، أو

سميكة خشبية، أو قرنية صلبة، فإن الله ـ تعالى ـ قد أعطى للجنين الكامن بداخلها القدرة على شقها وفلقها بمجرد توافر الشروط اللازمة لإنباته، وذلك من أجل تيسير خروج النبتة الجنينية النامية من داخل البذرة فى عملية معجزة تعرف باسم «عملية إنبات البذور» التى تتكاثر بها معظم النباتات الراقية.

والنباتات البذرية التى منها معظم طعوم واحتياجات الناس تضم أكثر من ربع مليون نوع من أنواع النباتات الراقية على اختلاف أوضاعها التصنيفية، ويمثل كل نوع منها بعشرة أصناف فى المتوسط على أقل تقدير، ويمثل الصنف الواحد بأعداد لا تحصى من الأفراد، ويستمر كل فرد من هذه الأفراد فى التكاثر عن طريق انتشار أو استنبات بذوره إلى ما شاء الله. وقد يطلق على كل المحاصيل المستخدمة كمواد غذائية أساسية للإنسان اسم **(الغلة)** وجمعها **(الغلال)** بمعنى ما تغله الأرض، وإن كانت لم ترد هذه اللفظة فى القرآن الكريم. . وأصل كلمة **(الحبة)** مستمد من قلب كل شىء أو ثمرته، فحبة القلب: سويداؤه، وحبة النبات ثمرته، و **(الحِبة)** و**(الحِب)** بكسر الحاء تقالان لبذور نباتات الصحراء مما ليس بقوت للإنسان مثل بذور الأعشاب، والرياحين، والحشائش، استنادًا إلى ما جاء بالحديث الشريف: «**فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل**».

وجاء ذكر كلمة (حبة) فى القرآن الكريم ست مرات فى خمس من الآيات.

ماهية البذور

البذور فى النباتات الراقية هى البويضات المخصبة، وعلى ذلك فإنها هى وسيلة التكاثر فى معظم هذه النباتات؛ لأنها تحوى أجنتها الكامنة فى حالة من السكون المؤقت، والجنين يشغل حيزًا ضئيلاً جدًا من حجم البذرة، أما باقى حجمها فيتكون من مواد غذائية غير حيّة مكتنزة يحتاج إليها الجنين فى مراحل إنباته الأولى حتى يخرج منه المجموع الجذرى متجهًا إلى أسفل، مخترقًا التربة ـ باحثًا عن الماء والغذاء على هيئة الأملاح المذابة فى هذا الماء أو من عناصر ومركبات التربة بطرائق مباشرة أو غير مباشرة، وحتى يندفع المجموع الخضرى من الجنين إلى أعلى، باحثًا عن كلٍّ من الهواء وأشعة الشمس، وبمجرد تكوّن الأوراق الخضراء، يبدأ النبات فى

تصنيع الغذاء اللازم لنموه ولبناء جميع خلاياه، وأنسجته، وأزهاره، وثماره بواسطة عملية التمثيل الضوئى.

ويغلف البذرة بما فيها من الجنين والمواد الغذائية المكتنزة عدد من الأغلفة اللازمة لحمايتها من المؤثرات الخارجية، ومن أهم هذه الأغلفة ما يعرف باسم (**القصرة**)، وهى تتكون من أغلفة البويضة بعد عملية الإخصاب مباشرة، كما يتكون غلاف الثمرة من جدار المبيض فور إتمام عملية الإخصاب.

وعندما يتم نضج البذرة فإنها تجف، ويبقى الجنين الحى بداخلها فى حالة من السكون المؤقت حتى تتهيأ له الظروف المناسبة للإنبات. ويتفاوت طول الفترة التى تمر بين نضج البذرة وصلاحيتها للإنبات تفاوتًا كبيرًا، ففى بعض الحالات تكون البذور صالحة للإنبات بمجرد انطلاقها من الثمرة أو إخراجها من داخلها، ومثل هذه البذور إذا تعرضت للجفاف فإن الجنين بداخلها قد يفقد شيئًا من حيويته أو يموت، وفى بعض النباتات الأخرى قد يظل الجنين محتفظًا بحيويته فى داخل البذرة (أو الحبة أو النواة) لسنوات عديدة كما هو الحال فى العائلة القرنية، ونوى العديد من الثمار مثل نوى نخيل البلح.

وتتباين بذور النباتات فى عدد أغلفتها، وفى شكل وطبيعة تلك الأغلفة، وفى حجم وشكل الجنين، وفى طبيعة خزن المواد الغذائية المصاحبة للجنين، إما فى نسيج خاص يعرف باسم «الإندوسپرم - **Endosperm**» أو فى فلقة واحدة أو فلقتين أو أكثر، وهذا الغذاء المختزن إما أن يكون نشويًا دقيقيًا كما هو الحال فى حبة القمح، أو قرنيًا صلبًا كما هو الحال فى حبة الذرة، أو يكون سليولوزيًا صلبًا كما هو الحال فى نواة ثمرة نخيل البلح.

فلق الحب والنوى (أو إنبات البذور)

تقوم أغلفة البذور بحمايتها من المؤثرات الخارجية، وهذه الأغلفة غالبًا ما تكون مميزة وتعرف باسم « **القصرة**» ، ولكنها فى بعض الأحوال قد تلتحم بجدار البذرة حتى لا يمكن تمييزها. وقد هيأ الخالق العظيم للجنين فى داخل البذرة قدرًا من

الاتصال المحدود بالعالم الخارجى عن طريق ندبة دائرية دقيقة جداً تعرف باسم «السرة»، وتمثل مكان ارتباط البذرة بالحبل السرى، ويوجد تحت السرة ثقب أدق منها كثيراً يعرف باسم «**النقير**»، وتغطى هاتان الفتحتان بنسيج إسفنجى يعرف باسم (**البسباسة**) له قدرة على امتصاص الماء، وقد تكون هاتان الفتحتان على هيئة شقين طوليين دقيقين فيعرفان باسم «**القلم والكوز**» . وهذه الفتحات هى مدخل الأوكسچين إلى الجنين، ومدخل معظم الماء الذى تمتصه البذرة وقت إنباتها .

والجنين الكامن فى داخل البذرة يتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية هى :

(١) الريشة وتعطى المجموع الخضرى بعد نموها .

(٢)الجذير ويعطى المجموع الجذرى بعد نموه .

(٣) السويقة وتعطى الساق بعد نموها .

ويحيط بالجنين مخزون من المواد الغذائية فى نسيج خاص يعرف باسم «الإندوسپرم» فى فلقة واحدة أو فى فلقتين أو أكثر، وهذا المخزون الغذائى فى داخل بذور النباتات يتكون من المواد الكربوهيدراتية، والبروتينية، والدهون بنسب تتفاوت بتفاوت نوع النبات . ومن النباتات مغطاة البذور ذوات الفلقة الواحدة نبات الذرة، ومن ذوات الفلقتين نبات الفول، ومن النباتات عديدة الفلقات الصنوبر وهو من النباتات معراة البذور . وقد تبقى الفلقة أو الفلقتان أو الفلقات تحت سطح التربة، وقد ترتفع أو ترتفعان فوق سطح الأرض وتلعب أو تلعبان دور أوراق أولية تعرف باسم «الأوراق الفلقية» .

من شروط إنبات البذور

بعد فترة السكون التى عاشها الجنين فى داخل البذرة الجافة، فإن البذرة لكى تنبت وتتحول بالتدريج إلى بادرة ثم إلى النبات الكامل، فإنها تحتاج إلى توافر عدد من الشروط الداخلية والخارجية، والشروط الداخلية تتعلق بالبذرة ذاتها ومنها حيوية الجنين، ونضج البذرة، وسلامتها من التسوس والعفن، ومن سمات نضج البذرة تخلصها من المواد الكابحة للنمو والمثبطة له من مثل «الحمض الأبسيسى ـ **Abscisic Acid**» والذى يتخلق فى بعض البذور ليساعد الجنين على السكون والكمون فى

داخل البذرة، ويضمن سباته حتى تتوافر له الظروف المناسبة لإنباته. وكثير من البذور يتوقف إنباتها على إزالة تلك المواد المثبطة للنمو، ويتم ذلك بواسطة الضوء والحرارة، أو بإفراز مواد مضادة للمواد المثبطة بواسطة الجنين ذاته فى داخل البذرة، فسبحان الذى قدر ذلك بعلمه وحكمته وقدرته.

ومن الشروط الداخلية لإنبات البذرة توافر الإمكانية لوصول القدر الكافى من كل من الماء والأكسچين إليها عن طريق فتحات دقيقة هيأها الخالق - سبحانه وتعالى - فى جسم البذرة من مثل السرة والنقير أو القلم والكوز، خاصة وأن بعض أنواع البذور مغطاة بطبقة خارجية صلبة قد تحول دون وصول القدر الكافى من الماء والأكسچين إلى الجنين إلا بعد أن تمر تلك الطبقة الخارجية للبذرة بسلسلة من النشاطات الطبيعية أو الكيميائية أو الميكروبية التى تعين على تمزيقها. ومثل هذه البذور قد يصعب استنباتها إلا بعد خدش غطائها الخارجى، أو غسلها ونقعها فى الماء لفترة محددة، أو تعريضها للضوء أو لدرجات الحرارة المنخفضة (حوالى خمس درجات مئوية لمدة تتراوح بين أربعة وستة أسابيع)؛ وذلك لأن كلاً من الضوء والحرارة المنخفضة يعمل على تنشيط الجنين فى داخل البذرة، ومساعدته على الإنبات.

أما عن الشروط الخارجية فأولها توافر الماء بالمواصفات المناسبة؛ لأنه أهم شروط الإنبات، وبالقدر الكافى؛ لأن غمر البذور بالماء قد يؤدى إلى إفسادها، لمنعه الأكسچين من الوصول إلى الجنين فى داخل البذرة، وكذلك توافر القدر الكافى من الأكسچين، وتوافر درجات الحرارة والإضاءة المناسبة؛ وذلك لأن بعض البذور تنشط عملية إنباتها فى الضوء بينما البعض الآخر يفضل الظلام.

التغيرات التى تطرأ على البذرة فى أثناء إنباتها

عند توافر كلٍّ من الشروط الداخلية والخارجية للإنبات، تبدأ فى داخل البذرة سلسلة معقدة من عمليات البناء والهدم التى تعين الجنين على التحرك بالنمو بعد فترة السكون التام التى عاشها وهو كامن فى داخل البذرة الجافة، فيبدأ بالإنبات ليعيد دورة حياة النبتة الأم من جديد. وتشمل عملية الإنبات ما يلى:

(١) امتصاص البذرة للماء، وانتفاخها بسبب الامتلاء التدريجى بهذا الماء حتى تبدأ القصرة - غلاف البذرة - فى التمزق بسبب ازدياد الضغط عليها من داخل البذرة، وبذلك يصل الماء بالقدر الكافى إلى الجنين، وإلى كتلة الغذاء المختزنة حوله مما يساعد على تنشيط كتلة الغذاء كيميائيّا، وعلى تنشيط الجنين حيويًا.

(٢) بدء الجنين فى إفراز عدد من الإنزيمات القادرة على تفتيت وتحلل المواد الغذائية المختزنة حوله فى داخل البذرة إما فى الفلقات أو فى نسيج خاص، وهى مواد معقدة التركيب وغير قابلة للذوبان فى الماء، فتحللها تلك الإنزيمات إلى مواد بسيطة وقابلة للذوبان فى الماء حتى يمكن للجنين امتصاصها والعيش عليها أثناء فترات الإنبات الأولى. ومن أمثلة هذه الإنزيمات: إنزيم الدياستيز الذى يحول النشا إلى سكر، وإنزيم البروتيز الذى يحول البروتينات إلى أحماض أمينية، وإنزيم الليبيز الذى يحول الدهون والزيوت إلى أحماض دهنية وجلسرين. ويؤدى هذا التحلل إلى تضخم حجم المخزون الغذائى فى داخل البذرة أضعافًا كثيرة.

(٣) شق التربة: من أهم عوامل شق التربة انتفاخ البذور نتيجة لامتصاصها كميات مناسبة من الماء؛ لأن ذلك يولد قوة هائلة تعرف باسم «قوة الإنبات» وهى قوة لا يكاد العقل البشرى يتصور قدرها، لدرجة أننا إذا ملأنا زجاجة بالبذور الجافة، وأضفنا إليها قدراً مناسبًا من الماء، وأحكمنا غلق الزجاجة فإن القوة الناتجة عن إنبات البذور وتضخم حجمها بامتصاص الماء تصبح كافية لتفجير الزجاجة مهما يكن سمك جدارها.

ويعين على شق التربة تعطش المعادن المكونة لها للماء، وامتصاصه بكميات كبيرة مما يؤدى إلى زيادة حجمها، وارتفاعها إلى أعلى حتى ترق التربة رقة شديدة ثم تنشق لتفسح طريقًا سهلاً للسويقة الممتدة إلى أعلى من البذرة النابتة.

ويساعد على تحرك جزيئات التربة إلى أعلى غلبة المعادن الصلصالية عليها، وهى على هيئة رقائق صفائحية دقيقة تحتفظ بقدر من الغازات فيما بينها، فإذا تخللها الماء حل محل تلك الغازات، ودفع بها إلى خارج التربة مما يؤدى إلى

انتفاض حبيبات التربة إلى أعلى واهتزازها بعنف حتى ترق التربة وتنشق. ويعين على ذلك أيضًا ما تحمله رقائق الصلصال من شحنات كهربية تتنافر مع الشحنات المشابهة على جزيء الماء ذى القطبية الكهربية المزدوجة (الموجبة على ذرتى الهيدروچين والسالبة على ذرة الأكسچين).

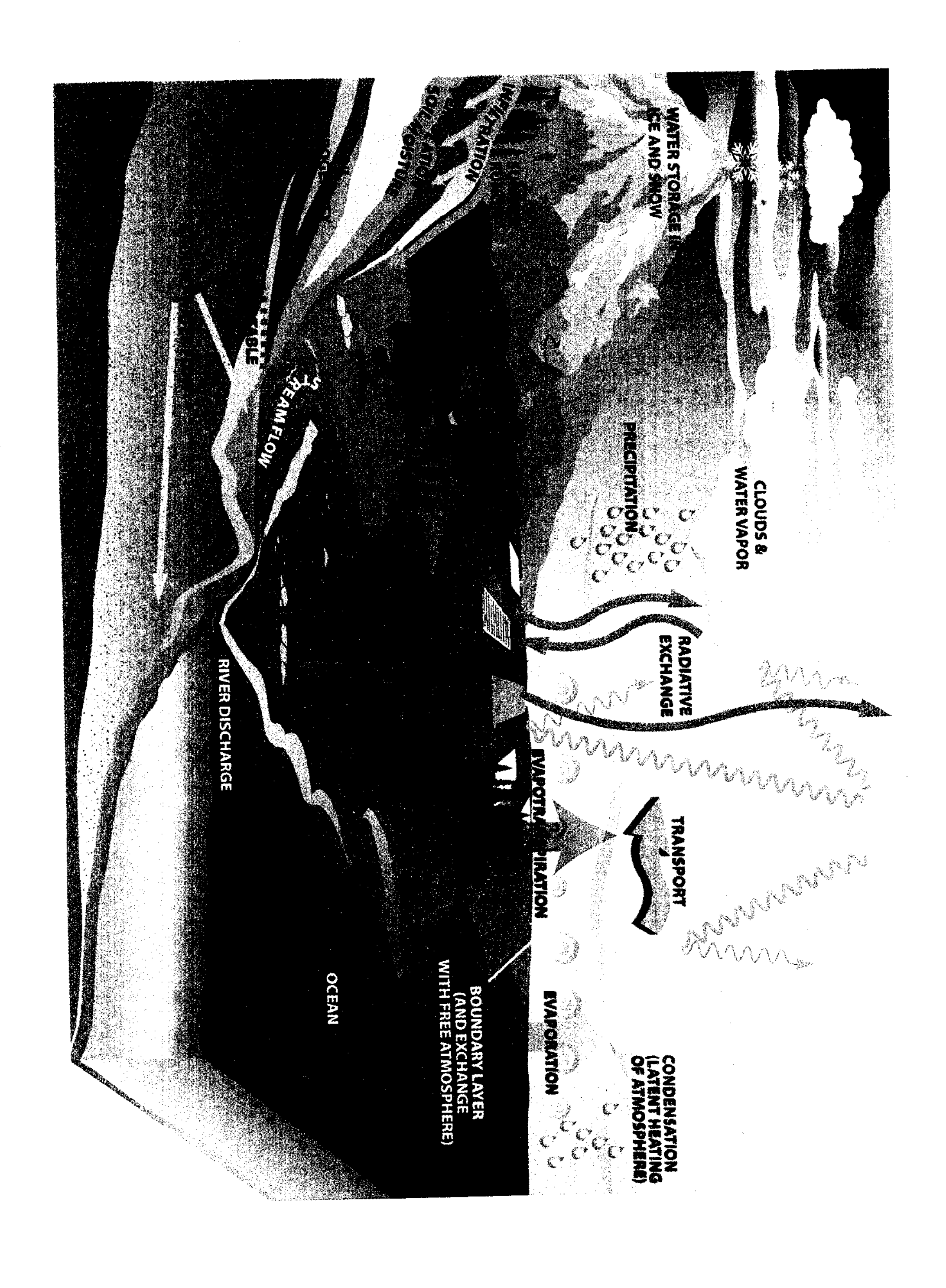
(٤) بدء خلايا الجنين فى الانقسام والنمو مما يزيد فى حجمه باستمرار حتى يمتد الجذير إلى أسفل ويعمل على تثبيت النبتة فى التربة، وبذلك تتصل بمصدر غذائها الطبيعى الذى تقوم بامتصاصه على هيئة العصارة الغذائية المكونة من الماء وما به من العناصر والمركبات المذابة أو التى يستخرجها المجموع الجذرى مباشرة من مكونات التربة بإفراز مذيبات خاصة لكل عنصر أو مركب كيميائى، وقد أعطى الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ كل نبتة من النباتات قدرات اختيارية عالية تختار بها مايناسبها من عناصر ومركبات الأرض اللازمة لنموها. وبعد تكوّن المجموع الجذرى ترتفع الريشة مخترقة شقوق التربة لتظهر فوق مستوى سطح الأرض، وبذلك تتحول ـ البذرة النابتة ـ إلى ما يسمى باسم «البادرة» التى تستطيل بالتدريج لتعطى الساق حاملاً الأوراق والبراعم مكونة المجموع الخضرى. وباستمرار مراحل النمو المتتالية تتحول البادرة إلى النبات الكامل، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وفى عملية الإنبات قد تبقى الفلقة أو الفلقتان تحت سطح التربة ـ محاطة بالقصرة المزقة ـ حتى يستنفد ما خزن بها أو بهما من غذاء فى تغذية الجنين، وذلك كما يحدث فى إنبات بذور البازلاء، أو إنبات نوى نخيل البلح، وفى المقابل قد تنمو السويقة إلى أعلى حاملة معها الفلقة أو الفلقتين إلى ما فوق سطح التربة، ومعهما الريشة، وتأخذ الفلقة أو الفلقتان فى الاخضرار التدريجى للمشاركة فى عملية التمثيل الضوئى لفترة محددة، حتى تستطيل الريشة وتظهر عليها الأوراق الخضراء مكونة المجموع الخضرى للنبات الذى يقوم بعملية التمثيل الضوئى، وحينئذ تضمر الورقة الفلقية أو الورقتان الفلقيتان وتسقط أو تسقطان بعد استنفاد ما بهما من غذاء.

هذه العمليات المعقدة فى فلق كلٍّ من الحب والنوى لا يقوى عليها أحد من الخلق، ولا يمكن لها أن تتم بغير توجيه وهداية ربانية، ومن هنا نسب الخالق - تبارك وتعالى - هاتين العمليتين لذاته العلية تشريفًا لهما، وتعظيمًا لشأنهما؛ لأنه بدونهما ما كانت هناك إمكانية للحياة على الأرض، ولذلك قال عز من قائل: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ**... ﴾ [الأنعام: ٩٥].

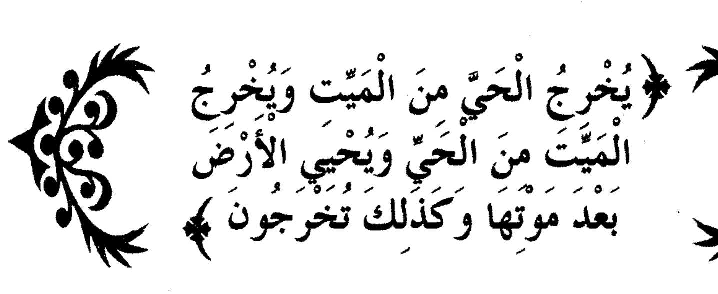
فالحمد لله على نعمه المتعددة ومنها فلق الحب والنوى، وعلى رأس تلك النعم القرآن الكريم، الذى أنزله ربنا - تبارك وتعالى - بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وتعهد - سبحانه وتعالى - بحفظه فى نفس لغة وحيه، فحفظه كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، ولذلك بقى القرآن الكريم محتفظًا بجلال الربوبية المتلألئ بين آياته، وبالدقة العلمية الواضحة فى كل إشاراته، والشاهدة على صدق وحيه، وصدق نبوة الرسول الخاتم الذى تلقاه. فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

* * *



CLOUDS & WATER VAPOR
WATER STORAGE IN ICE AND SNOW
PRECIPITATION
RADIATIVE EXCHANGE
TRANSPORT
CONDENSATION (LATENT HEATING OF ATMOSPHERE)
EVAPORATION
BOUNDARY LAYER (AND EXCHANGE WITH FREE ATMOSPHERE)
OCEAN
RIVER DISCHARGE

بسم الله الرحمن الرحيم

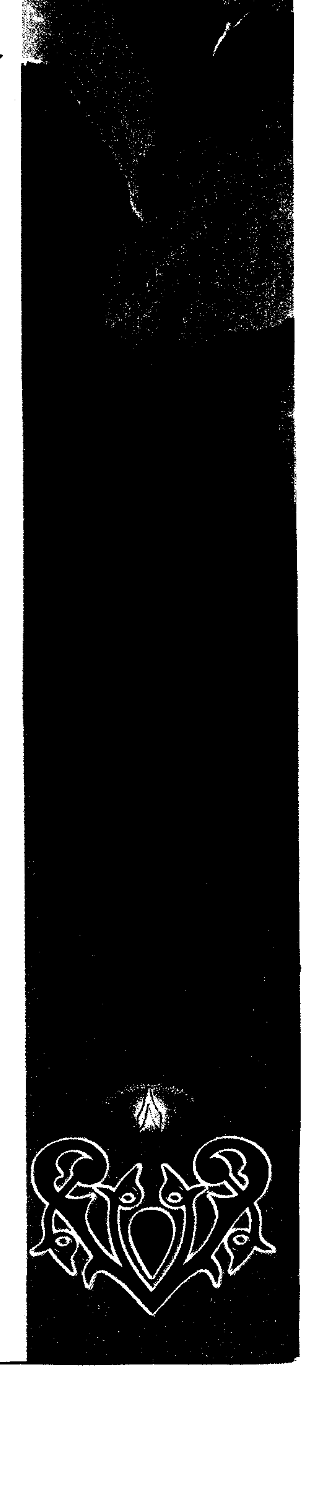


(الروم: ١٩)

هذه الآية الكريمة جاءت فى نهاية الثلث الأول من سورة الروم، وهى سورة مكية، وآياتها ستون بعد البسملة؛ ويدور محورها الرئيسى حول قضية العقيدة الإسلامية. وقد سميت السورة بهذا الاسم لاستهلالها بالحديث عن هزيمة جيوش الروم أمام جيوش الإمبراطورية الفارسية سنة ٦١٥م، ثم النبوءة القرآنية بغلبة الروم للفرس وقد تم ذلك بالفعل بعد سنوات قليلة (فى حدود سنة ٦٢٤م).

عرض موجز لسورة الروم

تزخر السورة الكريمة بالأمر بتسبيح الله، وتمجيده، وتنزيهه، وحمده، وإقام الصلاة له ـ سبحانه وتعالى ـ وحده، وتنصح خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ بأن يقيم وجهه لدين الله وهو الإسلام الحنيف، الذى لا يرتضى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من عباده دينًا سواه؛ لأنه دين الفطرة التى فطر الله -تعالى- الناس عليها أى جعلهم مهيأة قلوبهم وعقولهم ونفوسهم لقبوله إذا خُلِّى



بينهم وبينه بغير ضغوط أو عوائق، وهى فطرة لا تبديل لها، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ذلك، والأمر هنا موجه له ﷺ ولأمته من بعده إلى يوم الدين.

وتأمر السورة الكريمة المسلمين بضرورة الإكثار من التوبة إلى الله والرجوع إليه، وإخلاص العمل له، وتقواه، كما تأمرهم بإقام الصلاة، وبالحذر من الوقوع فى دنس الشرك بالله؛ لأن الشرك ظلم عظيم للنفس، ولأن الذين أشركوا قد فرقوا دينهم، وكفروا بربهم، وكانوا شيعًا وكل حزب منهم فرح بما لديه، مقتنع بأنه على الحق وأن غيره على الباطل، وأنه وحده هو الناجى، وغيره هالك . . . !!

وتحدثت سورة الروم عن شيء من التقلب فى طبائع النفس البشرية، مثل اللجوء إلى الله ـ تعالى ـ فى الشدة، والإعراض عنه ـ سبحانه ـ فى الرخاء، أو الإيمان به ـ جل شأنه ـ فى ساعات الضيق، والكفر أو الشرك به ـ سبحانه وتعالى ـ فى لحظات السعة.

وتضرب السورة الكريمة مثلاً للناس من حياتهم على سخافة فكرة الشرك بالله إذا ناقشها العقل بشيء من الموضوعية والحيدة؛ وتربط بين ظهور الفساد فى البر والبحر، وبين أعمال الناس، وما كسبت أيديهم، وتأمر بالسير فى الأرض لاستخلاص الدروس والعبر من سير الأولين ومصائر الظالمين.

وتكرر «سورة الروم» على خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ تأكيد ضرورة الاستقامة على دين الإسلام، ذلك الدين القيم، من قبل أن تأتى الآخرة فيصدع بها كل الخلائق، ثم يُجزى كل بعمله، وبأن ما عليه إلا البلاغ، وتذكره ﷺ بشيء من قصص الذين جاءوا قبله من الأنبياء والمرسلين، وما أصاب الظالمين من أقوامهم من انتقام، ونال المؤمنين منهم من نصر وتأييد.

وخلصت السورة الكريمة إلى الحديث مرة أخرى عن البعث وأهواله، وعن مصير أهل الشرك والكفر والضلال فى الآخرة، وعن مصير أهل الإيمان والتقوى فيها، وتكرر الإشارة إلى شيء من طبائع النفس الإنسانية، ولقد ضرب لها الله ـ تعالى ـ فى آيات القرآن الكريم من كل مثل، ولكن الذين كفروا لا يؤمنون لأنهم لا يعلمون، والله ـ جلت قدرته ـ قد طبع على قلوب الذين لا يعلمون.

وتختتم «سورة الروم» بتثبيت خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بوصية من الله ـ تعالى ـ له ولأمته من بعده بالصبر على استخفاف الكفار والمشركين بدعوته، وتطمئنه بأن الله قد وعده بالنصر، وأن وعد الله حق، وهو واقع لا محالة . . .

وفى ثنايا هذه السورة الكريمة كثر الاستشهاد بالآيات الكونية على طلاقة القدرة الإلهية فى إبداع الخلق، وقدرته ـ سبحانه ـ على إفناء خلقه وإعادة بعثه، وفى ذلك من دلائل الألوهية والربوبية الوحدانية ما ينفى شبهة الشرك عن الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وفى ذلك أيضًا خطاب لأهل عصرنا الذين فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، وانصرفوا عن الدين بدعوى تعارض معطياته كما تلقوها من «سفر التكوين» مع معطيات العلم فى زمن تفجر المعارف العلمية الذى نعيشه، وقد حاول نفر من الجاهلين إلصاق نفس الشبهة بالإسلام العظيم، ولكنهم لا يعلمون أن المعطيات الكلية للعلوم فى هذا الزمن تتوافق تمامًا مع معطيات القرآن الكريم، كما يتضح ذلك من أكثر من ألف آية قرآنية كريمة، منها الإشارات العلمية فى سورة الروم.

من ركائز العقيدة الإسلامية فى سورة الروم

ومن ركائزها التى جاءت بها السورة الكريمة ما يلى :

(١) الإيمان بالله ـ تعالى ـ الذى له الأمر من قبل ومن بعد فى كل شىء.

(٢) الإيمان بأن النصر من الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

(٣) الإيمان بأن وعد الله حق وأن الله ـ تعالى ـ لا يخلف وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

(٤) الإيمان بأن أكثر الناس لا يعلمون: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم: ٧].

(٥) الإيمان بحقيقة النص القرآنى القائل: ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ** ﴾ [الروم: ٨].

(٦) الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله، وبخاتمهم ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ.

(٧) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ لا يظلم أحداً ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

(٨) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ يبدأ الخلق ثم يعيده، وأن الخلق جميعًا إلى الله راجعون فى ساعة محددة من يوم محدد فى علمه ـ تعالى ـ لا يعلمه إلا هو، والإيمان بأن الآخرة ركن من أركان العقيدة الإسلامية.

(٩) الإيمان بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الآخرة سوف ينعمون فى روضة يحبرون.

(١٠) الإيمان بأن الذين كفروا وكذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة سوف يشقون فى الآخرة فى نار جهنم وهم فى العذاب محضرون.

(١١) الإيمان بضرورة تسبيح الله فى المساء وفى الصباح، وحمده فى السماوات والأرض، وعشيًا وحين يظهر الناس، ووصفه ـ سبحانه وتعالى ـ بصفات الكمال المطلق الذى يليق بجلال الله وتنزيهه ـ تعالى ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل نسبة الزوجة أو الولد أو الشريك أو الشبيه إليه، وكلها من صفات البشر المخلوقين ـ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

(١٢) الإيمان بأن عمليتى الخلق الأول من تراب ثم البعث فى الآخرة مناظرة تمامًا لإخراج الحى من الميت فى الدنيا، ولعملية إحياء الأرض بعد موتها، وأن الله ـ تعالى ـ يخلق ما يشاء وأنه هو العليم القدير.

(١٣) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ ﴿ ... وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

(١٤) الإيمان بأن الذين يتبعون أهواءهم بغير علم يضلهم الله، ومن يضلل الله فلا هادى له، وأن الله ـ تعالى ـ يطبع على قلوب الذين لا يعلمون.

(١٥) الإيمان الكامل بأن الإسلام هو دين الله الذى أنزله على فترة من الرسل، والذى أتمه وأكمله وحفظه فى رسالته الخاتمة التى أنزلها على خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وأن هذا الدين هو

فطرة الله التى فطر الناس عليها وأنه : ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

(١٦) الإيمان بوحدانية الله ـ تعالى ـ وبأنه على كل شيء قدير، والإيمان كذلك بضرورة الإنابة إليه، وتقواه، وإقام الصلاة له وحده ـ سبحانه ـ ونفى الشرك عن ذاته العلية.

(١٧) الإيمان بأن المشركين: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] قد انحرفوا عن دين الله وعن فطرته التى فطر الناس عليها.

(١٨) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو الذى ﴿.... يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ....﴾ [الروم: ٣٧].

(١٩) الإيمان بأن لكل من ذى القربى والمسكين وابن السبيل حقوقًا منحهم إياها الله ـ تعالى ـ ولا يجوز لمسلم يرجو وجه الله ـ تعالى ـ أن يقصر فيها أبدًا.

(٢٠) الإيمان بأن (الربا) الذى (يربو) فى أموال الناس لا يربو عند الله، وأن صدقات التطوع التى تدفع فى سبيل الله وطلبا لمرضاته هى التى تستحق الأضعاف من الحسنات.

(٢١) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو الذى خلقنا، وهو ـ سبحانه ـ الذى رزقنا، وأنه ـ جلت قدرته ـ هو الذى يميتنا ثم يحيينا، ولا يمكن لأحد أن يفعل ذلك إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن هنا كانت جريمة الشرك بالله جريمة لا يغفرها الله أبدًا.

(٢٢) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ لا يحب الكافرين، وأنه ـ سبحانه ـ يبغض المشركين.

وقد استهلت «سورة الروم» بالتنبؤ بحدث غيبى قبل وقوعه بعدة سنوات ألا وهو انتصار الروم على الفرس بعد أن كان الفرس قد هزموهم هزيمة منكرة قبل نزول هذه السورة المباركة بعدة سنوات.

من الآيات الكونية فى سورة الروم

الآيات الكونية التى جاءت فى سورة الروم كثيرة، ويمكن إيجازها فى النقاط التالية:

(١) وصف أرض المعركة التى هزمت فيها جيوش الدولة الرومانية الشرقية ـ الدولة البيزنطية ـ أمام جيوش الفرس بوصف أدنى الأرض بمعنى أخفض الأرض أو أقرب الأرض، وأرض المعركة الفاصلة فى هذا الصراع كانت فى منطقة أغوار وادى عربة البحر الميت وادى الأردن، وقد أثبتت الدراسات الحديثة أنها أخفض بقاع اليابسة على الإطلاق، وهى فى الوقت نفسه أقربها إلى شبه الجزيرة العربية أو هى جزء منها.

(٢) التنبؤ بغلبة الروم على الفرس بعد هذه الهزيمة المنكرة ببضع سنين، ويروى لنا التاريخ أن هزيمة الروم أمام جيوش الفرس كانت فى حدود سنة ٦١٤/ ٦١٥، وأن استعادتهم النصر على الفرس كان فى حدود سنة ٦٢٤ م والبضع فى اللغة هو بين الثلاث والتسع.

(٣) التقرير بأن خلق السماوات والأرض قد تم بالحق وأجل مسمى، وأن ذلك آية من آيات الله الدالة على طلاقة قدرته، وأنه لا تبديل لخلق الله.

(٤) أن الله ـ تعالى ـ هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وأن الخلق جميعهم إلى الله راجعون، وأن لله المثل الأعلى فى السماوات والأرض.

(٥) الإشارة إلى حقيقة أن الله ـ تعالى ـ يخرج الحى من الميت، ويخرج الميت من الحى، ويحيى الأرض بعد موتها، وأن هكذا يكون بعث الخلق من قبورهم فى يوم القيامة.

(٦) أن الله ـ تعالى ـ خلق الإنسان من تراب، وأنه ـ سبحانه ـ خلقه كغيره من سائر المخلوقات فى زوجية من نوعه، وجعل الزوجية سكنًا للزوجين، وراحة نفسية، وجعل بينهما مودة ورحمة.

(٧) الإشارة إلى اختلاف ألسنة وألوان الناس، وهم يرجعون فى الأصل إلى أب واحد، ودلالة ذلك على طلاقة القدرة الإلهية الخالقة.

(٨) أن الله ـ تعالى ـ قد جعل الليل سكنًا للناس، وقد جعل النهار معاشًا لهم، وعلى الرغم من ذلك، فإنه ـ تعالى ـ قد أعطى الإنسان القدرة على النوم بالنهار، كما جعل من الحيوانات ما ينام دومًا بالليل، ومنها ما ينام دومًا بالنهار.

(٩) الإشارة إلى ظاهرة البرق، وارتباطها بإنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها.

(١٠) تأكيد علاقة الأرض بالسماء وأنها تقوم بأمر الله، والإشارة إلى إخراج الناس من الأرض فى يوم البعث.

(١١) تقرير أن جميع من فى السماوات والأرض هم ملك لله وحده، وأن الجميع مطيعون له طاعة انقياد، لا يمتنعون عليه فى شىء يريد فعله بهم، وإن عصاه بعضهم فإن ذرات جسده وخلاياه خاضعة رغم أنفه لله.

(١٢) الإشارة إلى الإفساد المادى والمعنوى فى كل من البر والبحر بما تكسبه أيدى الناس، وأن الله -تعالى- سوف يذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون.

(١٣) الإشارة إلى إرسال الرياح مبشرات برحمة من الله وفضل، وعلاقة ذلك بجريان الفلك بأمر الله.

(١٤) وصف السحاب الطباقى وطرائق تكوينه وإنزال المطر منه بدقة بالغة.

(١٥) الإشارة إلى المراحل المتعاقبة فى دورة حياة الإنسان على الأرض من ضعف إلى قوة ثم إلى ضعف وشيبة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستفيضة لا يتسع لها المجال، ولذلك أقصر حديثى هنا على النقطة الخامسة فقط من القائمة السابقة، والتى تعالج قضية مهمة هى إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى، وقبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين فى تفسير هذه الآية الكريمة ..

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : ١٩] .

* ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره : «وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ** ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة ، فإنه يذكر خلقه الأشياء وأضدادها ليدل على كمال قدرته ، فمن ذلك إخراج النبات من الحب ، والحب من النبات ؛ وإخراج البيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ؛ والإنسان من النطفة ، والنطفة من الإنسان ؛ والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . وقوله تعالى : ﴿ **وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ** ﴾ [يس : ٣٣] ، وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [الحج : ٥] ولهذا قال : ﴿ **وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** ﴾

[الروم : ١٩]» .

* وجاء فى تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما مختصره : «﴿ **يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ** ﴾ كالإنسان من النطفة ، والطائر من البيضة ، ﴿ **وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ...** ﴾ النطفة والبيضة ﴿ **مِنَ الْحَىِّ** ﴾ ﴿ **وَيُحْيِي الأَرْضَ** ﴾ بالنبات ﴿ **بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾) أى يبسها» .

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم ـ أنه : «فى كل لحظة يخرج حى من ميت ويخرج ميت من حى . وفى كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج إلى وجه الحياة ، وفى كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفى أجلها فتتحول إلى هشيم أو حطام ، ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والإنبات ، ويوجد الغاز الذى ينطلق فى الجو أو تتغذى به التربة ، وتستعد للإخصاب ، وفى كل لحظة تدب الحياة فى جنين إنسان أو حيوان أو طائر . والجثة التى ترمى فى الأرض وتختلط بالتربة وتشحنها بالغازات هى مادة جديدة للحياة وغذاء جديد للنبات ، فالحيوان والإنسان ، ومثل هذا يتم فى أغوار

البحار وفى أجواء الفضاء على السواء. إنها دورة دائبة عجيبة رهيبة لمن يتأملها بالحس الواعى والقلب البصير، ويراها على هدى القرآن ونوره المستمد من نور الله. ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ . . . فالأمر عادى واقعى لا غرابة فيه وليس بدعًا مما يشهده الكون فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار فى كل مكان!!».

* وجاء فى كل من صفوة البيان لمعانى القرآن، والمنتخب فى تفسير القرآن الكريم، وصفوة التفاسير - جزى الله كاتبيها خير الجزاء - كلام مشابه لا أرى حاجة إلى استعراضه هنا.

إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى فى القرآن الكريم

جاء هذا المعنى فى أربعة مواضع من القرآن الكريم على النحو التالى:

(١) ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٧].

(٢) ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥].

(٣) ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]

(٤) ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم: ١٩].

الدلالة العلمية للآية الكريمة

تشير هذه الآية الكريمة إلى قدرة الله على خلق الأحياء من المواد الأولية التى أوجدها مع بدء خلقه للكون، وهى مواد ميتة لا روح فيها ولا حياة، وبعد انتزاع الروح من الكائن الحى يعود جسده إلى تلك المواد الأولية التى بدأ خلقه منها، وبذلك فالله - تعالى - وحده هو الذى يملك إخراج الحى من الميت، وإخراج الميت

من الحى؛ وينطبق ذلك على الخلق الأول للحياة، وعلى البعث فى الآخرة، كما ينطبق على العمليات الوسطى بينهما من الميلاد، والنمو، والتكاثر، والوفاة؛ وهى عمليات مستمرة إلى قيام الساعة، ومنضبطة بسنن كونية، وقوانين ربانية ثابتة لا تتوقف ولا تتخلف إلى أن يشاء الله، وهذه السنن والقوانين لم يدركها علم الإنسان الكسبى إلا فى العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورود الإشارة إلى حقيقتها فى كتاب الله الذى أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة بهذه الدقة البالغة لمما يجزم بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق، ومما يؤكد نبوة هذا النبى الخاتم ﷺ ويشهد بصدق رسالته، وبأنه ﷺ كان موصولا بالوحى، ومُعلَّما من قِبَل خالق السماوات والأرض.

ولشرح الدلالة العلمية للآية الكريمة لا بد لنا من التفريق بين تعبيرى الحى والميت.

الحى والميت فى اللغة العربية

(الحياة) فى العربية ضد الموت؛ و (الحى) ضد الميت، و (المحيا) من الحياة؛ يقال (أحياه) الله (فَحَيِىَ) و (حَىَّ)، وللجمع (حيوا)، و (الحيوان) ضد «الموتان».

وفى المقابل فإننا نجد أن (الموات) بالفتح هو كل ما لا روح فيه، وهو أيضًا الأرض التى لا مالك لها، والتى لا ينتفع أحد بها؛ و (الموت) ضد الحياة؛ يقال للحى إذا فارق الحياة: إنه قد (مات) (يموت)، و (يمات)، فهو (ميت) ـ بالتشديد والتخفيف ـ، وجمعه (موتى) و (أموات) و (ميتون) ـ بالتشديد والتخفيف ـ، ويستوى فى ذلك المذكر والمؤنث؛ و (الميتة) ما لم تلحقه الذكاة، و (الموات) بالضم هو (الموت)؛ يقال: (أماته) الله (موتة)؛ و (المستميت) المتعرض للمخاطر إلى حد الموت؛ و (المتماوت) المتظاهر بالموت من قبيل الرياء؛ ويقال للنوم إنه (موت خفيف أو مؤقت) وللموت إنه (نوم ثقيل ودائم إلى يوم البعث).

الموات فى كوننا

يتكون الجزء المدرك لنا من الكون فى غالبيته من غاز الأيدروچين الذى يشكل أكثر من ٧٤٪ من مادة الكون المنظور؛ وغاز الأيدروچين هو أخف العناصر وزنا،

وأقلها تعقيداً أى أبسطها بناء، وهو مادة غير حية. ويلى غاز الأيدروچين كثرة فى الجزء المدرك لنا من الكون غاز الهليوم الذى يشكل ٢٤٪ من مادة الكون المنظور، وهو ثانى العناصر المعروفة لنا، ويتكون فى داخل الشمس باتحاد أربع من نوى ذرات الأيدروچين وتنطلق الطاقة، ومعنى ذلك أن باقى العناصر المعروفة لنا والتى يزيد عددها على مائة عنصر تشكل أقل من ٢٪ من مادة الكون المنظور، وهى كلها غير حية، وقد أدت هذه الملاحظة إلى الاستنتاج الصحيح بأن جميع العناصر قد تخلقت باتحاد نوى ذرات الأيدروچين بعملية تعرف باسم الاندماج النووى، وهذه العملية تتم فى داخل نجوم السماء التى ينظر إليها على أنها أفران ذرية كونية عملاقة تتخلق فيها العناصر بالتدريج من أخفها (وهو غاز الأيدروچين) بعملية الاندماج النووى حتى تصل سلسلة هذه العمليات إلى إنتاج عنصر الحديد الذى لا يتم إنتاجه إلا فى داخل النجوم العملاقة وفى مراحل توهجها الشديد المسماة باسم «المستعرات العظمى»، وحينما يتحول قلب المستعر الأعظم إلى الحديد يكون قد استهلك طاقته فينفجر هذا النجم الأعظم، وتتناثر أشلاؤه فى صفحة السماء، لتدخل فى نطاق جاذبية عدد من الأجرام بتقدير من الله - تعالى - على هيئة النيازك ورماد الشهب، وقد تتعرض بعض نوى ذرات الحديد فى أثناء هذه الرحلة فى صفحة السماء لاصطياد عدد من الجسيمات الأولية للمادة - بتقدير من الخالق - سبحانه وتعالى - فيتكون من العناصر ما هو أعلى وزنًا، وأعقد بناء من الحديد.

وباتحاد نوى ذرات العناصر مع الإلكترونات تكونت الذرات، وباتحاد الذرات تكونت الجزيئات، وباتحادها تكونت المركبات.

وعندما انفصلت أرضنا عن الشمس - أو عن السديم الذى تكونت منه الشمس - لم تكن سوى كومة من الرماد ليس بها من العناصر ما هو أعلى وزنًا من (السليكون)، ثم رجمت بوابل من النيازك والشهب الحديدية التى بها بعض العناصر الأعلى وزنًا من الحديد، فاندفعت تلك المواد العالية الكثافة إلى قلب الأرض الأولية - كومة الرماد - فانصهرت وصهرتها ومايزتها إلى سبع أراضين: لب صلب داخلى أغلبه الحديد والنيكل، يليه إلى الخارج لب سائل أغلبه كذلك الحديد

والنيكل، ثم أربعة أوشحة متتالية تتناقص فيها نسبة الحديد من الداخل إلى الخارج، ثم الغلاف الصخرى للأرض وبه ٥,٦٪ من الحديد، وفى أثناء عملية التمايز تلك تكونت المعادن التى كونت الصخور الأولية ـ النارية ـ، والتى بدأت بها دورة الصخور. ومن الصخور النارية تكونت كلٌّ من الصخور الرسوبية والمتحولة، ومع تكون الصخور النارية، عبر المتداخلات النارية، والثورات البركانية أخرج الله ـ تعالى ـ من داخل الأرض ماءها، وغلافها الغازى، وهذه النطق الثلاثة: الغلاف الصخرى، والمائى، والغازى كلها مواد ميتة لا روح فيها ولا حياة.

ويقدر عمر الأرض بنحو ٤٦٠٠ مليون سنة، بينما يقدر عمر أقدم أثر للحياة على سطحها بنحو ٣٨٠٠ مليون سنة، أى أن الأرض أخذت ثمانمائة مليون سنة على الأقل من أجل إعدادها لاستقبال الحياة، والله ـ تعالى ـ قادر على أن يقول للشىء كن فيكون، ولكن هذا التدرج قصد به أن يفهم الإنسان سنن الله فى الخلق، وأن يحسن توظيفها فى عمارة الأرض، وفى حسن القيام بواجبات الاستخلاف فيها.

الأحياء على أرضنا

يحيا على يابسة أرضنا اليوم، وفى مياهها، وتحت هوائها من صور الحياة المدركة بلايين البلايين من الأحياء التى تنطوى فى نحو المليونى نوع من أنواع الحياة، تجمع فى ست ممالك هى: البدائيات، الطلائعيات، الفطريات، النبات، الحيوان، والإنسان.. التى ينقسم كل منها إلى عدد من القبائل، والفصائل، والرتب، والأجناس، والأنواع.

وبمعدل الاكتشافات الحالية يتوقع العلماء أن عدد الأنواع التى عاشت على الأرض واندثرت، والتى تعيش اليوم سوف يصل إلى نحو خمسة ملايين نوع من أنواع الحياة، يمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد، ويتراوح متوسط عمر كل نوع من أنواع هذه الحياة بين نصف مليون سنة وخمسة ملايين من السنين.

وكل نوع من أنواع هذه الحياة أعطاه الله ـ تعالى ـ القدرة على القيام بجميع العمليات الحيوية من أمثال التغذية، والقدرة على القيام بالتمثيل الغذائى ـ الأيض ـ، وعلى الإخراج، والتنفس، والنمو، والتكاثر، والإحساس والتكيف، والحركة ـ باستثناء النبات ـ، إلى غير ذلك من الميزات التى تستخدم للتفريق بين الأحياء والأموات ـ المواتـ فى كوننا المدرك.

إخراج الحى من الميت

إن قضية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان هى من القضايا الغيبية التى لا تخضع لإدراك الإنسان، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾ [الكهف: ٥١].

ولكن القرآن الكريم الذى أنزل فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ قراره هذا يقول لنا أيضًا فيه: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وبالجمع بين هاتين الآيتين الكريمتين يتضح لنا بجلاء أنه على الرغم من كون عملية الخلق عملية غيبية غيبة كاملة، لم يشهدها أحد من المخلوقين إلا أن الله ـ تعالى ـ من رحمته بنا أبقى لنا فى صخور الأرض وفى صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان على وضع تصور ما عن كيفية الخلق، ويبقى هذا التصور متأثرا بخلفية واضعه، فتتعدد النظريات فى قضية الخلق تعددًا كبيرًا، ويبقى للمسلم نور من الله ـ تعالى ـ فى آية قرآنية كريمة، أو فى حديث نبوى صحيح السند عن رسول الله ﷺ يمكن أن يعين المسلم على أن يختار من بين هذه التصورات أو النظريات واحدة تتفق مع النص القرآنى أو مع الحديث النبوى الصحيح أو معهما معًا فيرتقى بهذه النظرية إلى مستوى الحقيقة انتصارًا للعلم بالقرآن الكريم أو بالحديث النبوى الشريف وليس العكس، وهذه منزلة من منازل العلم لا يرقاها إلا المسلم.

وتحدث الدهريون عن التطور الكيميائى، ومن بعده عن التطور العضوى، ونحن - معشر المسلمين - لا اعتراض لنا على ذلك؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها كما علمنا المصطفى ﷺ، فإذا كان المقصود بالتطور هو تدرج عمارة الأرض بأنماط من الخلق تزداد تدريجيًا فى العدد وفى تعقيد البناء، فهذا حق يقوم عليه الدليل وتؤكده الملاحظة، وتدعمه الحجة، ولكن أعداء الدين انطلقوا بهذه الملاحظة الصحيحة إلى ثلاثة استنتاجات خاطئة تمامًا هى:

(١) الادعاء بعشوائية الخلق الأول

والملاحظة العلمية الدقيقة تشجب ذلك وترفضه؛ لأن هذا الفرض يقتضى عشوائية بناء الحمض الأمينى - وهو لبنة بناء الجزىء البروتينى الذى هو لبنة بناء الخلية الحية - ، وعشوائية تجمع هذه الأحماض الأمينية لبناء مائتى ألف نوع من الجزيئات البروتينية، والتى يفترض الدهريون أنها تجمعت عشوائيًا لبناء أول خلية حية، وأن هذه الخلية الحية تشعبت من بعد إلى الملايين من أنواع الحياة مثل كل نوع منها ببلايين الأفراد، بطريقة يتصورها الدهريون عشوائية محضة والحقيقة العلمية المؤكدة هى أن كلاً من الحمض الأمينى والجزىء البروتينى على قدر من التعقيد فى البناء، والدقة فى ترابط الذرات والجزيئات لا يمكن للصدفة أن تصنعه أبدًا. . . !!

(٢) الادعاء بعشوائية التدرج فى الخلق

وهذا الادعاء ترفضه أيضًا الملاحظة العلمية الدقيقة؛ لأن لكل نوع من أنواع الحياة عددًا محددًا من الصبغيات التى تحمل شفرته الوراثية وتتحكم فى صفاته ونشاطاته ومنها الانقسام والتكاثر، وهذه الشفرة الوراثية على قدر من الدقة والتعقيد لا يمكن للصدفة أن تكون قادرة على إبداعه أبدًا.

ثم إن عملية تدرج عمارة الأرض بأنماط الحياة تمت بإتقان معجز، لعب فيه كل طور من أطوار الحياة دورًا فى إعداد الأرض للطور التالى، ولا يمكن للصدفة أبدًا أن ترتب ذلك. ثم إن هناك انقطاعات فى سجلات الحياة الأحفورية تؤكد حقيقة الخلق، وتنفى عشوائية التدرج.

(٣) الادعاء بعشوائية ظهور الإنسان عن هذه السلسلة الطويلة من الخلق

وهذا أيضًا هروب مقصود من الاعتراف بالخالق - سبحانه وتعالى - والملاحظات العلمية الدقيقة ترفضه ولا تؤيده. فتمايز الشفرة الوراثية للإنسان، وتحديد عدد الصبغيات التى تحملها، وما ميز الله -تعالى- به الإنسان من صفات تشريحية ونفسية، وقدرات عقلية تنفى ذلك الزعم وتدحضه، وتمايز الهيكل العظمى للإنسان فوق أعلى مخلوق قبله كصفة وحيدة ينفى تخرص المتخرصين، وتزييف المزيفين؛ لأن هذا القدر من التمايز لا يمكن أن يتم فى الفترة الزمنية القصيرة التى عاشها نوع الإنسان على الأرض، أضف إلى ذلك ذكاء الإنسان، وقدرته على الكلام، ومهاراته المختلفة، وقدرته على الشعور، والانفعال، والتعبير عن ذلك، وقدراته على كسب المعارف والمهارات وتعليمها، كل ذلك يؤكد الخلق الخاص للإنسان، وفصله عن كل صور الحياة من قبله.

وإن قدرة الشفرة الوراثية فى الإنسان على الانقسام وتكرار نفسها ترد الجنس البشرى كله إلى أب واحد هو آدم ﷺ وفوق ذلك كله فإن دقة بناء الخلية الحية، وإحكام عملها، وانضباط كل نشاطاتها على الرغم من ضآلة حجمها - أقل من جزء من عشرة ملايين جزء من المليمتر المكعب - تنفى ذلك، فلها جدارها الذى يبدو كالسور العظيم الذى تتخلله بوابات تفتح وتغلق بانتظام معجز، ولها جيوش دفاعية، وأخرى هجومية، وثالثة احتياطية، ولها قوى وأجهزة كهرومغناطيسية، ولها مسئولون عن التموين، وقدرة على تصنيع أكثر من مائتى ألف نوع من أنواع البروتينات، ولها علاقات داخلية منضبطة، وأخرى خارجية مع غيرها من الخلايا الموجودة حولها، ولها شفرة وراثية معجزة، وغير ذلك من الصفات التى لا يتسع المقام لسردها، وهذا كله لا يمكن أن يكون للصدفة دور فيه.

وخلق الخلية الحية من عناصر الأرض الميتة هو أعظم صور إخراج الحى من الميت التى أشارت إليها الآية الكريمة، وكذلك إعادة بعثها فى يوم القيامة.

ومن صور ذلك أيضًا قدرة الخالق المبدعة التى أعطاها لكل كائن حى لتحويل عناصر الأرض وجزيئات الماء والهواء، وكلها من المواد الميتة إلى مواد حية كما

يحدث فى عملية التمثيل الضوئى التى تقوم بها النباتات الخضراء فتأخذ عناصر الأرض والماء من التربة، وتأخذ ثانى أكسيد الكربون من الجو، والطاقة من الشمس، فى وجود صبغة خضراء تعرف باسم «اليخضور» أو غيرها من الصبغات النباتية وبعض الإنزيمات التى يفرزها النبات لتكوين الكربوهيدرات من مثل السكر، والنشا، والسليلوز وهى مواد فى غاية الأهمية؛ لأنها تعد مكونات أساسية فى بناء مختلف أجزاء النبات وفى طعام كل من الإنسان والحيوان.

وفى كل من الإنسان والحيوان وفى بعض النباتات تتحول المواد الغذائية من الكربوهيدرات وغيرها إلى البروتينات وهى مركبات عضوية تتكون من جزيئات معقدة باتحاد ذرات الكربون والأيدروجين بذرات كل من الأكسچين والنيتروچين، بالإضافة أحيانًا إلى ذرات الكبريت أو الفوسفور. وتتكون كل الأنسجة الحية فى الإنسان والحيوان من البروتينات التى تعد الوحدات الأساسية فى بناء مختلف الخلايا الحية، وتقوم بالعديد من الدعم والحركة فى كل من العضلات والعظام، وفى عمليات نقل الدم ورسائل الأعصاب، وفى حفز مختلف التفاعلات الحية فى الخلايا مثل ما تقوم به بعض الإنزيمات والهرمونات وكلها من البروتينات.

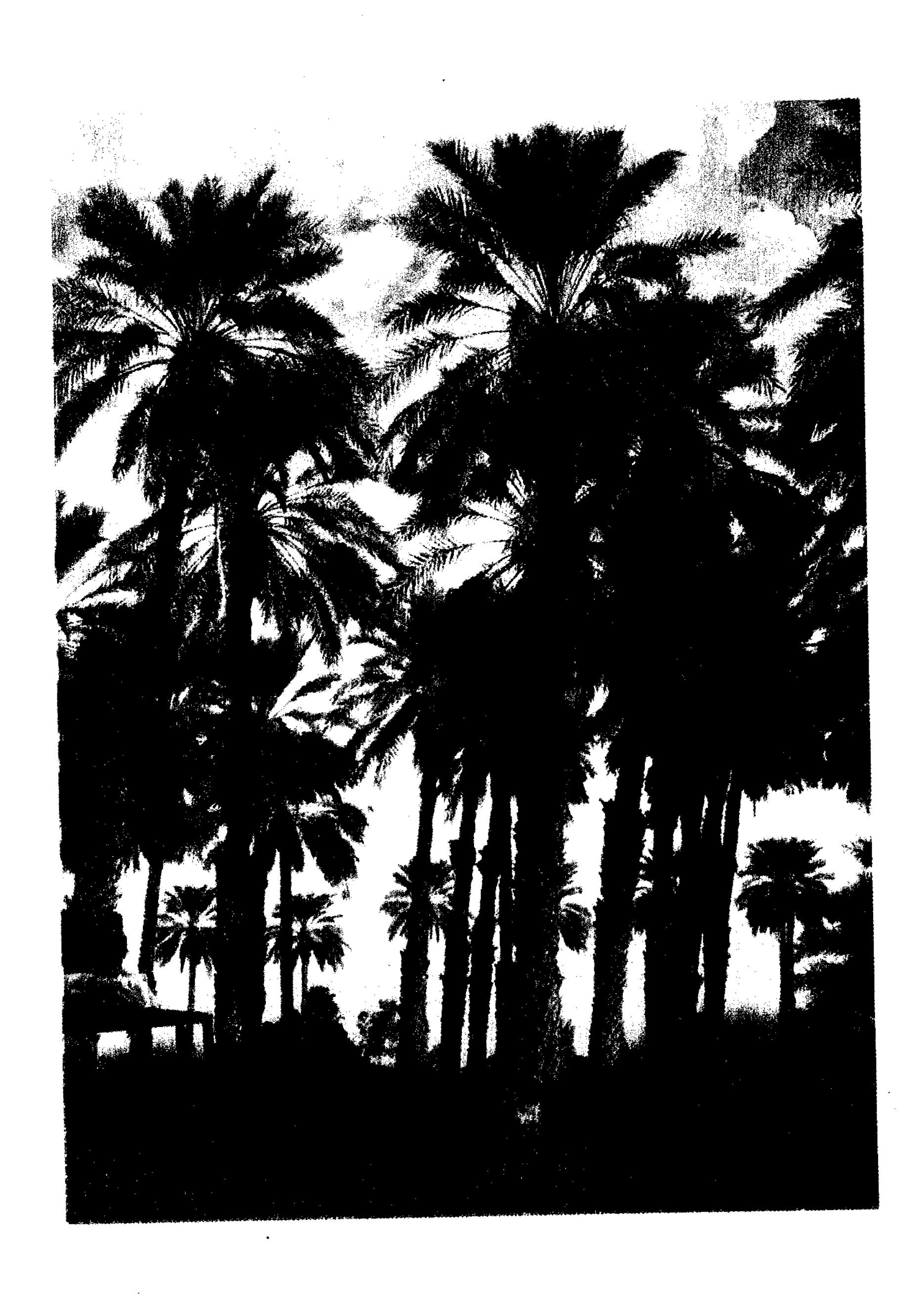
وأجساد الكائنات الحية تتجدد باستمرار ما عدا الخلايا العصبية، فجسم الإنسان يفقد من خلاياه فى كل ثانية حوالى ١٢٥ مليون خلية فى المتوسط تتهدم وتموت، ويتكون غيرها فى الحال.

هذه صورة من صور إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى حيث تتحرك المواد الميتة بين الأرض، ومائها، وهوائها، والطاقة القادمة إليها من الشمس لتخليق المواد اللازمة لبناء الخلية الحية من الكربوهيدرات والپروتينات وغيرهما من المواد التى تنبنى منها الخلايا الحية الجديدة فى كل من عمليات النمو والتكاثر، فإذا ما ماتت هذه الكائنات الحية عادت مكوناتها إلى كلٍّ من الأرض، ومائها، وهوائها ليخرج الله ـ تعالى ـ الميت من الحى.

وهذه حقائق لم يدركها الإنسان إلا فى أواخر القرن العشرين، وورودها فى كتاب الله بهذه الإشارة العلمية الدقيقة التى يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى

ـ: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم: ١٩]. شهادة صدق على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية. بل هو كلام الله الخالق، وشهادة حق على نبوة الرسول الخاتم الذى تلقاه من قبل ألف وأربعمائة سنة فى زمن لم يكن لأحد من الخلق إمكانية إدراك ذلك، فسبحان الذى أنزل القرآن بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله؛ ليكون حجة على أهل عصرنا الذين فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، حجة قائمة على الذين ينكرون ربانية القرآن، ونبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ وهى حجة بالغة على كل كافر ومشرك ومتشكك . . . ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

(الرعد: ٤)

هذه الآية الكريمة جاءت فى مطلع سورة الرعد، وهى سورة مكية، وآياتها ثلاث وأربعون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى حقيقة أن الرعد - وهو من الظواهر الجوية المتكررة - يمثل صورة من صور تسبيح تلك الظواهر لله - تعالى - انطلاقًا من قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

يدور المحور الرئيسى لسورة الرعد حول قضية العقيدة، ومن ركائزها توحيد الله - تعالى - وتنزيهه عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، والخضوع له وحده بالعبودية الكاملة، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله، وبالوحى الخاتم الذى أوحاه إلى خاتم أنبيائه ورسله صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين، والإيمان كذلك بحتمية البعث والحساب والجنة والنار، كما جاء فى كل رسالات السماء، وتكامل وحفظ فى القرآن الكريم وفى سنة خاتم



الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم أجمعين من الله ـ تعالى ـ أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

عرض موجز لسورة الرعد

وقد استهلت سورة الرعد بأربعة من الحروف الهجائية المقطعة هي ﴿الٓمٓر﴾ ، وهذه المقطعات هى من أسرار القرآن الكريم التى لم يستطع العلم الكسبى أن يصل إلى تفسيرها بعد ، ثم انتقلت السورة الكريمة بالخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ، مؤكدة أن القرآن الكريم هو الوحى الإلهى الخاتم الذى أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ عليه ، وإن كان أكثر الناس لا يؤمنون بذلك . واستشهدت بعدد من الحقائق الكونية على وجود الله وعلى طلاقة قدرته في إبداع الخلق ، وهيمنة سلطانه على الكون وعلى كل من فيه وما فيه ، واستنكرت موقف الكافرين من قضية البعث ، واستبعادهم لإمكانية حدوثه بعد تحلل الأجساد وتحولها إلى تراب ، وتعرض الآيات لشىء من عقاب هؤلاء المكذبين فى يوم القيامة ، والذين كانوا ـ من فرط جهلهم وضلالهم ـ يستعجلون وقوع عذاب الله بهم بدلاً من طلب الهداية منه ، وقد مضت عقوبات أمثالهم من الأمم التى كفرت من قبل بربها فأهلكها الله ـ تعالى ـ بذنوبها ، ولا يزال الإيمان والكفر يقسم البشرية كلها إلى فسطاطين متمايزين حتى يوم الدين ، والله ـ تعالى ـ غفار للذنوب ولكنه فى الوقت نفسه شديد العقاب .

كذلك تنعى سورة الرعد على الكافرين طلبهم للمعجزات والآيات الحسية بدلاً من القرآن الكريم ، جحوداً به ، وإنكاراً لفضله وهو المعجزة الكبرى لخاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ وترد الآيات الكريمة فى سورة الرعد بأن رسالة الرسول الخاتم ﷺ كانت ولا تزال هى رسالة كل نبى وكل رسول من قبل ، ألا وهى الهداية إلى دين الله والإنذار من عذابه .

واستعرضت سورة الرعد جانباً من صفات الله ـ تعالى ـ ومنها إحاطة علمه بكل شىء ، ودقة صنعه فى كل شىء ، وأنه ـ سبحانه ـ هو الكبير المتعال ، الذى ليس

لخلقه من دونه من وال، وهو - تعالى - خالق البرق ومنشئ السحاب الثقال، وهو الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، وهو - تعالى - الذى يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وهو الذى يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض طوعًا وكرهًا وظلالهم بالغدو والآصال، وهو خالق كل شىء، وهو الواحد القهار، وهو رب السماوات والأرض ومن فيهن، القائم على كل نفس بما كسبت .

كذلك ساقت سورة الرعد عددًا من الأمثال لكل من الحق والباطل، والهدى والضلال، ولسلوك كل من المصلحين فى الأرض والمفسدين فيها، وأوضحت جزاء كل صنف من هذه الأصناف، ومايزت بين الجنة ونعيمها والنار وجحيمها .

كما مايزت بين الدنيا والآخرة، وقررت أن الحياة الدنيا ليست إلا متاعًا عارضًا، وأن الآخرة هى دار القرار، وأن الله - تعالى - يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب، وأنه - سبحانه وتعالى - قد أرسل خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فى أمة قد خلت من قبلها أمم ليتلو عليهم القرآن الكريم - معجزته الكبرى - وهم يكفرون بالرحمن كما يكفرون بالقرآن، ولله الأمر جميعًا . وفى ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ ... **وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾ [الرعد : ٣١] .

وفى مواساة رقيقة لرسول الله ﷺ تذكر الآيات أنه إذا كان نفر من الكفار والمشركين قد استهزأ بما أرسل به من حق فقد استُهزئ برسل من قبله، فأملى الله - تعالى - للذين كفروا ثم أخذهم بعقاب شديد . كذلك تنعى الآيات على الذين أشركوا بالله - مكرًا وصدًا عن السبيل - وتصف شيئًا من عذابهم فى الحياة الدنيا وتقرر أن عذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق .

وتصف الآيات فى سورة الرعد جانبًا من الجنة وتقرر أنها جزاء المتقين وأن جزاء الكافرين والمشركين هو النار، كما تقرر أن الذين أغفلوا شيئًا من علم الكتب المنزلة من قبل من شأنهم أن يفرحوا بما أنزل إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ؛ لأنه الصورة النهائية التى تكاملت فيها كل الرسالات السماوية السابقة، فهو امتداد

لها وتأكيد عليها، أما الذين يتخذون التدين وسيلة للتحزب الأعمى والتعصب غير البصير فإنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ويشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً، وفي مقابلة هؤلاء تدعو الآيات في سورة الرعد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ إلى أن يقول :

﴿ ... إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ [الرعد : ٣٦] .

وتؤكد الآيات له ﷺ أن القرآن الكريم أنزله الله -تعالى- باللغة العربية حكمًا للناس فيما بينهم، وحاكمًا على جميع الكتب السماوية السابقة، ومن ثم فلا يجوز مسايرة المشركين من أهل الكتاب فيما ذهبوا إليه من شرك بعد ما جاءه من علم قائم على التوحيد الخالص لله ـ تعالى ـ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد، وإلا فما له من الله من ولي ولا واق .

وتخاطبه الآيات ﷺ بأن تعجب المشركين من أن الله -تعالى- قد جعل له أزواجًا وذرية، لا منطق له؛ لأن الله ـ تعالى ـ قد أرسل رسلاً من قبله وجعل لهم أزواجًا وذرية، وقد خصه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإنزال القرآن الكريم عليه وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : ٣٨] .

وتؤكد الآيات أن الله ـ تعالى ـ يمحو ما يشاء من شرائع، ويثبت ما يشاء، وأن عنده أصل كل ذلك، وإنما على رسول الله البلاغ، وعلى الله الحساب .

كما تؤكد حقيقة إنقاص الأرض من أطرافها وأن الله -تعالى- يحكم . . . ﴿ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد : ٤١] .

وتشير الآيات إلى مكر الكافرين والمشركين في الأمم التي سبقت كفار ومشركي قريش فتقول : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٤٢] .

وتختتم سورة الرعد بخطاب كريم من الله ـ تعالى ـ إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ أنه إذا كان من مراء كل من الكافرين والمشركين، وصلفهم وعنادهم، إنكارهم لنبوته ﷺ فإن الله ـ تعالى ـ شاهد على صدق نبوته، وإن كل من عنده علم من الكتب السماوية السابقة يجد عنده ما يؤكد ذلك، والتنزيل الخاتم ينطق بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٤٣].

من الإشارات الكونية فى سورة الرعد

جاء فى سورة الرعد إشارات إلى عدد غير قليل من حقائق الكون وآفاقه وظواهره نوجز منها ما يلى :

(١) رفع السماوات بغير عمد مرئية .

(٢) تسخير الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى .

(٣) مد الأرض ـ بمعنى تكويرها ـ ، وخلق الجبال رواسى فيها، وعلاقة ذلك بتكون الأنهار وتدفقها بالماء .

(٤) خَلْق الثمرات النباتية ـ وخَلْق كل شىء ـ فى زوجية واضحة .

(٥) إغشاء الليل بالنهار فى إشارة ضمنية رقيقة إلى كروية الأرض وإلى دورانها حول محورها أمام الشمس .

(٦) خلق الغلاف الصخرى للأرض على هيئة قطع متجاورات، وجعل الصخور المكونة لكل منها قطعًا متجاورات كذلك؛ لأنها صخور مختلفة النشأة، متباينة فى صفاتها الطبيعية والكيميائية، وفى ثرواتها التعدينية، والمائية، والنباتية، والحيوانية، ومن ثم فى أنواع التربة الناتجة عن تحلل تلك الصخور ـ بالتجوية والتحات ـ وفى تباين كل من ذلك فى قدرته على الإنبات تحت الظروف البيئية ـ المناخية والتضاريسية ـ المختلفة .

(٧) خلق جنات من أعناب فى الأرض، وخلق الزرع والنخيل من أصل واحد

ومن أصول متفرقة، يسقى بماء واحد، ويفضل الله ـ تعالى ـ بعضها على بعض فى الأكل . وفى ذلك إشارة واضحة إلى تنوع المجتمعات النباتية على التربة الواحدة التى تسقى بماء واحد فى الظروف البيئية الواحدة، التنوع فى قطع الأرض ذات التركيب الصخرى والمعدنى المختلف، وتحت الظروف البيئية المختلفة، وما يمكن أن ينتجه ذلك من أنواع متعددة من التربة ومن البيئات الزراعية المتعددة . فإن فى تنوع النباتات النامية فى البيئة الواحدة إلماحًا إلى ما أودعه الله ـ تعالى ـ من أسرار فى كل نبتة من نبات الأرض تحاول علوم الوراثة اليوم تفسيرها بالشفرة الوراثية الخاصة بكل نوع، ولما يحدث من تنوع فى الصفات الوراثية أثناء عملية التلقيح بين الخلايا الذكرية والأنثوية فى النوع الواحد، وانعكاسات ذلك على الاختلافات المبهرة فى الطعوم والألوان والأحجام والأشكال التى تشهد لله ـ تعالى ـ بطلاقة القدرة .

(٨) الإشارة إلى حقيقة تحول أجساد الأحياء إلى تراب الأرض بعد الموت، وإلى حقيقة بعثها من تراب الأرض مرة أخرى .

(٩) الإشارة إلى حقيقة علم الله ـ تعالى ـ بما تحمل كل أنثى وبما تغيض الأرحام وما تزداد، وأن كل شىء عنده بمقدار .

(١٠) الإشارة إلى تكون كل من الرعد والبرق وإرسال الصواعق وعلاقة ذلك بإنشاء السحاب الثقال .

(١١) الإشارة إلى حقيقة أن كلًّ من فى السماوات والأرض يسجد لله ـ تعالى ـ طوعًا وكرهًا وظلالهم بالغدو والآصال .

(١٢) المقابلة العلمية الدقيقة بين الظلمات والنور . .

(١٣) الإشارة إلى عملية إنزال الماء من السماء بقدر الله ـ تعالى ـ وإلى تدفقه فى الأودية كل بقدره أيضًا بمشيئة من الله وإرادته وتقديره .

(١٤) تشبيه الحق بما يمكث فى الأرض مما ينفع الناس من الثروات المعدنية التى تحملها السيول، وتشبيه الباطل بالزبد الطافى على وجه السيل أو الخبث الذى يطفو فوق سطح الفلزات النفيسة حال صهرها لتنقيتها مما تحمله من شوائب .

(١٥) الإشارة إلى حقيقة إنقاص الأرض من أطرافها، وإلى استخدامات تلك الحقيقة فى مقامات التشبيه والمجاز .

(١٦) التأكيد على وجود البشارات بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فى جميع الكتب السماوية السابقة على بعثته الشريفة .

(١٧) التأكيد على قيمة العقل فى حياة الإنسان . وعلى حتمية توظيفه فى التفكير الجاد والتدبر العميق فى الأنفس والآفاق حتى يتمكن الإنسان من فهم حقيقة وجوده ودوره فى الحياة .

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤].

ذكر ابن كثير - يرحمه الله - ما مختصره : « أى أراض يجاور بعضها بعضًا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئًا، ويدخل فى هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو، وقوله : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات فيكون ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ مرفوعين، ويحتمل أن يكون معطوفًا على أعناب فيكون مجروراً . . وقوله : ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ الصنوان هى الأصول المجتمعة فى منبت واحد . . وغير الصنوان ما كان على أصل واحد . . وقوله : ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ

وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ . . أى هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزروع فى أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها . . مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهى الماء . . ففى ذلك آيات لمن كان واعيًا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذى بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

* وجاء فى كلٍّ من تفسير الجلالين، والظلال، وصفوة البيان لمعانى القرآن، وصفوة التفاسير، والمنتخب فى تفسير القرآن الكريم كلام مشابه، إلا أن الخبراء أضافوا على هامش المنتخب ما نصه :

«تشير الآية الكريمة إلى علوم الأراضى والبيئة وأثرها على صفات النبات، فمن المعروف علميًا أن التربة الزراعية تتكون من حبيبات معدنية مختلفة المصدر والحجم والترتيب، ومن الماء ومصدره المطر، ومن الهواء، ومن المادة العضوية التى يرجع وجودها إلى بقايا النبات والأحياء الأخرى التى توجد على سطح التربة أو فى داخلها، وفضلاً عن ذلك توجد ملايين الكائنات الحية الدقيقة التى لا تُرى بالعين المجردة لصغر حجمها وتختلف أعدادها من عشرات الملايين إلى مئاتها فى كل جرام من التربة السطحية الزراعية . إن النظرة الشاملة لصفات التربة الطبيعية والكيميائية والحيوية إن دلت على شىء فإنما تدل على قدرة الخالق وروعة الخلق، فالأرض كما يقول الزراعيون بحق تختلف من شبر إلى شبر» .

ومعروف للعلماء أن أى نقص فى إحدى المواد الأساسية للتغذية يتبعه تغيير مميز تظهر أعراضه على النبات، ولذلك يعمد الزراعيون إلى تعويض النقص بالتسميد الملائم، وعوامل البيئة أكثر من أن تحصى ولها أثر ملحوظ على النمو والإثمار سواء أكان النبات متحد الأصل أو مختلفه، فسبحان من بيده ملكوت كل شىء وهو على كل شىء قدير .

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

فى هذه الآية الكريمة عدد من الحقائق العلمية التى يمكن إيجازها فيما يلى :

أولا : فى قوله -تعالى- : ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ [الرعد : ٤] : يشمل هذا التعبير القرآنى المعجز الحقائق التالية :

(١) تكون الغلاف الصخرى للأرض من عدد من الألواح المتجاورة والتى يقدر عددها باثنى عشر لوحًا أرضيًا كبيرًا بالإضافة إلى عدد من الألواح الصغيرة، ويفصل هذه الألواح عن بعضها البعض شبكة هائلة من الخسوف الأرضية التى تتراوح أعماقها بين ٦٥ كيلومترًا، ١٥٠ كيلومترًا، ويبلغ طولها عشرات الآلاف من الكيلومترات، والتى تحيط بالأرض إحاطة كاملة وكأنها صدع واحد متعرج يشبهه العلماء باللحام على كرة التنس .

وكل واحد من ألواح الغلاف الصخرى للأرض له منشأه الخاص به، وبالتالى تتباين هذه الألواح فى تركيبها الصخرى والمعدنى وفى متوسط كثافة مادتها وسمكها .

(٢) تكون كل واحد من ألواح الغلاف الصخرى للأرض من الأنواع الرئيسية الثلاثة للصخور، وهى : الصخور النارية، والرسوبية، والمتحولة بتفرعاتها المختلفة، والتى تشكل قطعًا متجاورة فى كل واحد من ألواح الغلاف الصخرى للأرض، تتباين فيما بينها فى صفاتها الطبيعية والكيميائية وفى مظاهرها الخارجية، وأشكالها على سطح الأرض .

فالصخور النارية - على سبيل المثال - تنقسم إلى مجموعات حامضية وفوق حامضية، ومجموعات متوسطة الحامضية، ومجموعات قاعدية وفوق قاعدية، وكل مجموعة من تلك المجموعات منها الصخور عميقة المنشأ، عالية التبلور، التى تبلغ فيها البلورات أحجامًا كبيرة، ومنها الصخور الناشئة فى أعماق متوسطة من القشرة الأرضية، وبالتالى فهى متوسطة التبلور ومتوسطة حجم البلورات، ومنها الصخور البركانية الزجاجية - أى عديمة التبلور - أو دقيقة البلورات، وبالمثل تتباين الصخور الرسوبية والمتحولة تباينًا شديدًا، وحسب غلبة أى من هذه المجموعات الصخرية فى أى من أجزاء الغلاف الصخرى للأرض يكون التباين فى القطع المتجاورة المكونة لكل واحد من هذه الألواح، وبالتالى للغلاف الصخرى للأرض .

(٣) تباين أنواع التربة الناتجة من تحلل كل نوع من أنواع هذه الصخور ـ بفعل عوامل التعرية المختلفة خاصة عوامل التجوية والتحات ـ تباينًا شديدًا بتباين صخر المصدر واختلاف تركيبه الكيميائى والمعدنى، وبتباين الظروف البيئية ـ من المناخ والتضاريس والأنواع السائدة من صور الحياة وغيرها ـ بحيث تختلف التربة المغطية لكل نوع من أنواع الصخور المكونة لكل واحد من ألواح الغلاف الصخرى للأرض اختلافًا هائلاً من بقعة إلى أخرى على هيئة قطع متجاورات، مما أعطى للأرض قدراً هائلاً من التنوع فى صفاتها الطبيعية والكيميائية وفى قدرتها على الإنبات .

وعلى ذلك فإن الأرض تتباين إلى قطع متجاورات بتباين الألواح المكونة لغلافها الصخرى، وبتباين أنواع الصخور المكونة لكل واحد من تلك الألواح، وبتباين أنواع التربة الناتجة عن تجوية وتحات كل نوع من أنواع تلك الصخور تحت الظروف البيئية المتعددة بتعدد النطق المناخية والتضاريس وأنواع الحياة السائدة فيها، ومن ثم فإن هذه القطع المتجاورات من الأرض تتباين تباينًا هائلاً فى قدرتها على الإنبات، وفيما تحمله من أنواع الكساء الخضرى وما يحمله هذا الكساء من ثمار، فقد ثبت أخيراً أن لكل نوع من أنواع الحياة بيئته الخاصة التى يحيا فيها، وبذلك يتكون الغلاف الحيوى للأرض من العديد من المجالات، والمواطن، والمنظومات البيئية التى تتميز كل منها بخصائصها الجغرافية من التضاريس، والمناخ، وأنواع الصخور، والتربة، والمجموعات الإحيائية المرتبطة بها، فعلى سبيل المثال هناك من أنواع الحياة ما قد وهبها الله ـ تعالى ـ القدرة على التعايش مع بعضها البعض فى عشْرَة مفيدة لكل منهما فى تكافل حيوى متبادل، وقد يكون هذا التعايش مفيداً لأحدهما دون الآخر، ولكنه غير ضار بهذا الآخر، وحين يكون ضاراً به تسمى العلاقة باسم «التطفل» .

وكل كائن حى له مجاله البيئى ـ أى موقعه فى موطن بيئى محدد ـ من نظام بيئى معين، يشمل نوع الصخور، وأنواع التربة، وتضاريس سطح الأرض، والظروف المناخية، وأنواع الكائنات الحية المتعايشة معه فى نفس البيئة والتى تتفاعل معه وتؤثر فيه أو تتأثر به .

وتتوزع النظم البيئية على سطح الأرض . . فتتفاوت بين المناطق الاستوائية التى تتميز بشدة الحرارة وارتفاع نسبة الرطوبة ، والمناطق القطبية التى تتميز بجوها القارس البرودة الجاف ، والمناطق المعتدلة بينهما ، كما تتفاوت فى الموقع الواحد بين القمم السامقة والسفوح الهابطة والسهول المنبسطة ، فعلى القمم التى يزيد ارتفاعها عن ثلاثة آلاف متر تتضاءل الحياة إلى بعض الطحالب التى تنمو على الجليد أو فى برك الماء الناتجة عن انصهار الجليد ، وبين ٣٠٠٠ ، ٢٥٠٠ متر تقريبًا تنتشر زهور دقيقة بين شقوق الصخور ، وبين حوالى ٢٥٠٠ ، ٢٠٠٠ متر تقريبًا تنتشر أشجار الصنوبر الجبلى ، وبين حوالى ٢٠٠٠ ، ١٥٠٠ متر تنتشر الغابات المخروطية ، وبين حوالى ٢٠٠٠ ، ١٠٠٠ متر تقريبًا تنتشر الغابات النفضية ، ودون ذلك تنتشر الغابات والزراعات المختلفة من السهول المنبسطة إلى ارتفاع ألف متر تقريبًا فوق مستوى سطح البحر .

وكثير من هذه الأنظمة البيئية يتداخل فى بعضه البعض بتدرج ملحوظ ، وإن كان البعض منها ينتهى إلى حدود متميزة تتغير عندها البيئات تغيرًا فجائيًا .

وكل واحد من هذه النظم البيئية معرض للتغير بتغير الظروف المناخية بصورة تدريجية أو فجائية ، أو بتدخل الإنسان ، مما يؤدى إلى تغير الكساء الخضرى أو إزالته ، وإلى هجرة الحيوانات أو انقراضها ، وكل ذلك يساعد على تباين الأرض إلى قطع متجاورات تختلف فى تكوينها الصخرى ، وصفاتها الطبيعية والكيميائية ، كما تختلف باختلاف التربة المتكونة فوق تلك الصخور ، وباختلاف ظروفها البيئية ومحتواها من صور الحياة ، وباختلاف ذلك كله مع الزمن .

ولما كانت أحوال قطع الأرض المتجاورات فى تغير مستمر ، جاءت الإشارة إليها فى الآية الكريمة التى نحن بصددها بالتنكير دون التعريف (قطع وليست القطع) ، وهى من الومضات المبهرة فى هذه الآية الكريمة .

(٤) وأبلغ من ذلك كله أن الله ـ تعالى ـ قد أعطى كل نوع من أنواع النبات شفرة وراثية خاصة تمكنه من امتصاص عناصر خاصة من نفس التربة ، وتحت نفس الظروف البيئية مما يؤدى إلى إنتاج ثمار متباينة فى طعومها وأشكالها ، وأحجامها ،

وألوانها، وهى تنبت من تربة واحدة، وتسقى بماء واحد، وقد يصل هذا التباين إلى درجات لا يكاد العقل البشرى يتصورها نتيجة لتنوع الصفات الوراثية أثناء عمليات التلقيح بين الخلايا الذكرية والأنثوية فى النوع الواحد من النبات، والذى سخر الله -تعالى- كلاً من الحشرات والرياح للقيام بالدور الأكبر فيها، مما يؤدى إلى مثل هذا التنوع المذهل الذى يشهد لله ـ تعالى ـ بطلاقة القدرة الخلاقة المبدعة.

هذه الحقائق لم يدركها العلم الكسبى إلا فى العقود المتأخرة من القرن التاسع عشر وفى ثنايا القرن العشرين، وورودها فى كتاب الله المنزل فى أوائل القرن السابع الميلادى على نبى أمى ﷺ، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ومما يشهد للرسول الخاتم الذى تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

ثانيًا: فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ**﴾ إشارة إلى عدد من الحقائق العلمية فى هذه النباتات نوجزها فيما يلى:

(١) ﴿**وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ**﴾: جاء ذكر العنب فى أحد عشر موضعًا من كتاب الله، منها موضعان بصيغة الإفراد (عنب وعنبًا) وتسعة مواضع بصيغة الجمع (أعناب وأعنابًا)، وفى أغلب هذه الحالات جاء ذكر النخل بالإفراد والجمع مع ذكر العنب أو الأعناب.

وثمرة العنب ثمرة مميزة، فبالإضافة إلى محتواها العالى من المواد السكرية بالنسبة إلى جميع الفواكه الأخرى فإنها تحتوى على العديد من الڤيتامينات من مثل ڤيتامين (أ، ج)، وعلى المواد العضوية من مثل البروتينات النباتية، والأحماض، والخمائر، وأملاح العديد من العناصر مثل البوتاسيوم، والصوديوم، والكالسيوم، والفوسفور، والحديد، وغيرها من المركبات العضوية وغير العضوية التى توجد فى ثمرة العنب بنسب متوازنة، مما يجعلها أنسب أنواع الغذاء ومن أنقى ما يمكن أن يتناوله الإنسان من ثمار.

ولذلك أثبت العنب فعالية ملحوظة فى تنقية الدم من السميات، ومن كل من الفضلات والرواسب العضوية، وغير العضوية ومن الفيروسات والفطريات والجراثيم المسببة للعديد من الأمراض، وفعالية ملحوظة كذلك فى تقوية مناعة الجسم، وفى تجديد بناء خلاياه المتهدمة خاصة إذا تم تناوله وحده على معدة خالية أى بعد صيام يوم كامل، ولفترة تتراوح بين خمسة وسبعة أسابيع متواصلة .

وتعزى سرعة تفاعل العنب مع جسم الإنسان إلى امتصاص الجسم له مباشرة دون الحاجة إلى هضمه .

وقد استخدم العنب بنجاح فى علاج العديد من الأمراض مثل النقرس، الأمراض الروماتيزمية، والأمراض الناتجة عن الإصابة بدودة البلهارسيا، وفقر الدم، وأمراض الجهاز الهضمى، والإخراجى، والتنفسى، والتهابات الكبد والمثانة، والالتهابات والقرح الداخلية والخارجية، وتقيحات الفم واللثة، وتسوس الأسنان، وأمراض السرطان فى حالات كثيرة خاصة فى مراحلها الأولية . وقد اكتشف أخيراً أن ثمرة العنب تحتوى على مركب شديد الفعالية فى مقاومة أمراض السرطان وغيره من الأمراض المستعصية فى مراحلها المختلفة، ويعرف هذا المركب باسم «ريزفيراترول ـ **Resveratrol**» وهذا المركب موجود فى ثمار ٧٢ نباتًا آخر منها التوت، الفول السودانى، وبعض البقول مثل الحمص والفول البلدى والعدس ولكن بنسب أقل من نسب وجوده فى العنب . وقد شهد بذلك كلٌّ من «الدكتورة جوهانا براندت» التى شفاها الله ـ تعالى ـ عن طريق تناولها العنب بعد صراع مع هذا المرض الخبيث ـ السرطان ـ استمر لتسع سنوات، ونشرت قصتها فى كتاب بعنوان : قصة الاكتشاف، طبع بمدينة نيويورك سنة ١٩٢٨م، وتم نشره عدة مرات بعد ذلك .

كما شفى بذلك «السيد / باسيل شاكلتون» بعد صراع مع الفشل الكلوى استمر زهاء الأربعين عامًا، ونشر كتابًا بعنوان «التداوى بالعنب ـ **The Grape Cure**» ذكر فيه قصته وقصة «الدكتورة جوهانا براندت» وغيرهما من القصص التى تروى فضل العنب فى علاج العديد من الأمراض . وقد قام بترجمة الكتاب الأخير الدكتور محمد الشيخ عمر، وقامت بطبعه مؤسسة المدنى (٦٨ شارع العباسية ـ

بالقاهرة) وتقوم بتوزيعه مجانًا مكتبة الدكتور عبدالرحمن عمر نصيف (فى مدينة جدة - بالمملكة العربية السعودية).

وعصير العنب مركزًا ومخففًا يعتبر من المطهرات القوية، وتستخدم محاليله المخففة فى تطهير كل من الآذان، والأنف، والفم، والحنجرة، كما يمكن استخدامه على هيئة ضمادات فى معالجة الجروح والتقيحات الخارجية، وثمرة العنب يمكن تجفيفها وتحويلها إلى زبيب دون أن ينقص ذلك من قيمتها الغذائية والعلاجية التى يظل الزبيب محتفظًا بها لفترات طويلة .

هذه الفوائد الجليلة لثمرة العنب وغيرها مما لم يكتشف بعد، ربما كان من وراء ذكر القرآن الكريم له على وجه الخصوص فى أحد عشر موضعًا من عشر سور كريمة، ووصف مناطق زراعته بالوصف جنات فى أغلب ما ذكر فيه من آيات، وجعله من ثمار الجنة، وإن كانت الجنة غيبًا لا يعلمه إلا الله، وكانت سننها وقوانينها وأوصاف الأشياء فيها مغايرة للدنيا وما فيها من خلائق، وإن جاء الوصف فى «سورة النبأ» من باب تقريب الأمر لأهل الدنيا، ولكنه يبقى تشريفًا لشجرة العنب ولثمرتها الطيبة المباركة .

(٢) (وزرع ونخيل): لفظة زرع هنا تشمل كل أنواع الزروع - النباتات - وذكرها هنا وفى مواضع أخرى كثيرة من القرآن الكريم تبلغ المواضع العشرة - غير أربعة مواضع أخرى جاءت فيها بصيغة الفعل أو الفاعل - جاء ليؤكد كل أنواع النبات مع التركيز على أنواع خاصة منها كالأعناب والنخيل فى الآية التى نحن بصددها، وكالتين والزيتون والرمان والموز - الطلح - فى مواضع أخرى تأكيدا على أهمية خاصة فى كل منها تميزها عن بقية الثمار والزروع .

والنخيل من الأشجار دائمة الخضرة، وتتميز بساق طويلة باسقة تنتهى بمجموعة من الأوراق فى قمتها، وليست لها فروع، وهى لا تسقط أوراقها التى تستر براعمها فى قمتها إلا بفعل الإنسان. وثمار النخيل من (بسر)، و (رطب)، و(بلح)، و (تمر)، تعتبر من الثمار النباتية المتميزة بقيمة غذائية عالية، فالتمر الجاف يحتوى على مواد كربوهيدراتية بما فيها من السكريات بنسب تزيد على

٧٠٪، وعلى ماء بنسبة ١٣٪، وألياف بنسبة ١٠٪، وعلى مواد دهنية بنسب تصل إلى ٢,٥٪، وعلى أملاح معدنية بنسب تصل إلى ١,٥٪، وعلى ڤيتامينات (أ، ب، ج) وبروتينات وهرمونات ومضادات حيوية بالنسب المتبقية .

ومن هذه الهرمونات، ما تتكون من تسعة أحماض أمينية، ويشبه هرمون الأدكستيوسين الذى يلعب أدواراً مهمة فى جسم الإنسان ذكرًا كان أم أنثى من مثل إيقاف النزيف، وعلى إدرار اللبن والمساعدة على يسر المخاض، وعلى اندمال الرحم وانقباضه بعد الولادة، وعلى ترقيق المشاعر، وتثبيت الفؤاد، وانشراح الصدر، وجلاء الأحزان عند الجنسين، ومنها هرمون الأستروجين الذى له وظائف كثيرة من أهمها ضبط توازن كل من الدهون والأملاح فى الجسم.

ومن أهم مكونات التمر أملاح المغنسيوم والمنجنيز والحديد التى توجد بتركيزات مناسبة وبصورة سهلة الامتصاص بواسطة جسم الإنسان والأول له تأثير بالغ على الغدد الموجودة بالجسم بما فى ذلك الغدد الصماء التى تقوم على إفراز الهرمونات، وله دور كذلك فى تهدئة الجهاز العصبى، وسلامة كل من العظام والأسنان، وفى زيادة معدلات نمو الخلايا، ومرونة الأنسجة، ومقاومة السموم الحمضية، وخفض حرارة الجسم وترطيبه، أما المنجنيز فأملاحه مهدئة للأعصاب، ومرققة للمشاعر والعواطف، ومزيلة للهموم والمخاوف، ومطمئنة للنفس، والحديد يلعب دوراً مهمّا فى بناء المادة الحمراء فى الدم، ويصل إلى الأطفال الرضع عن طريق لبن الأمهات فى أثناء الرضاعة الطبيعية .

من هنا كان تركيز القرآن الكريم على النخيل لتميزه على غيره من النباتات ولأهمية ثمره البالغة، ولذلك جاء ذكره فى عشرين آية قرآنية مباركة فى ست عشرة سورة، ومن هذه الآيات ما ذكر (النخلة) مفردة كما جاء فى سورة مريم مرتين لتحديد نخلة معينة بذات، ومنها ما ذكر (النخل) معرفًا فى عشر آيات، وما ذكر (نخيل) بصيغ الجمع غير المعرفة سبع مرات، و (نخلاً) مرة واحدة .

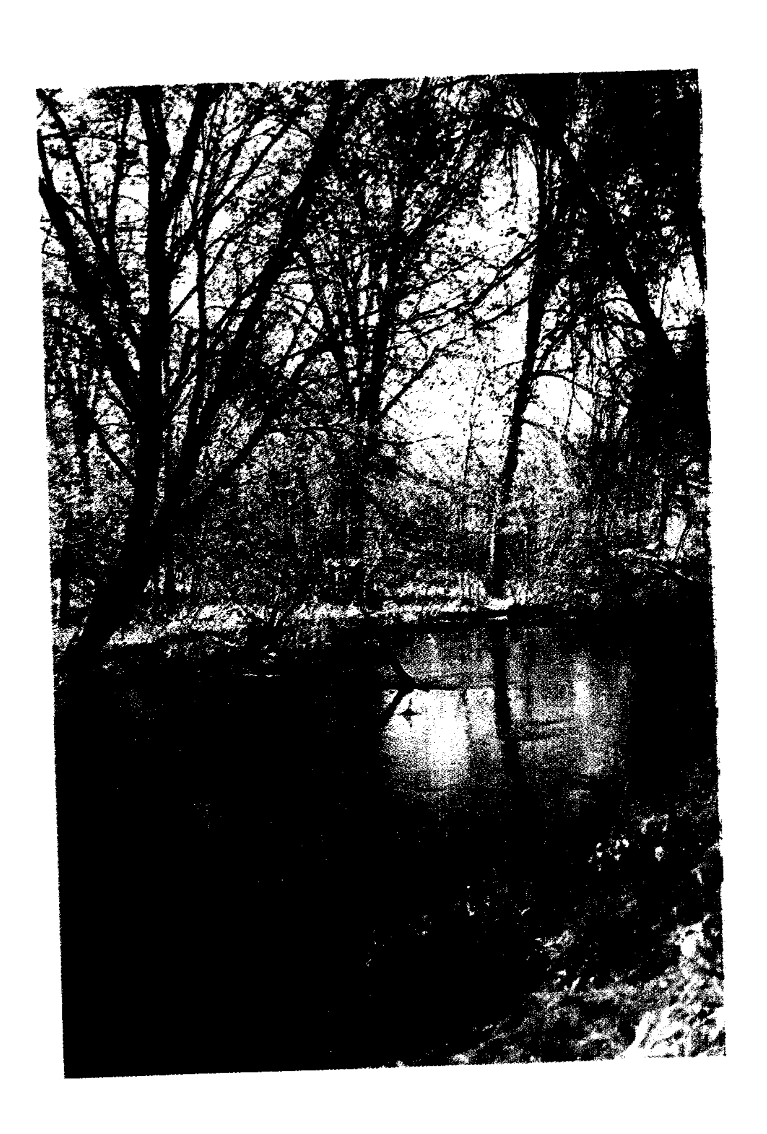
ثالثا : فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ يعرف العلماء اليوم أكثر من أربعمائة ألف نوع من أنواع النباتات، منها حوالى ٢٥٠,٠٠٠ نوع من أنواع النباتات الزهرية التى أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على إنتاج غذائها بعملية التمثيل الضوئى، وحوالى ١٥٠,٠٠٠ نوع من النباتات غير الزهرية التى ليست لها قدرة على القيام بعملية التمثيل الضوئى فتتغذى بطرائق أخرى .

وكل نوع من هذه النباتات مرتبط ارتباطًا وثيقًا ببيئته المحكومة بوضعه الجغرافى من التضاريس والمناخ، وتباين أنواع الصخور والتربة ووفرة الماء أو قلته، وتعدد الكائنات المصاحبة له وغير ذلك من عوامل، ولكنه محكوم أكثر بشفرته الوراثية التى تتحكم فى صفاته وقدراته المختلفة، ومنها قدرته على اختيار أنواع محددة من عناصر ومركبات الأرض التى تحيا عليها لتعطى ثمارًا أو حبوبًا وبذورًا خاصة لكل منها طعمه، ورائحته، ولونه، وشكله، وحجمه، مع اتفاق كل الظروف البيئية المحيطة، فكل نوع من أنواع النبات ـ كأى كائن حى ـ له عدد محدد من الصبغيات يميزه عن غيره، وكل واحد من هذه الصبغيات يحمل عددًا من المورثات ـ الچينات ـ يصدر كل منها التعليمات اللازمة للخلية لتصنيع بروتين محدد، ومع تباين المورثات من نبات إلى آخر تتباين البروتينات المنتجة بداخل الخلايا، ومن ثم تتباين ثمارها طعومًا ورائحة وألوانًا وأشكالاً وأحجامًا، وهى متماثلة من نوع واحد (صنوان) أو غير متماثلة من أنواع متعددة (غير صنوان) تسقى بماء واحد ويفضل الله ـ تعالى ـ بعضها على بعض فى الأكل .

ويتم هذا التنوع بين أفراد النوع الواحد من النبات فى أثناء عملية التكاثر واتحاد المورثات بين الخلايا الذكرية والأنثوية بنسب مختلفة، فتتنوع الثمار تحت نفس الظروف البيئية وفى النوع الواحد (صنوان)، كما يتم بين الأنواع المختلفة فى البيئة الواحدة (غير صنوان) وبين البيئات المختلفة، حتى تتعدد الثمار والحبوب والمنتجات النباتية لتفى بكل احتياجات الحياة على الأرض .

وفى الآية الكريمة إشارة إلى علوم التصنيف، والوراثة، والبيئة، والأراضى، وهى حقائق لم تتكشف للإنسان إلا بصورة بدائية فى نهايات القرن الثامن عشر الميلادى ولم يتم تبلورها إلا فى العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها فى كتاب الله الذى أنزل فى مطلع القرن السابع الميلادى بهذه الدقة العلمية والشمول والإحاطة لمما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبى الخاتم الذى تلقاه ولذلك ختمت الآية الكريمة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ فالحمد لله الذى أنزل القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وتعهد بحفظه فى نفس لغة وحيه (اللغة العربية) فحفظه حفظًا كاملاً: حرفًا حرفًا، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة سورة على مدى أربعة عشر قرنًا وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، فى الوقت الذى تعرضت كل صور الوحى السابقة إما للضياع التام أو للتحريف، فالحمد لله على نعمة القرآن، والصلاة والسلام على النبى الخاتم والرسول الخاتم الذى تلقاه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

❊ ❊ ❊



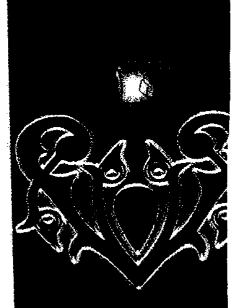
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(الزمر: ٢١)

هذه الآية الكريمة جاءت فى الثلث الأول من سورة الزمر، وهى سورة مكية، وعدد آياتها خمس وسبعون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أن الناس فى يوم القيامة سوف يقسمون إلى زمر من أهل الجنة، وزمر من أهل النار، أى إلى جماعات جماعات، فيساق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا، ويساق الذين كفروا إلى جهنم زمرا.

ويدور المحور الرئيسى للسورة حول فضل القرآن الكريم، وتعظيم التوحيد الخالص لله رب العالمين، والأمر به، وتشنيع الشرك، والنهى عنه، لأن الشرك يحبط الأعمال، ويجعل الواقع فى وحله من الخاسرين فى الدنيا والآخرة؛ لأن الله ـ تعالى ـ لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء من عباده. وتركز السورة الكريمة على حقيقة الآخرة، وتصور لنا عدداً من مشاهدها، وتمتدح المؤمنين، وتذكر طرفًا من إكرام الله ـ تعالى ـ لهم، وتذم الكفار والمشركين، وتذكر طرفًا من عقابهم، وتشير إلى شىء من طبائع النفس الإنسانية، وتلمح إلى عدد من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية



المبدعة، وتضرب عددًا من الأمثال للناس، موجهة الخطاب بين الحين والآخر إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

عرض موجز لسورة الزمر

تبدأ سورة الزمر بتأكيد الحقيقة الواقعة أن القرآن الكريم هو تنزيل من الله العزيز الحكيم، أنزله إلى خاتم أنبيائه ورسله، بالحق المبين الذى أمره بعبادة الله تعالى مخلصا له الدين - وهو الإسلام العظيم - ذلك الدين الخالص لله - تعالى - وحده (بغير شريك ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد) لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله - الواحد القهار - منزه عن صفات خلقه أجمعين، وعلى ذلك يكون الشرك بالله كذبا عليه - سبحانه -، وكفرا به، والله لا يهدى من هو كاذب كفار، ولذلك تنفى الآيات فى سورة الزمر - كما تنفى فى غيرها من سور القرآن الكريم - كل دعاوى المبطلين بنسبة الولد إليه - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا - وذلك بقول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر : ٤].

ثم تستعرض سورة الزمر عددًا من الآيات الكونية الشاهدة لله بأنه خالق الكون، وإلهه، وربه، ومليكه، مؤكدة أنه تعالى يرضى من عباده الشكر على نعمه، ولا يرضى منهم الكفر، فإن كفروا فإن الله غنى عن العالمين، وتقرر الآيات فى سورة الزمر أن نفسا لا تحمل إثم أخرى، وأن إلى الله مرجع الخلق جميعًا، فينبئهم بما كانوا يعملون إنه عليم بذات الصدور أى بما تكنه القلوب التى فى الصدور.

وتتحدث الآيات فى هذه السورة المباركة عن جانب من جوانب النفس الإنسانية ومنها اللجوء إلى الله فى الشدائد، ونسيانه - تعالى - فى حالات الرخاء والسعة، والتبجح بالشرك لإضلال الخلق عن الحق، وأن هذا الصنف من المشركين قد يتمتع بكفره قليلا، ولكن مصيره فى الآخرة إلى جهنم وبئس المصير . . . !! وتقارن الآيات بين هذا الصنف من الناس وبين الذين يرجون رحمة الله ويحذرون الآخرة، فيجتهدون فى العبادة آناء الليل وأطراف النهار، وتقرر أنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وأنه لا يتذكر إلا أولو الألباب.

وتوجه الآيات الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يطالب الذين آمنوا من عباد الله بتقوى الله، مؤكدة أن للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة، وأنه لا يجوز للمؤمن بالله أن يقبل الظلم أبدًا، فأرض الله واسعة، وأن الصبر على مجاهدة الظلم والظالمين من أعظم القربات إلى رب العالمين، وأن الصابرين يوفون أجرهم بغير حساب. وتطالبه الآيات ﷺ أن يقول للناس كافة: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١١ـ ١٥].

وتقارن الآيات بين عذاب الخاسرين من الكفار والمشركين يوم القيامة، وبين نعيم الذين اجتنبوا الطاغوت، وأنابوا إلى الله من أولى الألباب الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، مؤكدة أن الذى شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه يختلف حاله تماما عن الذين أعرضوا عن دين الله، فضلوا ضلالاً بعيدًا، وأصبحت قلوبهم قاسية إلى الحد الذى لا يحركها ذكر الله، ولا النظر فى آياته.

وتعاود الآيات إبراز قدر القرآن الكريم عند رب العالمين، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

وتعاود سورة الزمر المقارنة بين مصائر الصالحين والطالحين يوم القيامة، كما تشير إلى عقاب المكذبين من الأمم السابقة بالخزى فى الدنيا وبالعذاب فى الآخرة، وتضرب للناس الأمثال بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

[الزمر: ٢٧ـ ٢٨].

ومن هذه الأمثال تشبيه المشرك برجل مملوك لعدد من الشركاء المتنازعين فيه،

وتشبيه الموحد لله برجل ملكيته خالصة لفرد واحد، وواضح الأمر أنهما لا يستويان مثلا، فالحمد لله الذى أقام الحجة على عباده وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

وتخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بحقائق الموت والبعث والحساب، وذلك بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر ٣٠ : ٣١].

وتقرر الآيات أن من كذب على الله فنسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو كَذَّبَ بالحق الذى أوحاه إلى أنبيائه ورسله، والذى أتمه، وأكمله، وحفظه فى بعثة خاتمهم أجمعين، فإنه قد ظلم نفسه لأن مثواه سيكون فى جهنم، وهى مثوى الكافرين، أما الذين صَدَقُوا الله تعالى وصَدَّقُوا بما أنزله على خاتم أنبيائه ورسله فأولئك هم المتقون، المحسنون الذين لهم عند ربهم ما يشاءون.

وتؤكد سورة الزمر أن الله ـ تعالى ـ هو الذى يكفى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، ويكفى المؤمنين برسالته من بعده، كل ما يواجهون من تحديات الكفار والمشركين، فكفار قريش ومشركوها كانوا يتوعدون رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأصنامهم وأوثانهم التى عبدوها من دون الله، والله يهدى من يشاء لعلمه تعالى أنه اختار الهداية على الضلالة، ويضل من يشاء لعلمه ـ سبحانه ـ أنه اختار الضلالة على الهدى، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٦ ـ ٣٧].

وفى النهى عن الشرك والتحقير من شأنه تخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر: ٣٨ ـ ٤٠].

وفى التأكيد مرة ثالثة على قدر القرآن الكريم عند رب العالمين، وفى قدرته على هداية الخلق تعاود الآيات توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر : ٤١].

وتنعى الآيات على المشركين اتخاذهم شفعاء يتقربون بهم إلى الله، وهم يعلمون حق العلم أن هؤلاء الشفعاء لا يملكون شيئا ولا يعقلون، ولذلك تؤكد حقيقة أن الشفاعة كلها لله وحده، لا ينالها أحد إلا برضاه، وهو وحده الذى له ملك السماوات والأرض، وهو الذى سوف يرجع الخلق جميعهم إليه فيحاسبهم على أعمالهم.

وتنتقد الآيات على المشركين أنهم إذا ذكر الله وحده - دون ذكر الذين أشركوهم فى عبادته زوراً وبهتانًا - انقبضت قلوبهم، وإذا ذكر شركاؤهم الذين أشركوهم فى عبادة الله فإنهم لكفرهم يستبشرون، ولذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - موجهًا الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر : ٤٦].

وتعاود الآيات التحذير من الظلم بمختلف أبعاده، وأشكاله، وصوره، ومنه ظلم النفس بإغراقها فى دياجير الكفر بالله أو الشرك به، وظلم الآخرين باغتيالهم، أو باغتيال حقوقهم، أو ممتلكاتهم، أو أعراضهم، أو حرياتهم كما تفعل كل من العصابات الصهيونية المجرمة المحتلة لأرض فلسطين، والعصابات الأنجلو/ أمريكية الفاجرة على أرض كل من العراق وأفغانستان وغيرهم من عصابات الشر المكدرة لصفو الحياة على وجه الأرض وفى ذلك يحذر ربنا - تبارك وتعالى - هؤلاء وأمثالهم من الواقعين فى الظلم من سوء العاقبة فيقول عز من قائل، : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر : ٤٧ - ٤٨].

وتتحدث الآيات مرة ثانية عن جانب من جوانب النفس الإنسانية فتقول : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الزمر : ٤٩ ـ ٥٢].

وتحذر الآيات الذين أسرفوا فى المعاصى من أن يقنطوا من رحمة الله ، كما تحذر من التكذيب بالرسالة الخاتمة والرسول الخاتم ، ومن الاستكبار على الحق ، وتدعو إلى سرعة التوبة والإنابة إلى الله وذلك بقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ موجها الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر : ٥٣ ـ ٥٩].

وتعرض الآيات لمشهد من مشاهد يوم القيامة يقول فيه ربنا وقوله الحق : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر : ٦٠ ـ ٦١].

ومعنى هاتين الآيتين الكريمتين أن الذين كذبوا على الله فنسبوا إليه من الصفات ما لا يليق بجلاله ـ كالصاحبة أو الولد ـ سوف يأتون يوم القيامة ووجوههم مسودة ، ثم يلقون فى نار جهنم وبئس مثوى المكذبين بالحق ، المتكبرين عليه والمتعالين عن اتباعه ، بينما ينجى الله الذين اتقوه من النار ، ويكرمهم بفوزهم بالجنة ، لا يمسهم السوء ولا يغشاهم شىء من الحزن الذى يغشى الكفار والمشركين فى يوم الفزع الأكبر .

ثم تؤكـد الآيات أن الله ـ تعـالى ـ هو خـالق كل شىء، وأنه على كل شىء وكيل، وأن له وحده تصريف أمور السماوات والأرض، ولذلك فإن الكافرين بالله وآياته المنظورة والمقروءة هم بالقطع الخاسرون فى الدنيا والآخرة.

ولذلك تنعى الآيات على المشركين شركهم، وتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ آمرة إياه بعبادة الله ـ تعالى ـ وحده بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد كما أمر جميع من قبله من الأنبياء والمرسلين، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٤ ـ ٦٦].

وتؤكد الآيات أن الذين كفروا بالله أو أشركوا به لم يعظموه التعظيم الذى يليق بجلاله، وسوف يرون قدر الألوهية فى يوم القيامة، والأرض جميعا فى قبضة الله، والسماوات مطويات بيمينه.

وتشير الآيات إلى نفخة الصور، وما يتبعها من موت من فى السماوات والأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا الجميع قائمون من قبورهم، وفى هذا اليوم ـ يوم الفزع الأكبر، وكل واحد منتظر مصيره ـ تشرق الأرض بنور ربها، ويوضع الكتاب، ويحضر النبيون والشهداء ليشهدوا على أممهم، فيفصل الله بين الخلائق بالحق، ويعطى كل نفس حقها جزاء ما عملت «**وهم لا يظلمون، والله أعلم بما يفعلون**».

ثم تصور الآيات ختام الحساب الإلهى بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [الزمر : ٧١ ـ ٧٤].

وتختتم سورة الزمر بتصوير مشهد آخر من مشاهد الآخرة يجسد الخشوع لله يقول فيه الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

الإشارات الكونية فى سورة الزمر

فى سياق الاستشهاد على طلاقة القدرة الإلهية فى إبداع الخلق، والاستدلال من ذلك على وحدانية الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى حتمية البعث وضرورته جاء فى سورة الزمر عدد من الإشارات إلى الكون وبعض مكوناته وظواهره يمكن إيجازها فيما يلى :

١ ـ وصف عملية خلق السماوات والأرض بأنها تمت بالحق، أى حسب قوانين وسنن منضبطة تشهد لخالقها بأنه الحق ـ سبحانه وتعالى ـ .

٢ ـ الإشارة الضمنية الرقيقة إلى كروية الأرض، وإلى دورانها حول محورها أمام الشمس، وإلى جريها فى مدارها، وجرى كل من الشمس والقمر ـ وبالتالى كل أجرام السماء ـ إلى أجل مسمى .

٣ ـ التأكيد على خلق البشر كلهم من نفس واحدة .

٤ ـ ذكر عملية إنزال ثمانية أزواج من الأنعام، والإنزال هنا قد يشير إلى إنزال الأمر بخلق كل منها أو إنزال الشفرة الوراثية الخاصة بكل منها .

٥ ـ الإشارة إلى خلق جنين الإنسان فى ظلمات ثلاث .

٦ ـ التأكيد على عدم مساواة الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وأن الذين يتدبرون ويفهمون ويتذكرون هم أولو الألباب والنُّهَى .

٧ ـ الإشارة إلى أن أصل الماء تحت سطح الأرض هو ماء المطر الذى يسلكه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ينابيع فى الأرض، ثم يخرج به زروعًا مختلفة الأنواع والألوان، ثم بعد النضج ييبس الزرع ويجف بعد نضارته، ويصفر لونه، ثم يتحطم ويصبح فتاتًا متكسرًا .

٨ ـ الإشارة إلى مفارقة الروح للجسد فى كل من حالتى النوم والممات، ثم يعاد إرسالها للنائم لحظة يقظته، وإمساكها عن جسد الميت لحظة وفاته . وعلى

الرغم من أن الروح من الغيبيات المطلقة إلا أن الدراسات العلمية تؤكد تغيراً للإنسان بين حالتي النوم واليقظة.

٩ ـ تأكيد حقيقة أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شيء، وأنه على كل شيء وكيل.

١٠ ـ الإشارة إلى أن الأرض سوف تكون فى قبضة الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فى يوم القيامة، وأن السماوات سوف تكون مطويات بيمينه.

١١ ـ الإشارة إلى أن الأرض فى الآخرة سوف تشرق بنور ربها كما أشرقت أرض الدنيا بنوره ـ سبحانه وتعالى ـ.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على النقطة السابعة فى القائمة السابقة والتى جاءت فى الآية رقم (٢١) من سورة الزمر، ولكن قبل الشروع فى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح دلالة هذه الآية المباركة.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٢١].

* ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره: «أخبر تعالى أن أصل الماء فى الأرض من السماء» كما قال عز وجل: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨] فإذا أنزل الماء من السماء كَمُن فى الأرض ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء وينبعه عيونًا ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴾ .. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: ليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروقا فى الأرض تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصعده، وكذا قال سعيد بن جبير وعامر الشعبى ....، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُه﴾ أى ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعًا مختلفًا ألوانه أى أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أى بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفرًا قد خالطه اليبس ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ أى ثم يعود يابسًا يتحطم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أى الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء، ثم تعود عجوزًا شوهاء والشاب يعود شيخًا هرمًا كبيرًا ضعيفًا وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيرا ما يضرب الله ـ تعالى ـ مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء وينبت به زرعا وثمارا ثم يكون بعد ذلك حطاما كما قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وجاء فى كل من تفسير الجلالين، والظلال، وصفوة البيان لمعانى القرآن، والمنتخب، وصفوة التفاسير كلام مشابه، وإن تميز كل تفسير بأسلوب كاتبه، وطريقة عرضه.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: الإشارة إلى أن الماء المخزون تحت سطح الأرض كله من ماء المطر

تشير هذه الآية الكريمة إلى دورة الماء حول الأرض وهى لم تعرف إلا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، على الرغم من أن فرنسيا باسم «برنارد باليسى ـ Bernard Palissy» عاش فى الفترة ما بين ١٥١٠م، ١٥٨٩م نادى بأن الأنهار والينابيع لا يمكن أن تنشأ عن غير ماء المطر، وواضح من أسلوبه أن فكرته هذه مقتبسة عن بعض ترجمات القرآن الكريم أو عن بعض كتابات المسلمين التى كانت قد ترجمت إلى اللغات الأوروبية فى أوائل عصر النهضة، وعلى الرغم من ذلك فإن الفكرة الخاطئة بأن الماء المتجمع تحت سطح الأرض مندفع إلى داخل كتل القارات من ماء البحار والمحيطات بتأثير من حركة الرياح ظلت سائدة فى كل أوروبا إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى. وقبل ذلك بأكثر من عشرة قرون نزل القرآن الكريم مؤكدا أن كل ماء الأرض ـ والمقدرة كميته حاليا بنحو ١,٤ بليون كيلومتر مكعب ـ قد أخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كله من داخل الأرض، وذلك

بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات ٣٠ ـ ٣١].

ونعلم اليوم أن هذا الكم الهائل من الماء قد أخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على هيئة بخار الماء المتصاعد من فوهات البراكين، ومن صدوع الأرض العميقة، وقبل انبثاق هذا البخار المائى كان الله ـ تعالى ـ قد هيأ له وسائل التكثيف من الرياح التى حملته إلى الأجزاء العليا من نطاق المناخ (الذى يتراوح سمكه بين ٧ و ١٦ كيلومترًا)، والذى يتميز بانخفاض درجات الحرارة فيه مع الارتفاع حتى تصل اليوم عند قمته إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر (- ٦٠ م) فوق خط الاستواء، وبوصول بخار الماء إلى تلك المستويات تكثف على هيئة السحب، ثم لقحت الرياح تلك السحب بهباءات الغبار وغيرها من نوى التكثف حتى تكونت السحب الممطرة (المزن أو السحب المزنية)، وتكونت فيها قطيرات الماء فى بادئ الأمر دقيقة الحجم جدًا حتى يتمكن هذا الجزء من الغلاف الغازى للأرض من حملها. وبتكرار عمليات التكثف ازداد حجم تلك القطيرات وكتلة كل منها بالتدريج حتى سقطت بمشيئة الله وتقديره على هيئة زخات من المطر أو رشات من البرد أو الثلج، جرت على سطح الأرض وفاضت إلى منخفضاتها لتكون البحار والمحيطات، وبتعرض الماء فى تلك المنخفضات لأشعة الشمس يتبخر جزء منه ليعاود رحلته حول الأرض حتى يرجع إليها مطرًا أو بردًا أو ثلجًا، يخزن جزء منه فى تربة الأرض وصخورها المسامية المنفذة للموائع، ويفيض أغلبه إلى البحار والمحيطات وبذلك بدأت دورة الماء حول الأرض.

وبتصريف الرياح ـ بمشيئة الله وإرادته ـ تكونت السحب ولا تزال تتكون، وشحنت ولا تزال تشحن بمزيد من بخار الماء، وذلك بالتفاعل بين الكتل الهوائية المختلفة وهى دافئة ورطبة فوق المسطحات المائية بالمناطق المدارية، وحارة جافة فوق صحاريها، وباردة جافة فوق المناطق القطبية، وبتداخل هذه الكتل الهوائية مع بعضها البعض تتكون السحب الممطرة والأعاصير المدمرة، وغير ذلك من المظاهر الجوية التى تعقد تضاريس سطح الأرض من شدة أنشطتها.

وعندما يسخن الهواء بملامسته سطح الأرض بحيث يصبح أدفأ من كتل الهواء المحيطة به فإنه يتمدد، فتقل كثافته ويرتفع إلى أعلى، وبارتفاعه يتناقص ضغطه، وتنخفض درجة حرارته حتى تصل رطوبته إلى درجة التشبع فيبدأ ما به من بخار الماء فى التكثف. ويحمل مزيد من بخار الماء إلى السحب المتكونة، وبتوافر مزيد من نوى التكثف كالهباءات الدقيقة من الغبار وبعض المركبات الكيميائية التى لها جاذبية لبخار الماء - من مثل كبريتات النشادر -، وبعض دقائق الأملاح المتصاعدة مع بخار الماء، تزداد قطيرات الماء حجما وكتلة حتى تسقط بفعل الجاذبية الأرضية متى وحيث يريدها الله، وبالكم الذى يقدره - سبحانه.

وتشير الدراسات إلى أن حرارة الشمس تبخر من ماء الأرض سنويا ٣٨٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب من الماء (٣٢٠,٠٠٠ كيلومتر مكعب منها تتبخر من أسطح البحار والمحيطات، ٦٠,٠٠٠ كيلو متر مكعب تتبخر من ماء اليابسة السطحى ومما تحت سطح الأرض، ومن نتح النباتات وتنفس وإفرازات كل من الإنسان والحيوان). وهذه الكمية المتبخرة من ماء الأرض تعود كلها إلى الأرض ثانية فى نفس السنة، ولكن يعاد توزيعها بعلم الله وحكمته وبفضله ورحمته، فيعاد إنزال ٢٨٤,٠٠٠ كيلومتر مكعب من ماء المطر على البحار والمحيطات، ٩٦,٠٠٠ كيلومتر مكعب منه على اليابسة، بفارق ٣٦,٠٠٠ كيلومتر مكعب من الماء تنقص من مجموع ما تبخر من ماء البحار والمحيطات، وتزيد على مجموع ما تبخر من ماء اليابسة، فتجرى على سطحها لتفيض فى النهاية إلى البحار والمحيطات حتى يبقى منسوب الماء فيها ثابتًا عند مستوى محدد فى كل فترة زمنية محددة.

وماء المطر أثناء جريه على سطح الأرض يروى كلاً من النبات والحيوان والإنسان، ويتسرب جزء منه إلى داخل القشرة الأرضية عبر الصخور المنفذة فيخزن فيها بمشيئة الله - تعالى - وإرادته وتقديره حتى يخرجه لنا على هيئة العيون والينابيع الطبيعية، أو يصل إليه الإنسان بواسطة حفر الآبار مختلفة الأعماق فى فترات يحتاج فيها إلى هذا الماء.

ويقوم ماء المطر عند هطوله بتفتيت صخور الأرض، وتكوين التربة، وشحنها بقدر من الرطوبة، كما يقوم بشق الفجاج والسبل، وتسوية سطح الأرض،

وتلطيف الجو، والمحافظة على رطوبة الهواء، وبإذابة العديد من الأملاح التى فى الصخور، وحملها إلى البحار والمحيطات، وتركيز العديد من الخامات المعدنية والثروات الأرضية المختلفة أثناء هذه العمليات المتعددة.

ولولا هذه الدورة لماء الأرض لفسد وتعفن وأسن؛ لأن الأوساط المائية يعيش ويموت فيها البلايين من الكائنات الحية فى كل لحظة، ولذلك يمن علينا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى هذه الآية الكريمة وفى العديد غيرها من الآيات القرآنية بإنزال الماء طهوراً مباركًا ثجاجًا من السماء وفى ذلك يقول عز من قائل ـ:

■ ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

■ ويقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨].

■ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨].

■ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: ٢٧].

■ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٢١].

■ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ [الواقعة ٦٨ ـ ٦٩].

■ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠].

■ ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ [النبأ: ١٤].

هذه الحقائق أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من قبل أربعة عشر قرنا، وكان فلاسفة الحضارة الإغريقية من قبل ذلك يعتقدون أن الماء المتجمع تحت سطح الأرض مندفع إلى داخل القارات من ماء البحار والمحيطات بتأثير حركة الرياح، وأن الماء المخزون

فى صخور الأرض يعاود الحركة إلى المحيطات عبر هوة خيالية سحيقة أطلقوا عليها اسم تاتار، وقد سادت هذه الخرافات فكر الحضارة الإغريقية وتبناها العديد من فلاسفتهم من أمثال طاليس فى القرن السابع قبل الميلاد، وكل من أفلاطون وأرسطو - فى القرن الرابع قبل الميلاد - ، وأضاف الأخير أن بخار ماء التربة يتكثف فى التجاويف الباردة للجبال مما يشكل بحيرات تحت سطح الأرض تغذى الينابيع المائية، وقد تبعه فى ذلك سينيكا - فى القرن الأول الميلادى - ، واستمر اعتقاد الأوروبيين فى هذه الخرافات حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى (١٨٧٧م) على الرغم من أن الفرنسى «برنارد باليسى - **Bernard Palissy**» كان قد أشار فى سنة ١٥٨٠ م - اى بعد بدء تنزل القرآن الكريم بنحو عشرة قرون - إلى أن الماء الأرضى يعود أصله إلى ماء المطر، ووافقه على ذلك كل من «ماريوت - **E. Mariotte**» و«بيرو - **P. Perraut**» فى القرن السابع عشر الميلادى، وعارضهم بالخرافات القديمة واحد من أبرز مفكرى القرن السابع عشر وهو «رينيه ديكارت - **Réné Descartes**» المتوفى سنة ١٦٥٠ ميلادية. وواضح من كتابات باليسى - كما سبق وأن أشرنا - أنه كان قد استقى هذه الفكرة من بعض كتابات المسلمين الأوائل التى كانت قد ترجمت إلى عدد من اللغات الأوروپية فى أوائل عصر النهضة، أو عن بعض الترجمات الأولى لمعانى القرآن الكريم إلى إحدى اللغات الأوروپية وذلك لوضوح النبرة الإسلامية فيما كتب.

ومن الثابت علميًا اليوم أن الماء الذى خزن فى صخور الأرض بتقدير من الله - سبحانه وتعالى - أصله كله من ماء المطر الذى أنزله ربنا - تبارك وتعالى - على فترات متطاولة من الزمن، وأن هذا الماء يتحرك رأسيا فى مناطق التشبع السطحية، ثم يتحرك أفقيًا أو مائلاً حتى يخزن فى أحد مكامن الماء التى أعدتها الإرادة الإلهية بحكمة بالغة، لمدد قد تطول إلى عدة آلاف من السنين، وقد تتجدد بماء المطر السنوى أو لا تتجدد، وقد يصادف هذا الماء المخزون تحت سطح الأرض فى حركته بعض الصدوع، أو الفواصل أو الشقوق فيصعد منها إلى سطح الأرض على هيئة ينابيع أو عيون مائية، ولذلك قال ربنا - تبارك وتعالى - : ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾.

ثانيا : إخراج الزروع مختلفة الألوان من الأرض بمجرد إنزال المطر

يعرف العلم فى زماننا الراهن أكثر من ٣٥٠,٠٠٠ نوع من أنواع النباتات، ويمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد، وكل نوع من هذه الأنواع له من صفاته الخارجية (الشكلية) والداخلية (التشريحية) ما يميزه عن غيره. والمزهر من هذه النباتات له زهوره، وثماره الخاصة به، وكل ثمرة من تلك الثمار لها طعومها، وروائحها، وألوانها، وأشكالها المميزة لها. ومن هذه النباتات ما يزرع، ومنها ما ينبت بطريقة فطرية، وإن كان الله تعالى قد خلقها كلها فى بادئ الأمر بطريقة فطرية لا دخل للإنسان فيها؛ لأنها كلها سابقة فى وجودها على وجوده بملايين السنين.

وإخراج كل هذه النباتات والزروع المتباينة فى صفاتها، وكلها يسقى بماء واحد يشير إلى ما أعطاه الله -تعالى- لكل نبتة من قدرة فائقة على اختيار ما يناسبها من عناصر الأرض ومركباتها، ولولا هذه القدرة الإلهية المبدعة فى بناء الشفرة الوراثية لكل نوع من أنواع النبات، بل لكل فرد منها، ما أنبتت الأرض على الإطلاق، ولولا إنزال الماء من السماء ما نشطت تلك الشفرة الوراثية، ولولا ما أعطى الله - سبحانه وتعالى - للبذرة النابتة من قدرة على امتصاص الماء، وزيادة فى الحجم، وإحداث ضغوط هائلة على أغلفتها حتى تتشقق وتنفجر ما أنبتت تلك البذور، ولا كانت تلك النباتات . . . !!

ولولا ما أعطى الله - جل جلاله - للجنين فى داخل أى من البذرة أو النواة من قدرة على اليقظة من سباته بمجرد وصول الماء إليه وهو كامن، ساكن فى داخل بذرته أو نواته، ثم النمو بسرعة ملحوظة ما أنبتت تلك البذور، ولا كانت تلك النباتات والزروع.

ولولا تخير الله - تعالى - لعوامل التعرية المختلفة لتفتيت صخور الأرض ما تكونت التربة، ولولا ما وضع الخالق - سبحانه وتعالى - فى تربة الأرض من قدرة على التفاعل مع ماء السماء، واتحادها به، وانتفاشها بتشربه، وارتفاعها إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتنشق ما استطاعت السويقة الطرية الندية المنبثقة من داخل البذرة النابتة الصعود إلى سطح الأرض، ولا استطاع المجموع الجذرى من التغلغل فى داخل التربة.

هذا إذا كان المقصود بألوان الزروع والنباتات هنا هو أنواعها وأصنافها العديدة، أما إذا كان المقصود ألوانها التى تتراءى لعين كل من الإنسان والحيوان نتيجة لامتصاصها بعض أطياف نور النهار الأبيض الناصع فإننا نعلم اليوم أن ألوان كل من الزهور، والثمار، والأوراق فى النباتات المزهرة تصنعها يد القدرة الإلهية المبدعة عن طريق عدد من الأصباغ الأساسية ـ من مثل الكلوروفيللات الخضراء، والأنثوسيانيتات الحمراء، والكاروتينات الصفراء ـ وعدد آخر من الأصباغ الثانوية التى تعرف باسم «أصباغ الإحساس»، وبتباين نسبها إلى بعضها البعض تتكون هذه الأطياف المبهرة لألوان الزروع والنباتات المختلفة التى جعلها الله ـ تعالى ـ متعة للناظرين، ووسيلة من وسائل اجتذاب الحشرات وغيرها من الحيوانات للعمل على إخصاب الزهور وانتشار البذور فى الأرض بما يعين على استمرارية النباتات فى الوجود بأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ثالثا : ثم يهيج فتراه مصفراً

فى بدء حياة النبتة من الزروع المختلفة تطغى الأصباغ الخضراء على لونها، وذلك لحاجة النبات إليها فى عملية التمثيل الضوئى التى يبنى بواسطتها غذاءه، وعند تمام نضج الثمار تتوقف حاجة النبات إلى الغذاء، وبالتالى تتوقف قدرته على إنتاج الأصباغ الخضراء، وما تبقى منها يبدأ فى التحلل والتحول إلى عدد من المركبات الكيميائية التى تفتقر إلى الخضرة، وهنا تبدأ الأصباغ الصفراء الشبيهة بأصباغ الجزر ـ الأصباغ الكاروتينية ـ فى الظهور التدريجى حتى تسود.

وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾.

رابعا : ثم يجعله حطامًا

يكوّن الماء أغلب أنسجة النباتات (نحو ٨٠٪ فى المتوسط)، وعند نضج الثمار فإنها تفقد نسبًا متباينة من مكوناتها المائية بالتدريج، خاصة فى حالة الحبوب الجافة، وكذلك تفقد باقى أنسجة النبات ماءها بالتدريج فى حالة المحاصيل الحولية حتى تجف بالكامل، وتبقى موادها الصلبة، وما كان ذائبًا فى مائها من أملاح، وهنا تتوقف حياة النبات، وتبدأ مادته الجافة، فى التحلل بواسطة العديد من النباتات

المتطفلة مـــثل «الحـــزازيات -Mosses» و«الأشنات -Lichens»، و«الأبواغ ـSpores»، و«الفطريات ـ Fungi» والتى تفرز أعداداً من الإنزيمات التى تساعد على تحلل بقايا النبات، وقد تأتى البكتيريا بأعدادها الغفيرة لتتم عملية التحلل بالكامل، كما قد تساعد عوامل التعرية المختلفة على تفتيت جسم النبات اليابس أو المتحلل حتى تجعله حطامًا، وقد يتحول هذا الحطام فى النهاية إلى مكوناته الأساسية التى تمتصها التربة، وهى صورة مصغرة لدورة الحياة والموت التى يتعرض لها كل مخلوق ولذلك تختم الآية الكريمة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾.

هذه الحقائق لم تبدأ فى التكشف للإنسان إلا على مراحل متطاولة فى القرون الثلاثة المتأخرة ولم تتم بلورتها إلا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، وورودها فى كتاب الله بهذه الدقة العلمية، والشمول والإحاطة، والكمال ـ وهو كتاب أنزل قبل معرفة الإنسان بتلك الحقائق ـ بنحو عشرة قرون كاملة لما يثبت لكل ذى بصيرة أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه فى نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ فحفظه كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا على مدى يزيد على الأربعة عشر قرنا، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، وذلك تحقيقًا للوعد الإلهى الذى قطعه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على ذاته العلية فقال عز من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على هدى خير الأنام، سيد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، الذى بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

***



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ....﴾

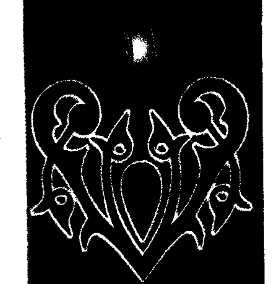
(فاطر: ٢٧)

هذا النص القرآنى المعجز جاء فى أوائل النصف الثانى من سورة فاطر، وهى سورة مكية، وعدد آياتها خمس وأربعون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لافتتاحها بالثناء على الله - تعالى - بكونه فاطر السماوات والأرض، أى خالقهما على غير مثال سابق، ولأنه جاعل الملائكة رسلاً، وأنه تعالى على كل شىء قدير، ولأنه رحمن السماوات والأرض ورحيمهما، وأنه هو العزيز الحكيم.

عرض موجز لسورة فاطر

تنادى هذه السورة الكريمة فى مطلعها على الناس كافة أن يذكروا نعمة الله عليهم وهو الخالق الرازق الذى لا إله إلا هو، وفى ذلك تقول الآيات:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ



الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ١ ـ ٣].

وبعد ذلك يوجه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في مواساة رقيقة من الله تعالى على تكذيب الكفار والمشركين لبعثته الشريفة بأن جميع رسل الله السابقين قد كذبهم الكفار والمشركون من أممهم، وأن إلى الله ترجع الأمور، وهو تعالى عليم بما تصنع كل نفس، وأنه سوف يجازى الجميع بأعمالهم. وكذلك تطالب الآيات رسول الله ﷺ ألا يحزن على الكافرين والمشركين والمكذبين لأن الله عليم بما يصنعون.

وتؤكد الآيات للناس كافة أن وعد الله بالبعث والحساب والجنة والنار هو حق لا ريب فيه، فلا يجوز لهم أن ينخدعوا بالدنيا وينسوا الآخرة، ولا ينخدعوا بالشيطان فيصرفهم عن متابعة أوامر الرحمن؛ لأن الشيطان سوف يغريهم بالمعصية، ويمنيهم بالمغفرة، وسوف يزين لهم سوء أعمالهم فيروه حسنًا، انطلاقًا من عدائه لهم، وحرصه على الوقيعة بهم، فلا بد من اتخاذه عدوا، لأنه يدعو أتباعه ليكونوا من أصحاب النار.

وتؤكد السورة الكريمة أن الذين كفروا لهم عذاب شديد، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كريم، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٤ ـ ٨].

ثم تؤكد الآيات أن العزة لله جميعًا، وأنه من كان يريد العزة فليطلبها من الله بطاعته، فالعمل الطيب يصعد إليه والعمل الصالح يرفعه ـ سبحانه وتعالى ـ

ويقبله، وأن الذين يدبرون السوء بخبث ومكر لهم عذاب شديد، ولن ينفعهم تدبيرهم الماكر بشيء؛ لأن مآله الدمار والبوار.

وتنعى الآيات على الذين يشركون بالله - سبحانه وتعالى - أن شركاءهم لا يسمعون دعاءهم، وإن سمعوه فإنهم لن يستجيبوا لهم، ويوم القيامة سوف يكفرون بشركهم، وينكرونه عليهم، ولا ينبئ بمثل هذا الحق من أخبار الآخرة مثل الله تعالى العليم به علما محيطا، والخبير به خبرة كاملة.

وتتوجه الآيات بالخطاب مرة أخرى إلى الناس جميعا مؤكدة أنهم هم المحتاجون إلى الله فى كل شيء، والله - سبحانه وتعالى - هو الغنى عن كافة خلقه، المستحق للحمد من جميع عباده، وأنه إن يشأ إهلاك الخلق جميعا لأهلكهم وأتى بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز.

كذلك تؤكد الآيات أن نفسًا لا تحمل وزر أخرى، وإن دعت نفس مثقلة بالذنوب أحدا من الخلق ليحمل عنها شيئا من ذنوبها فإن ذلك لا يمكنه، وإن كان ذا قرابة معها، لانشغال كل بنفسه وهمه وذنوبه.

وفى مقابلة رائعة يعاد توجيه الخطاب مرة أخرى إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

[فاطر: ١٨-٢٦].

وفى سياق السورة الكريمة امتدحت الآيات المؤمنين الذين يتلون كتاب الله، ويتدبرون آياته، والذين يقيمون الصلاة على وجهها الصحيح، وينفقون مما رزقهم الله سرّا وعلانية، وهم يرجون بذلك تجارة مع الله لن تبور، ولن تكسد أبدا بإذنه لأنه - سبحانه وتعالى - سوف يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، إنه غفور شكور.

ومرة ثالثة تعاود السورة الكريمة توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مؤكدة أن القرآن الكريم هو الحق الذى لا شبهة فيه، وأن الله تعالى قد أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ مصدقا لما تقدم من الكتب السماوية لاتفاق أصولها، ووحدة رسالتها، وفى ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى - :

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣١ - ٣٣]

والآية الأخيرة تؤكد أن الله - تعالى - قد جعل القرآن الكريم ميراثا للذين اصطفاهم من عباده، وعلى الرغم من هذا الفضل العظيم فإن من هؤلاء العباد المصطفين للإسلام من يظلم نفسه بالزج بها فى المعاصى، ومنهم من يعصمها من ذلك فلا يسرف فى إتيان السيئات، ولكنه فى نفس الوقت لا يجتهد فى الإكثار من الحسنات، ومنهم السابق بالخيرات، الذى يجتهد فى الإكثار من الحسنات، وهو صاحب الفوز الكبير من الله، ألا وهو الخلود فى جنات عدن التى أفاضت الآيات فى وصف نعيمها. أما الذين يكفرون بالله فجزاؤهم نار جهنم خالدين فيها إلا أن يشاء الله(*)، لا يقضى عليهم بالموت فيموتوا، ولا يخفف عنهم شىء من العذاب، وهو جزاء كل متماد فى الكفر، أو مصر على الشرك، أو سادر فى الضلال بلا توبة حتى الموت، أو منكر لرسالة السماء الخاتمة، ولنبوة رسولها عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

(*) كما جاء فى سورة الأنعام ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وسورة هود ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١٠٧].

وتصور الآيات حال الكافرين والمشركين فى نار جهنم وهم يستغيثون بالله أن يخرجهم منها ليعملوا صالحا غير الذى كانوا يعملون فى الدنيا، وترد عليهم الآيات بقول الحق - تبارك وتعالى - :

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا ﴾ [فاطر : ٣٧- ٤٠].

وتذكر الآيات أن الكافرين أقسموا بالله جهد أيمانهم - أى قسمًا مغلظًا - لئن جاءهم نذير من الله - تعالى - ليكونن أهدى من غيرهم من الأمم التى كذبت رسلها، فلما جاءهم رسول منهم ما زادتهم دعوته المباركة إلا نفورا من الحق، وكراهية له، انطلاقا من استكبارهم فى الأرض، ورغبتهم فى المكر السيئ برسولهم، والمكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، فهل يتوقعون من الله إلا ما جرت به سننه - سبحانه وتعالى - فى الذين سبقوهم من الأمم، وسنن الله لا تتوقف، ولا تتخلف، ولا تتبدل، ولا تتحول، ولو ساروا فى الأرض وتأملوا عواقب من كانوا قبلهم من الأمم، وما أصاب تلك الأمم العاصية من الدمار والهلاك، وقد كانوا أشد من كفار الجزيرة العربية قوة، فلم تمنعهم قوتهم من عذاب الله، والله لا يعجزه شىء فى السماوات ولا فى الأرض لأنه - سبحانه - هو العليم القدير.

وتختم سورة فاطر بالتأكيد على أن كل بنى آدم خطاءون، وأن خير الخطائين التوابون، وأن الآخرة حق، وأن الحكم فيها عدل مطلق، وفى ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى - :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [فاطر : ٤٥].

الآيات الكونية فى سورة فاطر

وسورة فاطر مليئة بالاستشهاد بالآيات الكونية التى تنبه الإنسان إلى عظمة الخالق - سبحانه وتعالى - تلك العظمة البينة فى إتقان الخلق، وضخامة الكون، ودقة بنائه، وتعدد أجرامه، وإحكام حركاته، وخلق الله - تعالى - من أدق اللبنات إلى أعظم الوحدات فى هذا الكون الشاسع، ومن الكائن ذى الخلية الواحدة إلى الإنسان الكامل، كل ذلك يشهد لهذا الخالق العظيم بالألوهية، والربوبية، والوحدانية، والخالقية، كما يشهد له - تعالى - بقدرته على إفناء الخلق وعلى إعادة بعثه من جديد، وقد كانت قضية البعث عبر التاريخ - ولا تزال - هى حجة المكابرين والمعاندين من الكفار والمشركين، وسوف تظل كذلك إلى يوم الدين. ومن الإشارات الكونية التى تضمنتها سورة فاطر ما جاء فى الآيات التالية:

(١) ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

(٢) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١١ - ١٣].

(٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

[فاطر: ٢٧ - ٢٨].

(٤) ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ [فاطر : ١٤].

وكل آية من هذه الآيات، وكل مقطع من كل آية يحتاج إلى معاملة خاصة، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على المقطع الأول من الآية السابعة والعشرين من هذه السورة المباركة، والذى اتخذته عنوانا لهذا المقال.

وقبل البدء فى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح هذا النص القرآنى المعجز.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله تعالى:

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ [فاطر : ٢٧].

* ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره: يقول تعالى منبهًا على كمال قدرته فى خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذى ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو الشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿ يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [الرعد: ١٣]. . . . . ».

* وجاء فى تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما مختصره: «﴿ ألم تر ﴾ تعلم ﴿ أن الله أنزل من السماء ﴾ أى: من السحاب ﴿ ماء فأخرجنا ﴾ فيه التفات عن الغيبة (به ثمرات مختلفا ألوانها) كأخضر وأحمر وأصفر وغيرها . . . . ».

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم ـ ما نصه: « . . . . إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب. لفتة تطوف فى الأرض كلها تتتبع فيها الألوان والأصباغ فى كل عوالمها: فى الثمرات، وفى الجبال، وفى الناس، وفى الدواب والأنعام، لفتة تجمع فى كلمات

قلائل، بين الأحياء وغير الأحياء فى هذه الأرض جميعا، وتدع القلب مأخوذا بذلك المعرض الإلهى الجميل الرائع الكبير الذى يشمل الأرض جميعا، وتبدأ بإنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان. ولأن المعرض معرض أصباغ وشيات، فإنه لا يذكر هنا من الثمرات إلا ألوانها ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ .. وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع ما نبت منه جميع الرسامين فى جميع الأجيال. فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر، بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد، فعند التدقيق فى أى ثمرتين أختين يبدو شىء من اختلاف اللون !».

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن - رحم الله كاتبه برحمته الواسعة - ما نصه: «﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ ﴾ خطاب لكل من يصلح له بتقرير دليل من أدلة القدرة الباهرة، والصنعة البديعة يوجب الإيمان بالله، ويدفع فى صدور المكذبين - بعد أن ذكر أخذه تعالى لهم عقوبة على التكذيب والجحود - وهو اختلاف ألوان الثمرات والجبال، والناس والدواب والأنعام اختلافًا بينا ....».

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه: «(ألم تر) أيها - العاقل - أن الله أنزل من السماء ماء أخرج به ثمرات مختلفا ألوانها منها الأحمر والأصفر والحلو والمر والطيب والخبيث ....».

وأضاف الخبراء بالهامش ما يلى: «ليس الإعجاز العلمى فى هذه الآية الكريمة هو التنويه فقط بما للجبال من ألوان مختلفة ترجع إلى اختلاف المواد التى تتألف منها صخورها ....، ولكن الإعجاز هو الربط بين إخراج ثمرات مختلفات الألوان يروى شجرها ماء واحد.....».

* وجاء فى صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيرًا - ما نصه: «﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى: ألم تر أيها المخاطب أن الله العظيم الكبير الجليل أنزل من السحاب المطر بقدرته؟ ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ أى فأخرجنا بذلك الماء أنواع النباتات والفواكه والثمار، المختلفات الأشكال والألوان والطعوم، قال الزمخشرى: أى مختلف أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر، أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها».

أولاً: الثمرات فى اللغة العربية

(الثمرات) جمع (ثمرة)، و(الثمرة) فى العربية اسم لكل ما يتطعم به من أعمال الشجر، ويقال لكل نفع يصدر عن شيء: ثمرته، و (الثمرة) واحدة (الثمر)، وجمعها (ثمرات)، وجمع (الثمر)(ثمار)، وجمع الثمار (ثمر)، وجمع ثمر هو (أثمار). ويقال فى العربية : (أثمر) الشجر أى طلع ثمره، وشجر (ثامر) إذا أدرك ثمره، وشجرة (ثامرة) أو (ثمراء) أى ذات ثمر. ويكنى (بالثمر) أحيانًا عن المال المستفاد، فيقال : (أثمر) الرجل إذا كثر ماله، ويقال : (ثمر) الله ماله (تثميرًا) أى كثره له. كذلك يكنى (بالثمر) عن العقد فى أطراف السوط تشبيها بالثمر فى الهيئة والتدلى من الشجر، كما يكنى به عن كل مشابه لذلك، (فالثميرة) من اللبن هى كل ما تحبب من الزبد تشبيها بالثمر فى الهيئة، وفى التحصيل عن اللبن كأفضل ما فيه.

ثانيًا: الثمرات فى علوم النبات

تعرف (الثمرة) فى النباتات المزهرة بأنها المتاع (المبيض) الناضج للزهرة، والزهرة هى الجزء الذى يحمل أعضاء التكاثر فى النباتات المزهرة، وهى العضو الثابت فى تلك النباتات الراقية لأنه لا يتأثر بتغيرات البيئة، ومن هنا اتخذت الزهرة أساسا لتقسيم النباتات المزهرة.

وبعض الزهور مفردة الجنس، والبعض الآخر يضم كلاً من أعضاء التذكير والتأنيث، وعندما تندمج النواتان الذكرية والأنثوية يتم إخصاب الزهرة، وبنجاح اندماجهما يتكون جنين حى للنبات فى داخل البذور محاطا بالغذاء اللازم لنموه، ويحيطه جدار حافظ يعرف عادة باسم القصرة، وبنمو البويضة المخصبة وما بداخلها من بذرة أو بذور تتكون الثمرة بتضخم أنسجة المتاع (المبيض) وأحيانا يتضخم بعض أنسجة الزهرة الأخرى، وقد يسمك جدار المتاع أو يتصلب أو يبقى رقيقًا ليكون جدار الثمرة التى تظهر بتكشفها بعد تساقط أجزاء الزهرة الأخرى عنها. فبعد تمام عملية إخصاب الزهرة، وتكون الثمرة، تبدأ أعضاؤها الأخرى فى الذبول والسقوط فى معظم النباتات المزهرة، وإن شذ بعضها عن ذلك.

وتبقى الوظيفة الأصلية للثمار منحصرة أساسًا فى المحافظة على أجنة النبات فى داخل البذور، ومدها بالغذاء حتى تمام نموها، ثم مساعدة تلك البذور على الانتشار والانتشار بعد نضج الثمرة، أو بعد الاغتذاء عليها بواسطة أى من الإنسان أو الحيوان وإلقاء البذور فى الأرض لتنبت من جديد، وقد تتفسخ الثمرة وتنفتح فطريا لإخراج البذور التى يمكن حملها بواسطة الرياح، أو المياه الجارية، أو بواسطة أى من الإنسان أو الحيوان إلى أماكن بعيدة لتساعد على انتشار النبات.

ثالثًا: اختلاف ألوان الثمار بمعنى اختلاف أنواعها

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ ﴿ ..... **فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا** ...... ﴾

ذكر الزمخشرى ـ يرحمه الله ـ أن اختلاف الألوان يشمل كلا من اختلاف الأجناس والهيئات، وإذا أخذنا ذلك على المحمل الأول فإننا نجد أن كلا من أجناس وأنواع الثمار من الكثرة بحيث يصعب حصرها، ولكن يمكن تجميعها فى عدد من المجموعات الكبرى على النحو التالى:

(١) مجموعة الثمار الزهرية البسيطة

وهى الثمار التى تتكون أساسا عن زهرة واحدة لها متاع (**مبيض**) واحد، سواء تكونت من كربلة واحدة أو من عدة كرابل ملتحمة، وتحوى كل واحدة من هذه **الثمار البسيطة** الجنين الحى للنبات، محاطا بكم من الغذاء لنموه حتى تمام ذلك، ثم يختزن لإنباته فى المستقبل، ويحاط الجنين بعدد من الأغلفة النباتية لحمايته، ويعرف الجنين، وما حوله من مخزون غذائى وأغلفة حماية باسم البذرة أو النواة أو الحبة، وبواسطة تلك الأجنة النباتية المحفوظة بداخل البذور أو النوى أو الحب يستمر وجود النبات إلى ما شاء الله.

ومن هذه الثمار البسيطة ما هو غض (رطب)، وما هو جاف، **والثمار البسيطة الغضة** يحاط الجنين فيها بثلاث طبقات أو أغلفة من الداخل إلى الخارج على النحو التالى: غلاف خشبى للبذرة (**أو النواة**)، وغلاف وسطى شحمى يزاد سمكه ويقل من ثمرة إلى أخرى، وهو الجزء الذى يؤكل عادة، وغلاف خارجى جلدى رقيق يغلف الثمرة بأكملها، وقد يصبح شمعيا سميكا عند تمام نضج الثمرة، ويعرف هذا

النوع من الثمار باسم **الثمار الحسلية**، ومن أمثلتها المشمش، والخوخ، والبرقوق، والكريز، والزيتون، وأشباهها.

ومن الثمار البسيطة الغضة ما يعرف باسم **الثمار اللبية** وفيها تبقى الأغلفة الثلاثة الحامية للجنين طرية بعد نضج الثمرة وذلك مثل الخيار والقثاء، أو يبقى جدار البذور صلبا مثل العنب والطماطم، والثمار اللبية وهي ثمار شحمية ذات بذور عديدة منغرسة في المادة اللبية للثمرة ومن أمثلتها البطيخ والشمام، والبرتقال، وأشباهها.

وأحيانا يدخل في تركيب الثمار أجزاء أخرى من مكونات زهور النباتات غير المتاع (**مبيض الزهرة**) من مثل التخت، الكأس، القلم، والأوراق الزهرية، وهذه الثمار قد تكون بسيطة مثل ثمار التفاح، والكمثرى، والسفرجل، والتي يتضخم التخت فيها فيكون الجزء الذي يؤكل من الثمرة، وتعتبر هذه الثمار **ثمارا زهرية غير حقيقية**؛ لأن الجزء الذي يؤكل فيها هو تخت الزهرة المتضخم، وقد تكون هذه الثمار غير بسيطة - أي مركبة - كما سيأتي ذكره.

أما **الثمار البسيطة الجافة** فتكون أغلفة الجنين فيها كلها جافة، وتكون الثمرة إما منشقة أو متفتحة أو غير متفتحة، ومن الثمار المنشقة ثمرة الخروع، ومن المتفتحة ما ينفتح بغطاء يغطي علبة مثل ثمرة عين القط، أو بثقوب تخترق جدار الثمرة، كما هو الحال في ثمرة الخشخاش، أو بتفتح علبة بواسطة أسنان متداخلة تنفتح العلبة عبرها، كما هو الحال في ثمرة القرنفل، أو عبر مصراعين أو أكثر كثمرة نبات القطن، أو عبر حواجز قاطعة كما في ثمرة البنفسج. ومن هذه الثمار ما يأخذ شكل الجراب مثل ثمار العليق التي تتفتح طوليا من جانب واحد، وثمار البقول التي تنفتح من الجانبين، ومنها ما يأخذ شكل الخردلة مثل ثمار كل من الجرجير والمنثور.

أما **الثمار البسيطة الجافة غير المتفتحة** فيظل الجدار الخارجي للثمرة مغلقا، ولا تستطيع البذور التحرر من داخلها إلا بعد كسر جدار الثمرة أو تحلله، والجدار هنا قد يكون خشبيا كما هو الحال في البندق، واللوز، والجوز، والبيكان، أو قد يلتحم جدار الثمرة مع قصرة البذرة كما هو الحال في ثمار القمح، وقد يكون

الغلاف الخارجى غشائيا أو جلديا غير ملتحم مع قصرة البذرة، كما هو الحال فى بذور الورد.

(٢) مجموعة الثمار الزهرية المتجمعة

وتتكون هذه الثمار من وحدات متجمعة تنتمى إلى زهرة واحدة، أى من متاع واحد ذى كرابل سائبة، ومن أمثلتها ثمار كل من الفراولة، والراسبرى، والقشطة، والشليك.

(٣) مجموعة الثمار الزهرية المركبة

وتتكون من الثمار الناتجة عن عدد من الأزهار المجتمعة على نورة واحدة، وتشمل هذه الثمار المركبة أوراقا، وأعناقا، وقنابات زهرية بالإضافة إلى متع **(مبايض)** الزهور المحتوية على أجنة النبات.

ومن أمثلة هذه الثمارة الزهرية المركبة ثمار كل من التين، والجميز، والتوت، والأناناس، وهى تعتبر ثمارا غير حقيقية لاشتراك أعداد من أجزاء الزهرة مع المتاع فى تكوين الثمرة.

وقد يتسع مدلول الثمرة ليشمل كل جزء من النبات يمكن الاستفادة به عن غير طريق زهوره، وذلك من مثل الجذور فى حالات الجزر واللفت وما شابههما من ثمار، والدرنات فى حالات البطاطس والبطاطا وأشباههما، والسيقان فى حالة كل من قصب السكر والغاب، والأوراق فى حالة نباتات النعناع والجرجير، والبقدونس، وأشباهها.

والثمار النباتية سواء كانت زهرية حقيقية أو غير حقيقية أو غير زهرية تمثل الغذاء الرئيسى للإنسان، وللعديد من الحيوانات آكلة العشب التى يربيها للاستفادة بألبانها، ولحومها، وشحومها، وجلودها. ومن الثمار ما يشكل مصادر مهمة للكربوهيدرات والبروتينات والڤيتامينات والأحماض العضوية، والزيوت والدهون، والشموع، والأدوية، والأصباغ وللخيوط المستخدمة فى صناعات النسيج كثمرة القطن وغيرها من الثمار المشابهة لها.

رابعًا: اختلاف ألوان الثمار بمعنى اختلاف أصباغها

وكما تختلف الثمار فى طرائق نموها تختلف كذلك فى ألوانها، كما تختلف فى روائحها وطعومها، وكل ذلك ينطلق من تركيبها الكيميائى وصفاتها الطبيعية، ومحتواها من المواد الغذائية ومن الماء، ويرد ذلك إلى القدرة التى وهبها الله - تعالى - لكل نبتة من النباتات على اختيار أقدار محددة من عناصر ومركبات الأرض التى تنمو عليها.

وتختلف ألوان الثمار الداخلية والخارجية اختلافًا مميزًا لكل منها، ويفسر ذلك بتباين نسب الأصباغ الموجودة فيها، أى بكل من غلاف الثمرة ولبها.

وهذه الأصباغ النباتية توجد فى مجموعات أساسية وأخرى ثانوية، وعلى أساس من نسب هذه الأصباغ يكون اللون النهائى للثمرة الناضجة خارجيًا وداخليًا، وبتعدد تلك النسب تصبح ألوان الثمرات النباتية أمرًا يكاد يكون لا نهائيا.

(أ) **مجموعات الأصباغ النباتية الأساسية**: وتشمل أنواعًا عديدة من الأصباغ التى يمكن جمعها فى المجموعات التالية:

(١) مجموعة الأصباغ المخضرة

وتعرف علميّا باسم مجموعة «الكلوروفيلات - **Chlorophil**»، وتختص بإعطاء النباتات بأجزائها المختلفة درجات متعددة من اللون الأخضر، خاصة فيما يسمى باسم «المجموع الخضرى للنبات»، وتعتبر مجموعة الأصباغ المخضرة أهم الأصباغ النباتية على الإطلاق، وذلك لدورها الأساسى فى عملية التمثيل الضوئى، التى تقوم فيها الأصباغ الخضراء. الموجودة فى أوراق النبات على وجه الخصوص مركزة فى جسيمات متناهية الصغر تعرف باسم البلاستيدات الخضراء. وفى عملية التمثيل الضوئى (الكربونى) تلك تقوم «البلاستيدات الخضراء» بالتقاط الطاقة من أشعة الشمس، واستخدامها فى تحليل كل من الماء. الصاعد إلى الأوراق مع العصارة الغذائية المستمدة من التربة بواسطة جذور النبات إلى مكوناته الأساسية من الأكسچين الذى ينطلق إلى الجو، والإيدروچين الذى تحتفظ به، وكذلك غاز ثانى أكسيد الكربون - الذى يمتصه النبات من الجو - وتحليله إلى مكوناته الأساسية من

الأكسـچين الذى ينطلق إلى الجـو والكربون الذى تحـتـفظ به لاتحـاده مع ذرات الإيدروچين من أجل بناء سـلاسل من الكربوهيـدرات مـثل : النشـويات، والسكريات المختلفة، وينتج عن عملية التحويل هذه معظم الطاقة التى يحتاجها النبات والتى تخزن عادة على هيئة روابط كيميائية فى عدد من المركبات الكربوهيدراتية اللازمة لحياة النبات، وهى مركبات عضوية لازمة أيضًا لحياة كلٍّ من الإنسان ولحيواناته التى يربيها من آكلات الأعشاب.

والبلاستيدات الخضراء عادة ما تحتوى على عدد من الأصباغ الأساسية غير الأصباغ المخضرة، ولكنها صبغات مستترة وعندما تنقص كمية الأصباغ المخضرة تظهر تلك الأصباغ المستترة وبذلك تتغير البلاستيدات الخضراء إلى بلاستيدات ملونة، ومن البلاستيدات ما هو عديم اللون أى : لا يحتوى على أصباغ، ولكن يخزن مواد غذائية مثل النشويات، والپروتينات، والدهون، مما يحتاجه النبات فى نموه وفى بناء ثماره، ويتركب جزىء الكلوروفيل من حلقة من ذرات الكربون والنيتروچين حول ذرة من المغنسيوم، وذيل طويل من ذرات الإيدروچين.

(٢) مجموعة الأصباغ المصفرة

وتعرف علميا باسم «الكاروتينات ـ **Carotinoids**» أو الجزريات نسبة إلى ثمرة الجزر، وتختص بإعطاء الثمار النباتية درجات متعددة من اللون الأصفر المبهج الذى يسر الناظرين، وهى مجموعة من الكربوهيدرات التى تتوزع فى سلاسل عديدة تبدأ من اللون الأصفر وتنتهى إلى اللون البنى، ومن أشهرها صبغة الجزر المعروفة باسم «الكاروتين ـ **Carotene**» وتتكون من أربع ذرات من الكربون وست وخمسين ذرة من الإيدروچين.

(٣) مجموعة الأصباغ المحمرة

وتعرف علميّا باسم أصباغ «الفيكوبيلينات ـ **Phycobilins**»، وتختص بإعطاء الثمار النباتية درجات متعددة من اللون الأحمر، وهى كذلك مجموعة من الكربوهيدرات التى تتوزع فى سلاسل تتشكل بشكل جزئى من مواد پروتينية

والكروتينندات التى تتميز بسلاسل طويلة من الكربون وجزيئات الكلوروفيل وتبدأ من الأحمر الفاتح وتنتهى إلى اللون البنفسجى الغامق، ومن أشهرها صباغ «الفيكوأرثرين ـ **Phycoarthrin**» الحمراء، و«الفيكوسيانين ـ **Phycocyanin**» المائلة إلى اللونين النيلى والبنفسجى.

والثمار النباتية ـ فى غالبيتها ـ تبدأ باللون الأخضر، ومع اكتمال نموها، واقتراب نضجها يبدأ لونها الأخضر فى التغير بالتدريج إلى لونها الخاص بها، والذى تحكمه نسب الأصباغ الداخلة فى التركيب الكيميائى لها، خاصة تلك الموجودة فى القشرة الخارجية لكل ثمرة من الثمار.

ومع اقتراب نضج الثمرة يتناقص اللون الأخضر بالتدريج حتى يتلاشى جزئيا أو كليا، وتأخذ الثمرة لونها المميز لها كاللون الأصفر بدرجاته المختلفة لكل من الحمضيات والمشمش، والتفاح والبرقوق الأصفرين، واللون الأحمر لكل من الفراولة، والكريز، وكل من البرقوق والتفاح الأحمرين، والبلح الذى يبدأ باللون الأخضر ثم ينتهى إلى أى من اللون الأصفر أو البرتقالى أو الأحمر، وإذا ترطب تحول لون قشرته الخارجية إلى اللون البنى أو الأسود، وكذلك ثمرة المانجو التى تبدأ باللون الأخضر الذى قد يتحول عند نضج الثمرة إلى اللون الأصفر أو البرتقالى المشرب بحمرة، أو يبقى على حاله مع تغير فى درجة الإخضرار، وثمرة التوت التى قد تبدأ بأى من اللونين الأخضر أو الأبيض، وتنتهى إلى سلسلة من الألوان منها الأبيض، أو الأحمر، أو الأسود، وهكذا.

(ب) مجموعات الأصباغ النباتية الإضافية

بجوار مجموعات الأصباغ الأساسية فى الثمار النباتية، توجد مجموعات من الأصباغ الإضافية التى عرفت باسم «أصباغ الإحساس ـ **Sensor Pigments**» وهذه توجد فى أنسجة النباتات بنسب أقل من الأصباغ الأساسية، ولكنها تلعب أدواراً مهمة فى حياة النبات على الرغم من ضآلة نسبها، ومن هذه الأصباغ الإضافية ما يلى:

(١) مجموعة الصبغات المؤثرة فى لون النبات ككل: وتعرف علميا باسم «مجموعة صبغة لون النبات ـ **The Phytochrome Pigment Group**»

(٢) مجموعة الصبغات المستترة أو الخفية فى النبات (The Cryptochrome Pigment Group) : وهى مجموعة من الأصباغ التى لا تظهر إلا بضعف الأصباغ الأساسية.

(٣) مجموعة الصبغات النباتية الحساسة للأشعة فوق البنفسجية (Uitraviolet Photosensor Pigment Group) : مثل الأصباغ الموجودة فى نبات دوار الشمس.

ولكل واحد من هذه الأصباغ الإضافية دوره المهم فى حياة النبات، ولكنه - زيادة على ذلك - يختلط مع الأصباغ الأساسية بنسب متفاوتة ليعطى درجات لا نهائية من الألوان لكل من الأزهار والثمار النباتية، ولأوراق النبات فى بعض الحالات الخاصة.

ودور الأصباغ النباتية بمجموعاتها الأساسية والإضافية - ليس مقصورا على إصباغ الألوان الخاصة على كل زهرة وثمرة من الزهور والثمار النباتية بأعدادها اللانهائية - على أهميته - وذلك لأن لكل واحد من هذه الأصباغ دوره فيما يجرى بداخل خلايا وأنسجة النبات من أنشطة كيميائية وحيوية، وفى مقدمتها عملية التمثيل الضوئى، وعمليات الشعور والإحساس عند النبات، وعمليات تتبع أشعة الشمس، وغير ذلك من أدوار علمنا بعضها، وجهلنا الكثير منها.

ومن جوانب الحكمة الإلهية المبدعة لهذه الألوان المبهجة التى أضفاها الخالق العظيم على كل من الأزهار والثمار النباتية هو جذب انتباه الحشرات لتأبير الزهور حتى تثمر، وجذب انتباه كل من الإنسان والحيوان إلى الثمار النباتية ليقوم بقطفها وفتحها لأكلها، ثم إلقاء بذورها فى الأرض من أجل إنباتها، واستمرارية الوجود للنباتات المزهرة إلى ما شاء الله تعالى؛ وذلك لأن ثمار النباتات الراقية هى الحاوية لبذورها، والبذور هى الحاوية لأجنة تلك النباتات البذرية المزهرة، وهى وسيلة تكاثرها والمحافظة على بقائها إلى ما شاء الله.

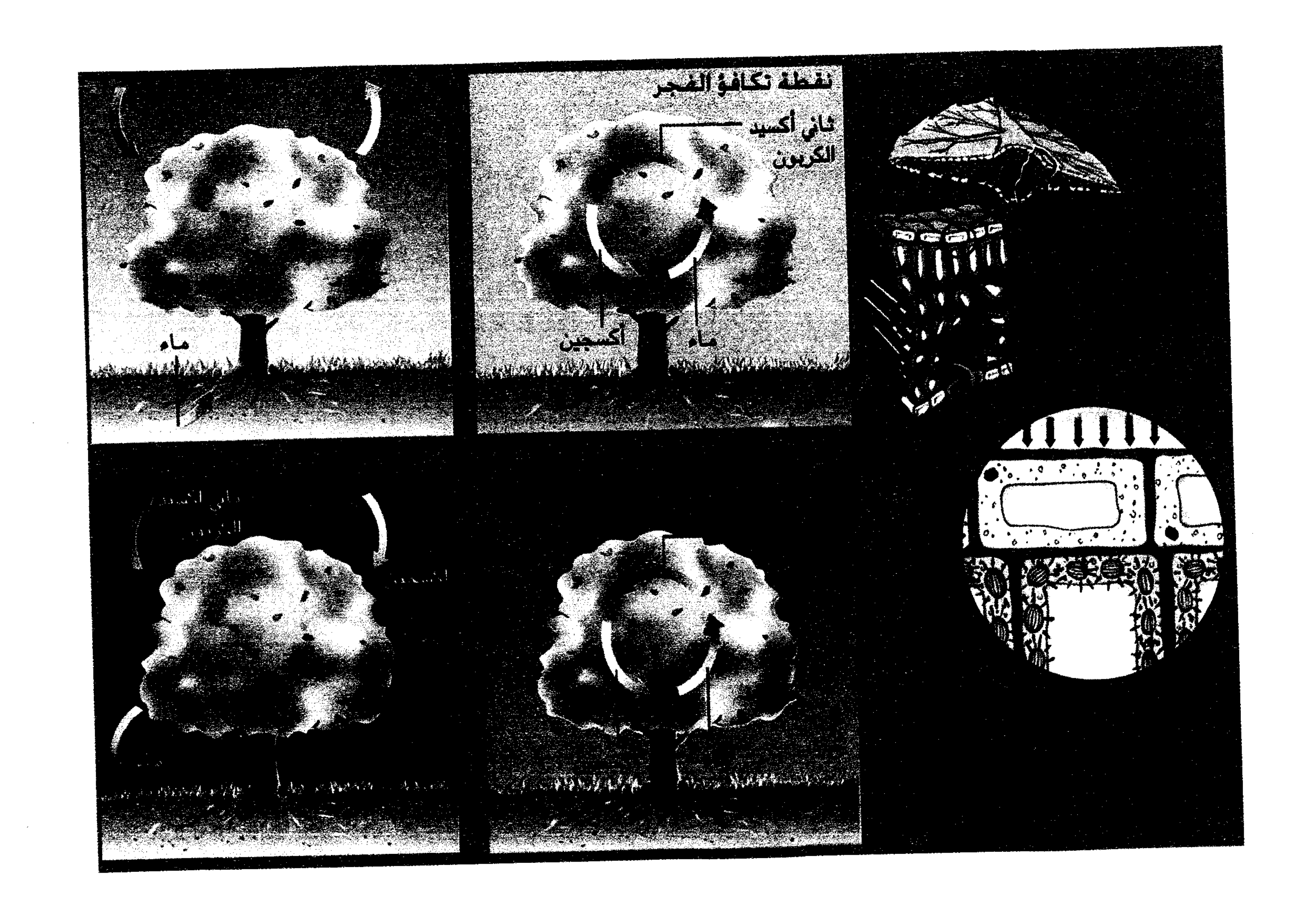
واستهلال الآية الكريمة التى نحن بصددها بذكر إنزال الماء من السماء فيه إشارة إلى دور هذا السائل العجيب فى إذابة العديد من عناصر ومركبات الأرض، وجعلها فى متناول جذور النباتات لامتصاصها والاستفادة بها .

وكذلك فإن فى الإشارة إلى اختلاف ألوان الثمار تأكيد على تلك القدرة الإلهية المبدعة التى أودعها الله تعالى فى الشفرة الوراثية لكل نبتة لتمكنها من اختيار ما يناسبها من العناصر والمركبات المذابة فى الماء، فتأتى كل زهرة وثمرة باللون الخاص بها على الرغم من نموها على تربة واحدة، وسقياها بماء واحد، وهذه حقائق لم يدركها الإنسان إلا فى القرن العشرين، ولم يتبلور فهمه لها إلا فى العقود المتأخرة منه، وورود الإشارة إليها فى كتاب الله الذى أنزل من قبل أربعة عشر قرنا على نبى أمى ﷺ ، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لمما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بنفس لغة وحيه: كلمة كلمة وحرفًا حرفًا، فبقى فى صفائه الربانى، وإشراقاته النورانية يصدع بالحق فى كل أمر من أموره وبالحقيقة فى كل إشارة من إشاراته، وسوف يبقى كذلك إلى يوم الدين تحقيقا للوعد الإلهى الذى قطعه ربنا - تبارك وتعالى - على ذاته العلية فقال عز من قائل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩].

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على مر الدهور والأعوام، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

***



نقطة تكافؤ الفجر
ثاني أكسيد الكربون
أكسجين
ماء
ماء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ...﴾

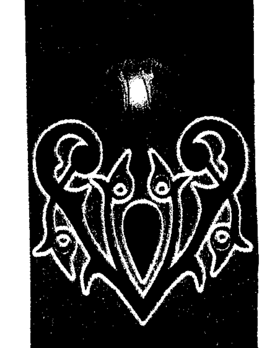
(الأنعام: ٩٩)

هذا النص القرآني المعجز جاء في بداية الثلث الأخير من سورة الأنعام، وهي سورة مكية، ومن طوال سور القرآن الكريم، إذ يبلغ عدد آياتها خمس وستين ومائة بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لتكرار الإشارة إلى الأنعام فيها.

ومن خصائص هذه السورة المباركة أنها نزلت دفعة واحدة؛ ويدور المحور الرئيسي لها حول العقائد والتشريعات الإسلامية، وقصص عدد من الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله - تعالى - قبل بعثة خاتمهم (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) وذكر عدد من الأمم البائدة، وقد استشهدت هذه السورة المباركة على صدق ما جاء بها من أخبار بالعديد من الآيات الكونية الناطقة بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق، والشاهدة على وحدانية الخالق العظيم، بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد - تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً - .

عرض موجز لسورة الأنعام

تبدأ سورة الأنعام بقول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)



هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١-٦].

واستنكاراً لهذا الموقف المشين من الكفار والمشركين تؤكد السورة أن الله ـ تعالى ـ هو الذى خلق الإنسان من طين، وحدد لكل مخلوق أجله، كما حدد للبعث أجلاً عنده ـ سبحانه ـ استأثر وحده بعلمه، بينما ينكر كثير من المخلوقين حتمية البعث أو يتشككون فيه.

وتؤكد سورة الأنعام كذلك فى مطلعها أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو وحده الإله فى السماوات وفى الأرض، وهو وحده الذى يعلم السر والجهر، ويعلم ما تكسب كل نفس.

وتنعى السورة الكريمة على الكافرين إعراضهم عن كل آية تأتيهم من ربهم، وتكذيبهم بوحى السماء، وهو الحق الذى أنزله ربهم على فترة من الرسل، وأتمه، وأكمله، وحفظه فى القرآن الكريم، الذى هو وحيه الخاتم، وعلى الرغم من ذلك كذب الكافرون والمشركون بهذا الحق لما جاءهم، وترد عليهم السورة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وتؤكد سورة الأنعام أن الكافرين مهما أتاهم من معجزات فسوف يعتبرونه سحراً مبينًا، وأنهم من فجرهم طالبوا رسول الله ﷺ بنزول ملك من السماء يشهد له بالنبوة والرسالة، ويرد عليهم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لو أنزل ملكًا لحكم عليهم بالهلاك دون إمهال، ولو قدر الله ـ تعالى ـ ذلك لأنزله على هيئة رجل فاختلط الأمر عليهم.

وتُصَبِّر الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - بأن الرسل من قبله قد تعرضوا لتكذيب الكافرين وسخريتهم، فأهلكهم الله - تعالى - بما سخروا، وتطالب الناس بالسير فى الأرض لينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين.

وتطلب الآيات من رسول الله ﷺ أن يسأل الكافرين: لمن ما فى السماوات والأرض؟ وأن يجيب بأن ذلك كله لله الذى كتب على نفسه الرحمة، تفضلاً منه على خلقه، وإحسانًا إليهم، وأنه - تعالى - قد قرر أن يجمع الخلائق إلى يوم القيامة لا ريب فيه، وأن الكافرين قد حكموا على أنفسهم بالهلاك حين كذبوا الرسل، وشككوا فى حقيقة البعث وكفروا بالله.

وأشارت سورة الأنعام إلى أمم قد أبيدت من قبل بعد أن مكن الله - تعالى - لها فى الأرض ثم أهلكهم بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم قومًا آخرين، ويمكن تلخيص المحاور الرئيسية للسورة فى النقاط التالية:

أولاً: من ركائز العقيدة الإسلامية فى سورة الأنعام

(١) **الإيمان بالله** خالق السماوات والأرض، وجاعل الظلمات والنور، الذى خلق الإنسان من طين، وحدد لكل مخلوق أجله، كما حدد لحظة البعث لجميع الخلائق بعد إفنائهم، واستأثر وحده بعلم ذلك دون غيره. والإيمان بهذا الخالق العظيم إلهًا واحدًا للسماوات والأرض ومن فيهن، يعلم السر والجهر، ويعلم ما تكسب كل نفس، وأن هذا الخالق العظيم له ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم، وأنه - سبحانه - يُطْعِم ولا يُطْعَم، وأنه - تعالى - فالق الحب والنوى، يخرج الحىَ من الميت، ومخرجَ الميت من الحى، وأنه - تبارك وتعالى - هو فالق الإصباح، الذى جعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا، وجعل النجوم لنهتدى بها فى ظلمات البر والبحر، وأنشأ الناس من نفس واحدة فمستقر ومستودع، وأنزل من السماء ماء فأخرج به نبات كل شىء، وأخرج منه خضراً يخرج منه حبًا متراكبًا ﴿ ...وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ.. ﴾ [الأنعام: ٩٩] وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وهو - سبحانه وتعالى - خالق كل شىء، وهو على كل شىء وكيل؛

لأن أمره ـ تعالى ـ كن فيكون، وأن الله ـ تعالى ـ ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وهو القائل: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]

وأن علمه ـ سبحانه وتعالى ـ قد وسع كل شيء، وأنه ـ سبحانه ـ هو كاشف الضر عمن يشاء، ومجرى الخير على من يشاء، وهو الذى ينجى من ظلمات البر والبحر، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، وأنه ـ تعالى ـ واحد أحد، فرد صمد، بغير شريك ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ، وأنه ـ سبحانه ـ يرسل المرسلين مبشرين ومنذرين، وأن كل الخلائق سوف تحشر إليه ليحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا، وأنه ـ تعالى ـ هو أسرع الحاسبين، وأنه ـ سبحانه ـ هو منزل التوراة، ومنزل القرآن الذى هو كتاب مبارك مصدق الذى بين يديه، وهو وحى الله الخاتم الذى أوحاه إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ.

(٢) **الإيمان بملائكة الله وبكتبه ورسله وبخاتمهم أجمعين صلى الله وسلم** وبارك عليه وعليهم أجمعين، وبأنهم أرسلوا مبشرين ومنذرين، وبأن القرآن الكريم هو رسالة الله الخاتمة، ومن هنا فقد تعهد بحفظها فحفظت.

(٣) **الإيمان باليوم الآخر** وما سوف يكون فيه من بعث، وحشر، وحساب، وخلود فى حياة قادمة، إما فى الجنة أبداً أو فى النار أبداً، إلا ما شاء الله، وبحتمية ذلك دون أدنى شك أو ارتياب.

(٤) **الإيمان بالغيب** ومنه غيوب مطلقة لا سبيل للإنسان فى الوصول إليها إلا عن طريق وحى السماء، وتلك الغيوب المطلقة على المسلم أن يؤمن بها كما أنزلت دون الخوض فيها بإمكانات الإنسان المحدودة.

(٥) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، ولذلك يجازى الحسنة بعشر أمثالها ـ إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ـ ولا

يجازى السيئة إلا بمثلها ، ومن هنا كانت ضرورة المواظبة على التوبة وحسن الاستغفار ، واليقين بأن من عمل سوءًا بجهالة ممن يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ثم تاب من بعده وأصلح فإن الله غفور رحيم .

(٦) الإيمان بأن من أبشع صور الظلم الذى يوقعه الإنسان على نفسه أن يشرك بالله - تعالى - سواء كان هؤلاء الشركاء من الجن أو الإنس ، أو كانوا على هيئة الزوجة أو الولد - تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً - .

وأن المشركين سوف يُسْألون عن شركهم يوم القيامة ، فيتنصلون منه ويحاولون إنكاره . وأن افتراء الكذب على الله ، أو التكذيب بآياته ، أو الادّعاء كذبًا بتلقى الوحى ، أو تصور إمكانية تقليد شىء مما أنزل الله ، كل ذلك من صور ظلم الإنسان لنفسه .

(٧) الإيمان بأن كل من ينكر أن القرآن منزل بالحق من لدن رب العالمين ، وينكر نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ، فقد كفر .

(٨) الإيمان بأن اليهود قد حرفوا التوراة ، وأخفوا كثيراً من حقائقها وأضافوا إليها ما لم ينزله الله .

(٩) الإيمان بأن الظالمين تعنفهم الملائكة وهم فى سكرات الموت ، وتطلب منهم أن يخرجوا أنفسهم ، وتتوعدهم بما ينتظرهم من عذاب شديد ، وذلك بما كانوا يقولون على الله غير الحق ، وكانوا عن آياته يستكبرون ، وتذكرهم بأنهم عادوا إلى الله فرادى كما خلقهم أول مرة ، وتركوا من ورائهم ما كان الله - تعالى - قد وهبهم من متاع الحياة الدنيا ، كما تركوا شركاءهم الذين أشركوا بهم ، وانقطع اتصالهم بهم .

(١٠) الإيمان بأن كل العباد مطالبون بإسلام أنفسهم لرب العالمين ، وأن يقيموا الصلاة له وحده - سبحانه وتعالى - كركن أساسى من أركان الدين .

(١١) الإيمان بأن الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم لهم الأمن وهم مهتدون .

(١٢) الإيمان بأن النوم صورة مصغرة من الوفاة ، وأن اليقظة من النوم صورة مصغرة من البعث .

(١٣) الإيمان بأن الله - تعالى - سوف يفتح على الكافرين أبواب كل شىء فى آخر الزمان ثم يأخذهم بغتة فإذا هم مبلسون.

(١٤) الإيمان بالوعيد الإلهى الذى يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى - : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٧].

(١٥) الإيمان بأنه لا يجوز لمسلم البقاء فى مجلس يطعن فى القرآن الكريم أو يسخر منه.

ثانيا - من ركائز التشريع الإسلامى فى سورة الأنعام

(أ) الأمر بما يلى

(١) الإحسان إلى الوالدين.

(٢) التزام صراط الله المستقيم.

(٣) إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة - ومنها زكاة الزرع يوم حصاده -، وتقوى الله - تعالى - فى كل الأحوال.

(٤) وفاء الكيل والميزان بالقسط، واجتناب المحرمات.

(٥) الصدق فى القول، والإخلاص فى العمل، والوفاء بعهود الله.

(ب) تحريم ما يلى

(١) الشرك بالله.

(٢) قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق.

(٣) أكل مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده.

(٤) الاقتراب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

(٥) أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، وما أهل لغير الله به، والميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وغير ذلك من المحرمات، إلا من اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم.

ثالثا - من قصص الأنبياء فى سورة الأنعام

جاء ذكر عدد من الأنبياء والمرسلين الذين مَنَّ الله - تعالى - بهم لهداية البشرية قبل بعثة خاتمهم - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - ومنهم إبراهيم وحواره مع أبيه آزر (ءازر) وتأملاته فى السماء، إسحاق، يعقوب، نوح، داود، سليمان، أيوب، يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيى، عيسى، إلياس، إسماعيل، اليسع، يونس، ولوط - عليهم جميعًا من الله السلام -.

رابعًا - الآيات الكونية فى سورة الأنعام

(١) خلق السماوات والأرض بالحق، وجعل الظلمات والنور، مما يشير إلى أن الظلمة هى الأصل فى الكون.

(٢) خلق الإنسان من طين.

(٣) الإشارة إلى ما سكن فى الليل والنهار من المخلوقات.

(٤) الإشارة إلى إمكانية تصنيف الحيوانات.

(٥) توقع التقدم العلمى والتقنى المعاصر، وأنه سوف يكون وبالاً على الكافرين.

(٦) تشبيه النوم بالموت واليقظة من النوم بالبعث بعد الموت.

(٧) الإشارة إلى وسطية مكة المكرمة بالنسبة للسماوات والأرض.

(٨) الإشارة إلى أن الله - تعالى - هو فالق الحب والنوى لحظة الإنبات، وأنه - تعالى - هو الذى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى.

(٩) إثبات أن الله - تعالى - هو فالق الإصباح، جاعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا، وهى إشارة إلى دقة دورانهما، وإلى إمكانية استخدام ذلك فى التاريخ.

(١٠) الإشارة إلى أن الله - تعالى - هو الذى جعل لنا النجوم لنهتدى بها فى ظلمات البر والبحر.

(١١) التأكيد على أن الله - تعالى - أنشأ الناس من نفس واحدة فمستقر ومستودع.

(١٢) الإشارة إلى أن الله - تعالى - هو الذى أنزل من السماء ماء فأخرج به نبات كل شىء، فأخرج منه خضراً يخرج منه حبّا متراكبًا.

(١٣) الإشارة إلى خلق النخيل، وخلق طلعها وهو أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان، وخلق قنوانها، والقنوان هى العراجين - جمع قنو وهو العذق - وخلق جنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهًا، وغير متشابه وجعل بعض هذه الجنات معروشات وبعضها الآخر غير معروشات.

(١٤) التأكيد على حقيقة الخلق، وعلى أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء.

(١٥) الإشارة إلى تناقص كل من الضغط وتركيز الأكسچين مع الارتفاع مما يؤدى إلى ضيق الصدر وحرجه.

(١٦) التأكيد على أن بالكون غيوبًا مطلقة لا يعلمها إلا الله - تعالى -.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أركز هنا على النقطة الثانية عشرة فى القائمة السابقة، التى تتحدث عن إخراج الحب المتراكب من (الخضر) الذى يخلقه الله - تعالى - فى داخل معظم النباتات، الخضراء، وإبراز جوانب الإعجاز العلمى فى هذا النص القرآنى المعجز، الذى جاء فى الآية رقم (٩٩) من سورة الأنعام، وقبل الوصول إلى ذلك لا بد من الرجوع إلى أقوال عدد من المفسرين القدامى، والمعاصرين فى شرح دلالة تلك الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله - تعالى -: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا...﴾ [الأنعام: ٩٩].

* ذكر ابن جرير - رحمه الله - ما مختصره: «﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ يعنى: من الماء ﴿خَضِرًا﴾ هو الأخضر الرطب من الزرع ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ هو ما فى السنبل من الحب....».

* وذكر ابن كثير - رحمه الله - ما مختصره: «﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى بقدر، مباركًا ورزقًا للعباد وإحياءً وغياثا للخلائق، رحمة من الله بخلقه ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، كقوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أى زرعًا وشجرًا أخضر، ثم بعد ذلك

نخلق فيه الحب والثمر. ولهذا قال ـ تعالى ـ : ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ أي يركب بعضه بعضًا كالسنابل ونحوها».

* وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله صاحبيه ـ ما مختصره: «﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا﴾ فيه التفات عن الغيبة ﴿بِهِ﴾ بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ينبت ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي: النبات شيئًا ﴿خَضِرًا﴾ بمعنى: أخضر ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخضر ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ يركب بعضه بعضًا كسنابل الحنطة ونحوها...».

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم ـ ما نصه: «والماء كثيراً ما يذكر في القرآن في صدد ذكر الحياة والإنبات.. ودور الماء الظاهر في إنبات كل شيء دور واضح يعلمه البدائي والمتحضر، ويعرفه الجاهل والعالم. ولكن دور الماء في الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذي يخاطب به القرآن الناس عامة...... وكل نبت يبدأ أخضر، واللفظ ﴿خَضِرًا﴾ أرق ظلا، وأعمق ألفة من لفظ (أخضر)، هذا النبت الخضر ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ كالسنابل وأمثالها....».

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي أخرجنا نباتًا غضًا أخضر؛ وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة، وخضر بمعنى أخضر، اسم فاعل. يقال: خضر الزرع ـ من باب فرح ـ واخضر فهو خضر وأخضر ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ أي سنابل فيها الحب يركب بعضه بعضًا؛ كما في الحنطة والشعير وسائر الحبوب. يقال: ركبه ـ كسمعه ـ ركوبًا ومركبًا، علاه، كارتكبه....».

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه: «وهو الذي أنزل من السحاب ماء أخرج به نبات كل صنف، فأخرج من النبات شيئا غضا طريا، ونخرج منه حبا كثيرا بعضه فوق بعض....».

وجاء تعليق الخبراء بالهامش ليقول: «توضح هذه الآية الكريمة في النباتات كيفية خلق تلك الثمار وكيف نشأت ونمت في أطوارها المختلفة حتى وصلت إلى

طور نضجها الكامل بما تحويه من مركبات مختلفة من الزيوت، والبروتينات والمواد الكربوهيدراتية كالسكريات والنشويات، كل هذا يتكون فى وجود ضوء الشمس عن طريق المادة الخضراء (مادة اليخضور) التى توجد عادة فى المجموع الخضرى للنباتات، خاصة الأوراق، فهى المصنع الذى تتكون فيه تلك المركبات، ومنها توزع على باقى أجزاء النبات بما فيها البذور والثمار، علاوة على أن الآية الكريمة تقطع بأن ماء المطر هو المصدر الوحيد للماء العذب على الأرض، وأن طاقة الشمس هى مصدر طاقات الأحياء جميعًا، ولكن النباتات هى التى تستطيع اختزان طاقة الشمس بواسطة مادة اليخضور وتسلمها لكل من الإنسان والحيوان فى المواد الغذائية العضوية التى كوّنتها، وقد كشف العلم عن حقيقة باهرة تدل على وحدة الخالق، وهى أن مادة الهيموجلوبين اللازمة لتنفس الإنسان وتنفس كثير من أنواع الحيوان وثيقة الصلة بمادة اليخضور، فذرات الكربون والأيدروچين والأكسچين والنيتروچين تكتنف ذرة الحديد فى جزىء الهيموجلوبين، بينما هى بنفسها تكتنف ذرة المغنسيوم فى جزىء اليخضور، كما أنه قد اتضح من البحوث الطبية أن مادة اليخضور عندما يتمثلها جسم الإنسان تندمج فى خلاياه فتقويها وتساعدها فى القضاء على جراثيم الأمراض فتتيح لأنسجة الجسم فرصة الدفاع ومكافحة الأمراض. وفى آخر الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ..﴾ وفى هذه الإشارة سبق لعلم النبات الحديث فيما وصل إليه من الاعتماد فى دراسته على مشاهدة الشكل الخارجى لأعضائه كافة فى أدواره المختلفة».

* وجاء فى صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: « ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى أنزل من السحاب المطر فأخرج به كل ما ينبت من الحبوب والفاكهة والثمار والبقول والحشائش والشجر، ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أى أخرجنا من النبات شيئاً غضّا أخضر ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أى نخرج من الخضر حبّا متراكبًا بعضه فوق بعض كسنابل الحنطة والشعير، قال ابن عباس: يريد القمح والشعير والذرة والأرز».

أولاً: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾

لا يستطيع أحد التحكم فى إنزال قطرة واحدة من ماء السحاب على الرغم من فهمنا المحدود لميكانيكية حدوث ذلك، وما يتدخل فيه من عوامل منها تصريف الرياح وإمرارها على مصادر الماء، وتحميلها ببخاره حتى تتكون السحب بارتفاع هذه الرياح المحملة ببخار الماء إلى الأجزاء العليا من نطاق الرجع - نطاق التغيرات المناخية - حيث تلقحها الرياح بنويات التكثف من هباءات الغبار ودقائق الأملاح وبلورات الثلج وغيرها، ثم تثريها دورة الماء حول الأرض بالمزيد من بخار الماء المتصاعد من فوهات البراكين، ومن تبخير الماء من مسطحاته بفعل أشعة الشمس، ومن نتح النبات، وتنفس، وإفراز كل من الإنسان والحيوان، وبارتفاع بخار الماء فى نطاق الرجع يزداد تكثفه لتناقص الضغط وانخفاض درجة الحرارة فتتكون المزن - السحب الممطرة بإذن الله - بالمزيد من تكثف بخار الماء مما يؤدى إلى زيادة حجم وكتلة قطيرات الماء فى السحب المزنية حتى تسقط على هيئة زخات المطر أو حبات البرد أو بلورات الثلج.

وبتصريف من الله - تعالى - تقوم الرياح بدور مهم فى هذه العملية، كما تقوم كل من درجة رطوبة السحب، وحرارتها، وشدة اندفاعها، وكم نوى التكثف فيها - من هباءات الغبار، ودقائق الأملاح، وبلورات الثلج الدقيقة، وغيرها - بتعظيم ذلك الدور أو تقليله حتى تصل درجة تشبع الهواء ببخار الماء عند كل درجة حرارة وضغط إلى حد معين، فإن الهواء لا يستطيع حمل مزيد من هذا البخار فينزله بإذن الله - تعالى - مطراً بالقدر الذى يحدده الله، وفى المكان الذى يختاره بعلمه وحكمته.

ثانيا: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

شاءت إرادة الخالق - سبحانه وتعالى - أن تنتقل البذور عند نضجها بعيداً عن النبات الأم؛ وذلك لتحقيق الانتشار الأفقى من أجل توزيع النباتات والحيلولة دون تنافسها على مصادر حياتها من التربة، والماء، وضوء الشمس.

ويتم هذا التناثر إما بانفجار الثمرة أو انتقالها كاملة بواسطة الهواء أو الماء أو بواسطة الحيوانات التى تأكل الثمار، وتلفظ البذور مع روثها، أو تقوم بتخزينها فى أماكن تصلح لإنباتها، أو بتعلق تلك البذور بفراء تلك الحيوانات، وقد وهب الله - تعالى - بعض البذور وسائط تعين على تناثرها، مثل الأجنحة أو الأهداب أو القدرة على الطفو. وبذلك انتشرت بذور كل النباتات فى تربة الأرض، وعلى سطحها انتشاراً واسعًا، وعندما يُنزل الله - تعالى - الماء من السماء، ويصل هذا الماء إلى البذور المدفونة فى تربة الأرض، فإنها تبدأ بالإنبات وذلك بامتصاص الماء والانتفاخ الذى يؤدى إلى انشطار غلاف البذرة وانفتاحها لتفسح طريقًا سهلاً لأول جذر (الجذير)، وأول ساق (السويقة) للخروج منها، ويتجه الجذير إلى أسفل ليخترق التربة ويثبت نفسه فيها، بينما تتجه السويقة إلى أعلى مخترقة التربة لتظهر فوقها. ويطلق اسم الأوراق البذرية على أول أوراق تنمو على السويقة، وتمتاز هذه عن الأوراق الحقيقية التى تظهر بعد ذلك بشفافيتها، ويسمى هذا النبات باسم «البادرة» ويعيش على الطعام المخزون فى بذرته إلى حين ظهور أوراقه الحقيقية التى أعطاها الله - تعالى - القدرة على صنع الطعام لذلك النبات النامى بواسطة عملية التمثيل - التركيب أو البناء - الضوئى حتى ينمو ويزهر ويصبح جاهزاً لإعطاء الثمار والبذور. ويعرف الآن أكثر من ربع مليون نوع من أنواع النباتات المزهرة بالإضافة إلى أعداد كبيرة من النباتات اللازهرية أى التى لا تنتج أزهاراً.

ثالثا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً﴾

بمجرد ظهور الأوراق الحقيقية على النبتة الناشئة - البادرة - يزودها خالقها - سبحانه وتعالى - بصبغ أخضر يعرف باسم «اليخضور»، وهذا الصبغ أعطاه الله - تعالى - القدرة على امتصاص قدر من طاقة ضوء الشمس، وتحويله إلى طاقة كيميائية يستخدمها فى تخليق الكربوهيدرات من الماء الذى تمتصه جذور النبات مع العصارة الغذائية من التربة، وثانى أكسيد الكربون الذى تمتصه أوراق النبات من الجو، ويتصاعد الأكسجين، أما النباتات المائية خاصة المغمور منها فى الماء فتحصل على ثانى أكسيد الكربون من نسبته الذائبة فى الماء، ويصل ثانى أكسيد الكربون بعد ذلك إلى عضيات سيتوبلازمية دقيقة تعرف باسم «البلاستيدات الخضراء» على هذه

الصورة الذائبة فى الماء أو مندمجًا فى أملاح البيكربونات، ويطلق على هذه العملية أحيانًا اسم «التمثيل الكربونى» نظرًا لما تنطوى عليه من استعمال الكربون فى تصنيع المواد الكربوهيدراتية.

ويوجد ثمانية أنواع من مادة اليخضور، وهى مادة تشبه الهيموجلوبين من ناحية تركيبها الكيميائى ولكنها تختلف فى بنائها الجزيئى حول ذرة من المغنسيوم بدلاً من ذرة الحديد التى تتمركز فى قلب جزىء الهيموجلوبين.

وتوجد البلاستيدات الخضراء - جبيللات اليخضور - فى الخلايا العمودية على جدار أوراق النبات، وهذه البلاستيدات أعطاها الله - تعالى - القدرة على التحرك داخل الخلية بحرية كاملة لاصطياد أكبر قدر من أشعة الشمس حيثما اتجهت، وتقوم أوراق النبات بامتصاص ثانى أكسيد الكربون من الجو، وبالتقاط الماء الصاعد مع العصارة الغذائية من التربة بواسطة الجذور، والمرتفع بالخاصية الشعرية إلى قمة النبات، ويقوم الصبغ الأخضر - اليخضور - الموجود بداخل البلاستيدات بالتقاط الطاقة القادمة مع أشعة الشمس واستخدامها فى تحليل الماء إلى الأكسچين الذى ينطلق إلى الجو عبر ثغور ورقة النبات، والأيدروچين الذى يتحد مع الكربون المنزوع من جزيئات ثانى أكسيد الكربون لتكوين السكريات والنشويات وغيرهما من الكربوهيدرات. وتتم هذه العملية على مراحل عدة تؤدى المادة الخضراء دورًا مهمًا فيها، وتشترك عدة إنزيمات فى إتمامها ويستخدم معظم الكربوهيدرات الناتجة عن عملية التمثيل الضوئى كغذاء للنبات من أجل توفير الطاقة اللازمة لنموه، وما يزيد على حاجة النبات يتم حفظه داخل الخلايا على هيئة مواد نشوية وسكرية تستخدم بعد ذلك من أجل بناء الثمار والحبوب والبذور.

ويستمد النبات الطاقة التى يحتاجها فى نموه من غذائه بعملية معاكسة لعملية التمثيل الضوئى تعرف باسم «التنفس الداخلى» تتحد فيها الكربوهيدرات مع الأكسچين لإطلاق الطاقة وثانى أكسيد الكربون والماء على النحو التالى:

عملية التمثيل الضوئى:

ثانى أكسيد كربون + ماء + طاقة ← كربوهيدرات + أكسچين

عملية التنفس الداخلى:

كربوهيدرات + أكسچين ⟵ طاقة + ثانى أكسيد كربون + ماء

واعتماداً على وفرة ضوء الشمس أو ندرته يزيد معدل إتمام إحدى العمليتين على حساب الأخرى، ففى ضوء الشمس الساطع يتسارع معدل التمثيل الضوئى وينتج النبات من الكربوهيدرات والأكسچين أكثر مما يستهلكه فى عملية التنفس، وفى العتمة التامة يتسارع معدل التنفس الداخلى فيستهلك النبات ما ينتجه من الكربوهيدرات ليحرقه منتجًا الطاقة اللازمة لنموه بالإضافة إلى ثانى أكسيد الكربون والماء. وعند الغسق والفجر تتوازن العمليتان بمعنى أن عملية التمثيل الضوئى تنتج من الكربوهيدرات والأكسچين ما يكفى لعملية التنفس الداخلى فقط كما تنتج تلك العملية من الطاقة وثانى أكسيد الكربون والماء ما يكفى لإتمام عملية التمثيل الضوئى فقط، ولذلك تسمى هاتان النقطتان باسم «نقطتى التكافؤ».

رابعًا: ﴿خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾

تؤدى عملية إخصاب النباتات المزهرة إلى إنتاج البذور، والبذرة تحتوى على جنين لنبتة جديدة، ومخزون من الطعام يكفى بادرة هذه النبتة حتى تتمكن من إنتاج أوراق خضراء أعطاها الله ـ تعالى ـ القدرة على إنتاج الغذاء ذاتيّا لتلك النبتة، وهذه البذور قد تكون هى الثمرة أو قد تحفظ فى داخل الثمرة، وهذه الثمرة قد تتبعثر وتنتشر فى الأرض لإنتاج نبات جديد أو قد يقتنصها أى من الإنسان أو الحيوان فيعين على ذلك الانتشار.

والبذرة عادة ما تكون محمية بغلاف متين يعرف باسم «غلاف البذرة»، ويملك كل غلاف لبذرة من البذور (سرة) على سطحه تظهر الموضع الذى ارتبطت به البييضة بالمبيض، كما يمكن مشاهدة الفتحة الصغيرة التى دخلت عبرها حبة اللقاح إلى البييضة وتعرف باسم «النقرة»، وتمثل الممر الذى يسمح بمرور الماء إلى الجنين كى ينبت، وجنين البذرة يتكون كل من السويقة والجذير.

والحب هو ثمر جميع أنواع الحبوب من مثل القمح، والشعير، والشوفان، والذرة، والأرز وغيرها من النباتات ذوات الفلقة الواحدة والتى تنطوى فى عائلة

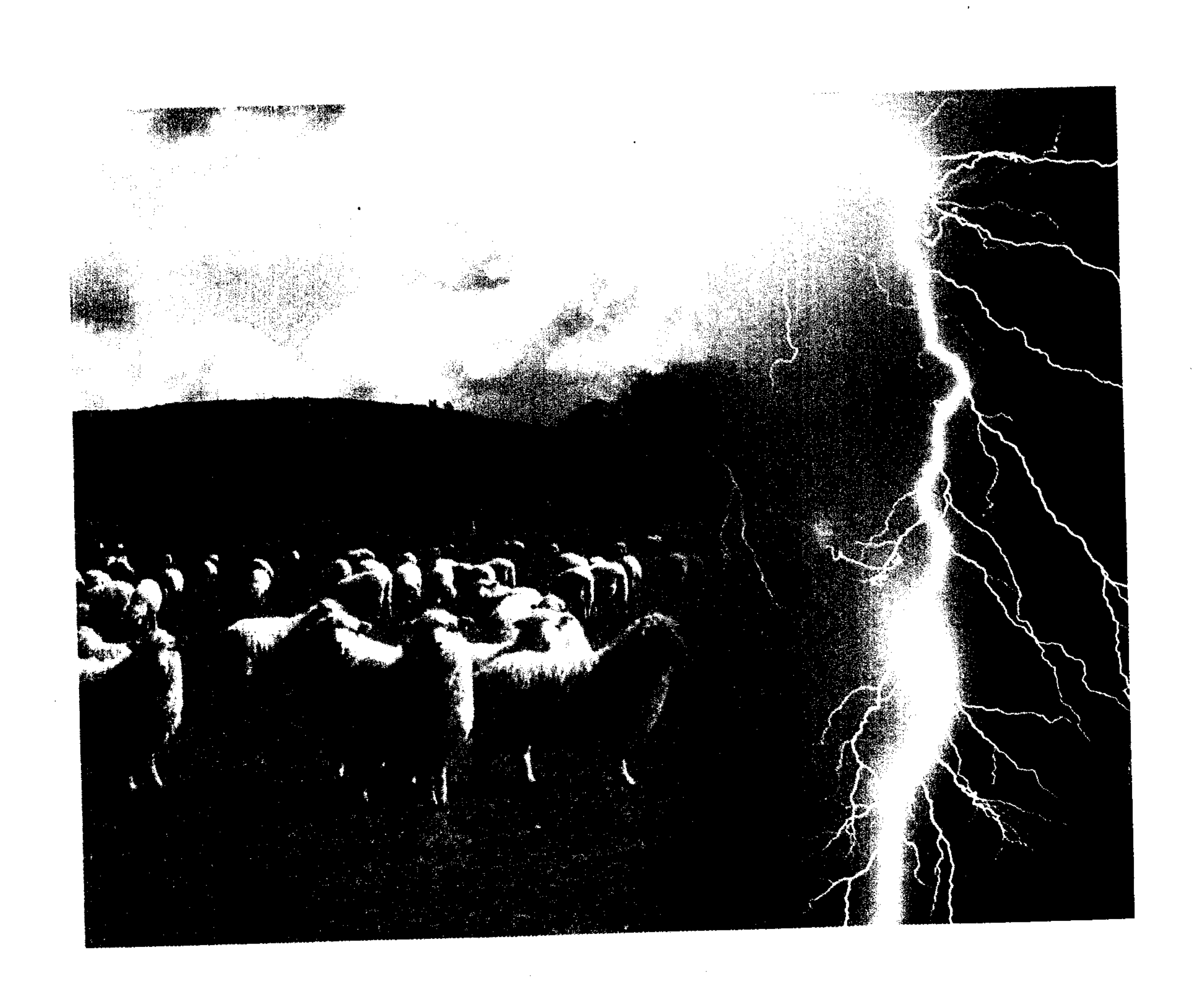
تعرف باسم «العائلة النجيلية» وهى من أكثر النباتات انتشارًا؛ لأنها تغطى مساحات من اليابسة أكثر من أية نباتات أخرى، وتشكل الغذاء الرئيسى لكل من الإنسان والحيوان آكل العشب، وتشمل نحو سبعة آلاف نوع من أنواع النباتات.

وهذه الحبوب تتكون أساسًا من الكربوهيدرات التى تبنيها الصبغة الخضراء فى داخل البلاستيدات الخضراء - جبيللات اليخضور - وهنا يندهش الإنسان لهذا النص القرآنى المعجز الذى أنزله ربنا - تبارك وتعالى - من قبل ألف وأربعمائة سنة ليقول فيه:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا...﴾ [الأنعام: ٩٩].

وارتباط الإنبات بإنزال الماء، وارتباط حياة النباتات الزهرية - وتمثل الغالب من النباتات - بتلك القدرة الذاتية التى أعطاها إياها الخالق - سبحانه وتعالى - على تصنيع غذائها بعملية التمثيل الضوئى، والتى تقوم بها تلك الصبغة الخضراء التى وضعها الله - سبحانه وتعالى - فى جبيللات اليخضور، وأن ما تنتجه تلك الجبيللات الخضراء من الكربوهيدرات يزيد على احتياج النبات فيخزن فى داخله حتى تنتج منه الحبوب المتراكبة، وهى حقائق لم يدركها العلم المكتسب إلا فى القرن العشرين، وورودها فى كتاب الله الذى أنزل من قبل أربعة عشر قرنًا بهذه الدقة والإحاطة والشمول لمما يجزم بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله، والمحفوظ بين دفتى المصحف الشريف، وفى صدور بلايين الحفاظ، وفى غير ذلك من مختلف وسائل الحفظ المتعددة بنفس لغة وحيه - العربية - فى صفائه الربانى، وإشراقاته النورانية، فالحمد لله الذى أنزل القرآن الكريم (أنزله بعلمه)، والصلاة والسلام على النبى الخاتم والرسول الخاتم الذى تلقاه فأبلغه بأمانة تامة، وحرص شديد فجزاه الله -تعالى- خير ما جزى به نبيًا عن أمته ورسولاً على حسن تبليغ رسالته، وآتاه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة التى وعده إياها، إن ربى لا يخلف الميعاد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾

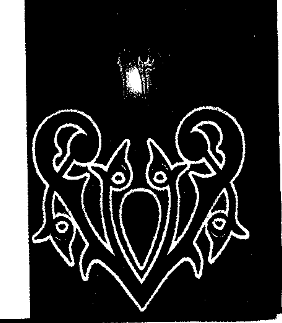
(النحل: ١٠)

هذه الآية الكريمة جاءت فى مقدمة سورة النحل، وهى سورة مكية، وعدد آياتها ثمان وعشرون ومائة بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى النحل. تلك الحشرة المباركة التى سميت بهذا الاسم؛ لأن الله ـ تعالى ـ قد نحل الشغالات من إناثها القدرة على إخراج شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، ومنه العسل، وغذاء ملكات النحل، وشمع النحل، وسم النحل، وصمغ النحل، وخبز النحل (حبوب الطلع المخلوطة بالعسل)، وقد ميزها ربنا ـ تبارك وتعالى- بهذه الصفة عن كثير غيرها من الحشرات التى يقدر عدد أنواعها بأكثر من ثلاثة أرباع المليون نوع، يمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد.

عرض موجز لسورة النحل

تبدأ سورة النحل بالتحذير من فجائية الآخرة ومن جريمة الشرك بالله، فيقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وفى الآية الكريمة تحدٍّ واضح للذين يستعجلون الآخرة إنكارا لها، ومنكرها كافر لأنها من المعلوم من الدين بالضرورة، وتثنى السورة



الكريمة بتسبيح الله وتنزيهه تعالى عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد؛ لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله - سبحانه وتعالى - منزه عن جميع صفات خلقه.

وتتتابع الآيات بتأكيد حقيقة الوحى الذى أنزله ربنا - تبارك وتعالى - على سلسلة طويلة ممن اصطفى من عباده الصالحين من الأنبياء والمرسلين لإعلان الخلق بتفرد الله - تعالى - بالألوهية، وتبليغهم بضرورة تقوى العباد له - سبحانه -، وإنذارهم من أخطار مخالفة ذلك.

واستعرضت سورة النحل العديد من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة، والشاهدة لله الخالق بالألوهية، والربوبية، والوحدانية فوق جميع خلقه، وبالعلم الشمولى، والحكمة البالغة.

وبعد ذلك تعرض الآيات فى سورة النحل لبعض مشاهد القيامة. وتنعى على الذين أشركوا ادّعاءهم الكاذب بأن ذلك هو قدر الله عليهم، وتؤكد أن ما على الرسل إلا البلاغ المبين، وقد بعث الله - تعالى - رسولاً فى كل أمة من الأمم يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده، وإلى اجتناب الطاغوت، فكان من هذه الأمم من هدى الله، وكان منهم من حقت عليه الضلالة. وتدعو الآيات عقلاء الأرض إلى السير فى جنباتها للاعتبار بعواقب المكذبين من الأمم السابقة.

وتخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فى شأن المكذبين بالبعث. وتؤكد أن المؤمنين الذين اضطروا إلى الهجرة من ديارهم فراراً من المظالم التى وقعت عليهم من جبابرة الأرض وعتاتها سوف يعوضهم الله - تعالى - فى الدنيا، وسوف يضاعف لهم الأجر فى الآخرة جزاء صبرهم على ما لقوه دفاعا عن دينهم، وفى سبيل التمسك بعقيدتهم.

وتؤكد السورة لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن الأنبياء والمرسلين الذين أرسلوا إلى الأمم من قبله كانوا رجالاً من الإنس اصطفاهم الله - تعالى - لتلقى الوحى كما تلقاه هو - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - ليبينوا للناس ما نزل إليهم، ولم يكونوا ملائكة، ولا آلهة، ولا أبناء آلهة كما ادّعى المبطلون، لأنه لا إله إلا إله واحد هو خالق الكون ومدبر أمره.

وتهدد الآيات الذين فعلوا السيئات بخسف الأرض بهم، أو بإتيان العذاب لهم من حيث لا يشعرون، أو وهم يتقلبون فى الأرض أو على تخوف منهم وهم حذرون حتى يتفكروا ويتدبروا أن الله رءوف رحيم.

وتجزم الآيات أن كل ما يتفيأ ظلاله من خلق الله يسجد لله وهم داخرون، وأن كل ما فى السماوات والأرض من ملائكة ودواب يسجد لله وهم لا يستكبرون:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠].

وتعاود الآيات النهى عن الشرك بالله، مؤكدة وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه، وأن على الخلق أن يرهبوا خالقهم، الذى له ما فى السماوات والأرض، وله الدين الدائم وحده، وأنه - سبحانه وتعالى - صاحب النعم على جميع خلقه، وهو كاشف الضر إذا مسهم وجأروا بالشكوى إليه، وإن كان فريق من الناس يعاود الشرك بالله بمجرد كشف الضر عنه، وهؤلاء تتهددهم الآيات بعذاب الآخرة.

وتعيب الآيات فى سورة النحل على المشركين الجرأة على الله - تعالى - فى وضع التشريعات بغير علم، مؤكدة أن الذى يفعل ذلك سوف يسأل عنه، كما تعيب نسبة البنات اختلاقًا إلى الله، وهو - سبحانه - المنزه عن ذلك، ونسبتهم ما يشتهون لأنفسهم وهم لا يملكون الحق فى ذلك. كما تنعى على أهل الجاهلية كراهيتهم لخلفة البنات إلى حد وأدهن أحياء، مؤكدة أن لله - تعالى - المثل الأعلى، وأن للكافرين مثل السوء وفى ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

وتشير الآيات إلى أن الله - تعالى- لو يؤاخذ الناس بظلمهم ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. ومن تطاولهم ينسب المشركون إلى الله - تعالى - ما يكرهون أن ينسب إليهم، ويتخيلون كذبًا أن لهم الحسنى فى الآخرة، وتجزم الآيات بأن مصيرهم إلى النار وأنهم إليها مُعَجَّلُون.

ثم توجه الآيات فى سورة النحل الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٦٣ - ٦٤] .

كذلك تنعى الآيات على الذين يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقًا من السماوات والأرض شيئًا ولا يستطيعون ، وتوصى بعدم ضرب الأمثال لله تعالى ؛ لأنه لا يشبهه شيء من خلقه ، والله يعلم فساد الذين ضربوا هذه الأمثال وهم لا يعلمون .

وتقارن الآيات بين روعة التوحيد وفلاح الموحدين من جهة وبين فساد الشرك والمشركين من جهة أخرى ، مؤكدة أن الغيب المطلق فى السماوات والأرض لا يعلمه إلا الله ، وأن من هذا الغيب أمر الساعة التى لا تأتى إلا بغتة ، وأن الله على كل شيء قدير .

ويتكرر توجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بقول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل : ٨٢] .

وتؤكد الآيات أن الكافرين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وتصف مواقفهم يوم القيامة ، والأنبياء يشهدون على أممهم ، بمن فيهم خاتمهم أجمعين الذى سوف يشهد على أمته ، وعلى الذين كذبوا نبوته ، وجحدوا رسالته فى زمانه ومن بعده إلى يوم الدين ، وفى ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل : ٨٩] .

وتؤكد الآيات فى سورة النحل أن كل إنسان مسئول عن عمله وأن الله - تعالى - يهدى من يشاء ممن أراد الهداية ويضل من يشاء ممن أراد الضلال فتقول : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٣] .

وتضيف الآيات فى سورة النحل أن الصلاح من مبررات الحياة الطيبة فى الدنيا، والأجر الحسن فى الآخرة فتقول: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النحل: ٩٧].

وتأمر الآيات بالاستعاذة بالله العظيم من الشيطان الرجيم قبل البدء بتلاوة القرآن الكريم الذى يقول عنه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله:

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢].

وتستنكر الآيات الادّعاء الكاذب الذى أشاع به عدد من الكفار والمشركين بأن ما أفاء الله ـ تعالى ـ به على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من هداية إنما يعلمه إياه بشر، وترد الآيات بأن لسان الذين يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين، مستنكرة عدم الإيمان بآيات الله، وافتراء الكذب عليه، أو الكفر به إلا لمن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، أما من شرحوا بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم، وأنهم فى الآخرة هم الخاسرون.

وفى المقابل يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠].

وضربت الآيات مثلاً بقرية.. ﴿ كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[النحل: ١١٢].

وتعرض الآيات فى أواخر سورة النحل للمحرمات من الطعام، مؤكدة أن التحليل والتحريم من سلطات الله ـ تعالى ـ وحده، ولا يتجرأ عليه إلا كاذب، وهؤلاء الذين يكذبون على الله لا يفلحون؛ لأن متاعهم فى الدنيا قليل ولهم فى الآخرة عذاب أليم. ومن هؤلاء الذين كذبوا على الله اليهود الذين خالفوا أوامره فحرم عليهم من الطعام ما حرم بسبب تماديهم فى الشر، وتجاوزهم لحدود الله، مع أن الله ـ تعالى ـ غفور رحيم، يعفو عن الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من بعد ذلك ويصلحون أعمالهم.

وتصف الآيات نبى الله إبراهيم ﷺ بأنه كان أمة قانتًا لله حنيفًا، ولم يك من المشركين، وأنه كان شاكرًا لأنعم الله فاجتباه الله وهداه إلى صراط مستقيم، وآتاه فى الدنيا حسنة وجعله فى الآخرة من الصالحين. وأوحى الله - تعالى - إلى رسوله الخاتم ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم حنيفًا تأكيدًا على وحدة الدين، وعلى الأخوة بين جميع الأنبياء والمرسلين.

وتؤكد الآيات أن تعظيم يوم السبت كان مفروضًا على اليهود، فخرج بعضهم عن أوامر الله، وأن الله - تعالى - سوف يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

وتختتم سورة النحل بأمر من الله - تعالى - إلى كل مسلم من خلال توجيه ذلك الأمر إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، والذى يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى - :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

[النحل ١٢٥ : ١٢٨].

من ركائز العقيدة فى سورة النحل

(١) الإيمان بالله الواحد الأحد، خالق كل شىء، ورب كل شىء ومليكه، الذى لا منازع له فى سلطانه، ولا شريك له فى ملكه، ولا شبيه له من خلقه، والمنزه عن الصاحبة والولد وعن كل وصف لا يليق بجلاله، وبأنه - تعالى - على كل شىء قدير، وأن أمره بكن فيكون، وأنه رءوف بعباده، ورحيم بهم، وأنه - سبحانه وتعالى - لا يحب المستكبرين، ويعلم ما نسر وما نعلن.

(٢) التصديق بحقيقة الوحى الذى أنزله ربنا - تبارك وتعالى - على فترة من الأنبياء والمرسلين، الذين اصطفاهم من بين خلقه، وبعثهم إلى مختلف الأمم، فى كل الأزمنة والعصور، ثم أكمل وحيه وأتمه وختمه فى بعثة خاتم أنبيائه ورسله سيدنا

محمد بن عبد الله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين ـ.

ونظرًا لتعرض أصول الرسالات السماوية السابقة كلها للضياع فقد تعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بحفظ وحيه الخاتم فحفظه على مدى أربعة عشر قرنًا أو يزيد بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ حفظًا كاملاً: كلمة كلمة وحرفًا حرفًا وآية آية، وسورة سورة بنفس ترتيبه فى بلايين المصاحف المتوفرة بين أيدى مسلمى اليوم. وسوف يبقى محفوظًا بحفظ الله ـ تعالى ـ إلى يوم الدين.

(٣) التسليم بأن مهمة كل نبى من أنبياء الله ـ سبحانه وتعالى ـ هى البلاغ عن الله، وترك حرية الاختيار كاملة للناس؛ ليلقوا جزاءهم فى الآخرة على أساس من هذا الاختيار.

(٤) الإيمان بحقيقة البعث وحتميته وبحقيقة الحساب والجزاء.

(٥) التصديق بأن الحاكمية لله ـ تعالى ـ وحده، ومن ثم فإن له وحده حق التحليل والتحريم.

(٦) التسليم بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد وهب للناس عقولاً تدرك، وإرادة حرة تختار وتوجه، وبيَّن لهم طريق الاستقامة الموصل إلى الخير، وطرق الانحراف الموصلة إلى الشر، وترك الخيار كاملاً لكل فرد.

(٧) الإيمان أن لله ما فى السماوات وما فى الأرض، وأن الدين له وحده دائمًا، وبأن كل شىء فى الوجود يسجد لله تعالى، وأن مختلف الأوثان التى اصطنعها المشركون من الحجر، والشجر، والنجوم، والكواكب وغيرها، كلها مخلوقة وعاجزة عن الخلق، وخاضعة لله بالعبادة.

من مكارم الأخلاق فى سورة النحل

(١) الدعوة إلى إقامة عدل الله فى الأرض، والإحسان إلى الخلق، والوفاء بالعهد، وإلى غير ذلك من ضوابط السلوك، وقواعد المعاملات المنطلقة من مخافة الله.

(٢) الدعوة إلى الإنفاق فى سبيل الله، وإلى إيتاء ذى القربى.

(٣) الدعوة إلى الهجرة فى سبيل الله.

(٤) التحذير من الوقوع فى الفتن، ومن أخطرها فتنة الكفر بعد الإيمان.

(٥) النهى عن الشرك بالله نهيًا قاطعًا، وعن الفحشاء والمنكر والبغى.

(٦) التذكير بنعم الله العديدة على العباد، ومنها اللجوء إليه ـ سبحانه وتعالى ـ فى كل شدة فيكشفها.

(٧) التذكير بأحوال الإنسان ابتداء من مراحل الجنين المتتابعة، إلى الشباب والفتوة، ثم الشيخوخة والهرَم، حتى الاحتضار والموت. ومقارنة ذلك بالانتقال من أحوال الشدة والبلاء إلىَ النعمة والرخاء والعكس.

من الآيات الكونية فى سورة النحل

حفلت سورة النحل بالعديد من الآيات الكونية التى يمكن إيجازها فيما يلى:

(١) الإشارة إلى خلق السماوات والأرض بالحق، وتأكيد أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شىء.

(٢) تأكيد خلق الإنسان من نطفة، وعلى الرغم من ذلك فهو كثيرا ما يقابل فضل خالقه بالجحود والنكران.

(٣) ذكر خلق الأنعام ـ الإبل، والبقر، والضأن، والماعز ـ وجعل العديد من المنافع فيها للإنسان.

(٤) خلق الخيل والبغال والحمير، وغير ذلك من وسائل الركوب التى لم تكن معروفة فى زمن الوحى، والله يخلق ما لا يعلمه الإنسان.

(٥) إنزال الماء من السماء للشراب، ولإنبات كل من الشجر والزروع، ومن أهمها: الزيتون، والنخيل، والأعناب، ومن كل الثمرات، وقد جعل ربنا فى ذلك آية للذين يتفكرون.

(٦) تسخير الأرض لعمارتها وذلك بتكويرها، وتدويرها حول محورها أمام الشمس ـ حتى يتبادل عليها الليل والنهار ـ وكذلك تسخير كل من الشمس والقمر والنجوم بأمر من الله ـ تعالى ـ لاستقامة الحياة فى هذا الكون.

(٧) نشر مختلف صور وألوان كل من الأحياء والجمادات فى كوكبنا (الأرض).

(٨) تسخير البحر للإنسان بما فيه من أحياء ذات لحم طرى، وهياكل تصلح لصناعة الحلى، وقدرة على حمل الفلك ذات الأحجام المختلفة التى تجرى بمصالح العباد شاقة عباب مائه، وما فوق الماء من هواء.

(٩) إلقاء الجبال على الأرض، وجعلها رواسى لها، كى لا تميد ولا تضطرب، وإلا ما كانت الأرض صالحة للعمران، وارتباط تكون الجبال بنبع الأنهار من قممها، ودور حركة الأنهار من منابعها إلى مصابها فى تفتيت الصخور، وتكوين التربة، وتركيز العديد من المعادن والصخور النافعة، والثروات الأرضية الأخرى، وفى تسوية سطح الأرض وشق الفجاج والسبل فيها.

(١٠) جعل تضاريس الأرض المختلفة علامات للاهتداء بها على اليابسة فى وضح النهار، وجعل النجوم علامات للاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر.

(١١) وصف عقاب بعض الأمم السابقة وصفًا ينطبق بدقة كبيرة على ما تحدثه الزلازل فى زماننا، من قبل أن يدرك أحد من الخلق ميكانيكية حدوث تلك الهزات الأرضية. وتأكيد أن الله - تعالى - قد خسف الأرض بالذين مكروا السيئات فى الماضى، وأنه - سبحانه - قادر على أن يخسفها بهم فى الحاضر والمستقبل، وفى ذلك تأكيد أن فهم الإنسان لميكانيكية حدوث مختلف صور الكوارث الأرضية لا يخرجها عن كونها جنداً من جند الله يسلطها على من يشاء من عباده عقابًا للعاصين، وابتلاء للصالحين، وعبرة للناجين.

(١٢) الإشارة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس بمد الظل وقبضه، واعتباره صورة من صور السجود التسخيرى لله - تعالى - فى خضوع وطاعة تامين.

(١٣) تأكيد الإعجاز فى خلق الأنعام، وفى تكوين اللبن فى ضروعها من بين فرث ودم، وخروجه لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين.

(١٤) جعل ثمار النخيل والأعناب مصدراً للرزق الحسن، وإن أساء بعض الناس استخدامها فى صناعة المسكرات.

(١٥) خلق حشرة النحل، ومنح الشغالات من إناثها القدرة على بناء بيوتها فى الجبال، وفى الأشجار، وفيما يعرش لها الناس بهذه الدقة الهندسية البديعة، وإعطاؤها خصوصية جمع الرحيق وحبوب اللقاح من مختلف الزهور عبر مسافات شاسعة الاتساع دون أن تضل عن بيوتها، وصناعة ذلك الشراب العجيب فى بطونها - وهو شراب وصفه القرآن الكريم بأنه مختلف الألوان، وبأن فيه شفاء للناس.

(١٦) خلق الأزواج من ذات النفس الواحدة، وخلق البنين والحفدة من الأزواج، فى دورة للحياة تنطبق على كل حى، ومن الأحياء الإنسان الذى قد يتوفى طفلاً، أو شابًا أو كهلاً، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر، ومن مظاهره فقدان الذاكرة جزئيًا أو كليًا.

(١٧) إخراج المواليد من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وأن الله - تعالى - قد جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون؛ والقرآن الكريم يقدم السمع على البصر دومًا، والعلم يثبت سبق حاسة السمع على حاسة البصر فى خلق الأجنة.

(١٨) الإشارة إلى أن الله - تعالى - هو الذى يمسك الطيور مسخرات فى جو السماء.

(١٩) الإشارة بلفظة الحر إلى كل من الحر والبرد؛ لأن كلاً من الحالين يمثل بدرجة حرارة إما إيجابًا وإما سلبًا.

(٢٠) تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به . . ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٥].

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك سوف أقصر حديثى هنا على النقطة الخامسة فقط من القائمة السابقة والتى جاءت فى الآية العاشرة من سورة النحل، وقبل البدء فى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح دلالة تلك الآية المباركة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ـ تعالى ـ :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل: ١٠].

* ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره: لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء ـ وهو العلو ـ مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم. فقال: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ أي جعله عذبًا زلالاً يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحًا أجاجًا، ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي وأخرج لكم منه شجرا ترعون فيه أنعامكم، كما قال ابن عباس: (تسيمون) أي ترعون ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي.

* وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره هنا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً.. ﴾ [النحل: ١٠].

في استهلال هذه الآية الكريمة بالضمير (هو) العائد على لفظ الجلالة (الله) تأكيد أن الله ـ تعالى ـ هو الذي ينزل ماء السماء، وأنه لا سلطان لمخلوق في هذا الأمر الحيوي أبدًا، الذي بدونه لاستحالت الحياة على الأرض.

وقد ثبت علميا أن أرضنا هي أغنى كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذي يغلفها بغلاف محيط يعرف باسم «الغلاف المائي للأرض» تقدر كميته بنحو ١,٤ بليون كيلومتر مكعب. ويغطي الماء نحو ٧١٪ من مساحة سطح الأرض المقدرة بنحو ٥١٠ مليون كيلومتر مربع، بينما يغطي الجليد نحو ٩٪ من مساحة سطح الأرض.

كذلك ثبت أن كل ماء الأرض قد أخرجه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أصلا من داخل الأرض عبر ثورات البراكين، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقيقة، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾

[النازعات: ٣٠-٣١].

وعندما بدأ بخار الماء الذى يكوّن أكثر من ٧٠٪ من الغازات والأبخرة المتصاعدة من فوهات البراكين فى الارتفاع إلى المستويات العليا من نطاق المناخ وجد أن الله ـ تعالى ـ قد هيأ له منطقة يتناقص فيها الضغط مما يؤدى إلى تمدده، وبالتالى إلى تبرده، بالإضافة إلى تناقص درجة الحرارة فى قمة هذا النطاق إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر فوق خط الاستواء.

وعند انخفاض درجة حرارة الهواء المحمل ببخار الماء وتناقص ضغطه فإن رطوبته النسبية ترتفع نظراً لانخفاض كثافته، وعندما تصل رطوبته النسبية إلى ١٠٠٪ فإن ضغطه يساوى ضغط بخار الماء، وتسمى درجة الحرارة تلك باسم درجة حرارة التشبع ببخار الماء أو نقطة الندى.

وانخفاض درجة حرارة الهواء المشبع ببخار الماء إلى نقطة الندى أو إلى ما دون ذلك لا يتم إلا بارتفاعه إلى مستويات عليا من نطاق الرجع، أو بالتقائه مع موجات هوائية باردة، أو بارتطامه بسلاسل جبلية مرتفعة، ويؤدى ذلك مباشرة إلى تكثف بخار الماء على هيئة قطيرات متناهية الضآلة فى الحجم لا يتعدى قطر الواحدة منها عشر الميكرون فتتكون بذلك السحب التى تتجمع عادة على ارتفاع يتراوح من ٢ إلى ٨ كيلومترات فوق مستوى سطح البحر، وإن أمكن تكونها خارج تلك الحدود.

ويتطلب سقوط هذه القطيرات المائية من السحب على هيئة مطر نموها إلى الحجم والكتلة اللذين يسمحان بشدها إلى الأرض بفعل الجاذبية، ولا يتأتى ذلك إلا بتلقيح السحاب ببعض هباءات الغبارأو الأملاح أو بتكون نويات من البرد أو بللورات من الثلج تعمل كنوى لمزيد من تكثف بخار الماء فى السحاب، وإلى نمو قطيرات الماء إلى الحجم والكتلة اللذين يعجز الهواء عن حملهما فتسقط مطراً، يتراوح متوسط حجم قطرات الماء فيه بين عشرى المليمتر ونصف المليمتر.

وبسقوط الماء على الأرض بدأت له دورة منضبطة حولها تعرف باسم «الدورة المائية»، وهى تتم بقدر من الإحكام والثبات يشهدان لله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق، فتبخر حرارة الشمس سنويا ٣٨٠

ألف كيلومتر مكعب من ماء الأرض الذى يصعد إلى الجزء السفلى من غلافها الغازى حيث يتكثف ويعود مطراً إلى الأرض(منها ٣٢٠ ألف كيلومتر مكعب يتبخر من أسطح البحار والمحيطات، و ٦٠ ألف كيلومتر مكعب يتبخر من (اليابسة)، ثم يعاود هذا الماء الرجوع إلى الأرض بتوزيع جديد فيسقط ٢٨٤ ألف كيلومتر مكعب على البحار والمحيطات ـ بنقص ٣٦ ألف كيلومتر مكعب عما تبخر منها ـ ويسقط ٩٦ ألف كيلومتر مكعب على اليابسة ـ بزيادة ٣٦ ألف كيلومتر مكعب عما تبخر منها ـ ، وهذه الزيادة تفيض مرة أخرى إلى البحار والمحيطات ليبقى منسوب الماء فيها ثابتًا فى الزمن الواحد .

وتوزيع الماء على سطح الأرض، ودورته المعجزة من حولها لعبا ـ ولا يزالان يلعبان ـ دوراً أساسيًا فى تهيئة الأرض لاستقبال الحياة، فلولا هذه المساحات المائية الشاسعة لارتفعت حرارة غلافها الغازى إلى أكثر من مائة درجة مئوية بالنهار، وإلى ما دون المائة درجة مئوية تحت الصفر بالليل .

وبدورة الماء حول الأرض شقت الفجاج والسبل، والأودية والجداول، ومجارى الأنهار، وتكونت التربة، وتركز العديد من الثروات الأرضية، وبعد ذلك فاضت إلى منخفضات الأرض مكونة البحيرات والبحار والمحيطات، كما تجمد جزء من هذا الماء على هيئة طبقات الجليد المتجمعة فوق قطبى الأرض، وفى القمم السامقة للجبال، وتسرب بعض هذا الماء عبر منكشفات الصخور المنفذة إلى ما تحت سطح الأرض على هيئة عدد من التجمعات المائية المختزنة فى صخور القشرة الأرضية، ويبقى بعض هذا الماء بالتربة أو بالغلاف الغازى للأرض، على هيئة قدر من الرطوبة، وكل ذلك من ضرورات الحياة. من ذلك يتضح بجلاء أن الذى أنزل ـ ولا يزال ينزل ـ الماء من السماء هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا سلطان لأحد فى ذلك إلا الله .

ثانيا ـ فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ... لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ... ﴾

يتعذر وجود ماء نقى تمامًا على سطح الأرض، غير أن ماء المطر والثلوج المتساقطة معه يعدان أنقى حالات الماء الطبيعى الذى ما أن يصل إلى سطح الأرض

حتى يبدأ فى إذابة العديد من أملاح صخورها القابلة للذوبان فى الماء، وعلى ذلك فلولا أن ماء المطر وثلوجه يجددان عذوبة ماء الأرض باستمرار ما وجد الإنسان قطرة ماء صالحة للشرب على سطح الأرض، ولذلك يمن علينا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله: ﴿ ... لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ... ﴾. كذلك فإن ماء الأرض يتطهر باستمرار مما يتجمع فيه من ملوثات على هيئة مواد ذائبة أو عالقة به خاصة وأن الأوساط المائية يعيش ويموت فيها بلايين الأفراد من صور الأحياء فى كل لحظة. وتمتد عملية التطهير المائى تلك بطول قطر دورة الماء حول الأرض من نحو الكيلومتر تحت سطح الأرض إلى ارتفاع يتراوح بين ٧ كم و١٧ كم فوق مستوى سطح البحر.

وللتأكيد على أهمية دورة الماء حول الأرض تكفى الإشارة إلى أن أغلب ماء الأرض موجود فى البحار والمحيطات وهو ماء مالح يمثل حوالى (٢٢, ٩٧٪) من مجموع ماء الأرض.

بينما يمثل الغطاء الجليدى لقطبى الأرض ولقمم الجبال حوالى (١٥, ٢٪) من مجموع ماء الأرض، ويمثل الماء المخزون فى صخور قشرة الأرض نحو (٦١٣, ٠٪) من مجموع ماء الأرض، والباقى وهو حوالى (٠١٧, ٠٪) يمثل مجموع الماء الجارى فى جميع أنهار الأرض وجداولها، والمخزون فى البحيرات الداخلية، والمحتبس فى رطوبة كل من تربة الأرض وغلافها الغازى.

ويقدر متوسط تركيز الأملاح فى ماء البحار والمحيطات بنحو ٤٨١, ٣٤ جزء فى المليون، تضم أربعين نوعًا من ذرات العناصر المشحونة بالكهرباء ـ المتأينة ـ التى يزيد تركيز كل منها على جزء واحد فى المليون، بالإضافة إلى آثار طفيفة جدًّا من أيونات العناصر الأخرى التى يقل تركيزها عن ذلك. ويتراوح تركيز تلك الأملاح السائدة فى ماء البحار والمحيطات بين ٣٢ ألف جزء فى المليون و ٤٢ ألف جزء فى المليون، وقد يزيد تركيز الأملاح على ذلك كثيرًا فى البحار المغلقة وشبه المغلقة، خاصة فى المناطق الجافة مثل منطقة المشرق العربى حيث تصل ملوحة ماء البحر الميت إلى نحو ٢٨٥ ألف جزء فى المليون.

والماء يعتبر عذبًا إذا كانت ملوحته لا تتعدى الألف جزء فى المليون، بينما ملوحة ماء المطر لا تكاد تتعدى العشرين جزءًا فى المليون، والماء يشكل العنصر الأساسى

فى بناء أجساد جميع الكائنات الحية، وأن جميع الأنشطة الحيوية وتفاعلاتها المتعددة لا تتم فى غيبة الماء.

ثالثا: فى قوله تعالى: ﴿ ... وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾:

من الثابت علميّا أن الماء سابق فى وجوده على الأرض لخلق جميع أحيائها، وأن النبات سابق فى وجوده لخلق الحيوان، وكلاهما سابق فى وجوده لخلق الإنسان. وأن النباتات الأرضية يرجع تاريخها على اليابسة إلى (٤٤٠ مليون) سنة مضت، بينما لا يتعدى عمر الإنسان الأول (آدم وحواء عليهما السلام) مائتى ألف سنة. وهذا التدرج فى الخلق كان لحكمة بالغة، أوضحنا جانبًا منها فيما سبق، ونضيف هنا: أنه بتقدير من الله ـ تعالى ـ قام النبات ـ ولا يزال قائمًا ـ بالدور الرئيسى فى إمداد الغلاف الغازى للأرض بالأكسچين، وفى تخليق الجزيئات العضوية اللازمة لبناء أجساد كل من النبات والحيوان والإنسان، ومن هنا كان اعتماد كل من الإنسان والحيوان فى غذائه أساسا على النبات. وهى حقائق لم تكن معروفة فى زمن الوحى ولا لقرون متطاولة من بعده مما يؤكد روعة الإشارة القرآنية فى قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ**﴾ [النحل: ١٠].

فسبحان منزل القرآن، أنزله بعلمه الشمولى الكامل على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وتعهد بحفظه فحفظه فى نفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ حفظًا كاملاً كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا على مدى أربعة عشر قرنًا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وبهذا الحفظ بقى القرآن الكريم بإشراقاته النورانية، وأنواره الربانية، وحقيقته الإلهية شاهداً بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، وشاهدا للنبى الخاتم الذى تلقاه بالنبوة والرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

***



بسم الله الرحمن الرحيم

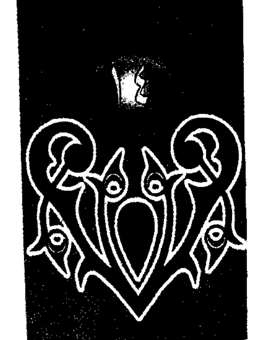
﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾

(طه:٦)

هذه الآية الكريمة جاءت فى مقدمات «سورة طه» وهى سورة مكية، وعدد آياتها خمس وثلاثون ومائة بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم تكريمًا لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ لأن «طه» اسم من أسمائه الشريفة بدليل توجيه الخطاب إليه مباشرة بعد هذا النداء، وإن اعتبره نفر من المفسرين من المقطعات الهجائية التى استهل بها عدد من سور القرآن الكريم.

والخطاب من الله ـ تعالى ـ إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فيه من التكريم، والتشريف ما فيه، خاصة أنه قد جاء تطييبًا لخاطره، وتسرية عنه، وتخفيفا لثقل ما كان يلقاه من كفار قريش ومشركيها من إنكار لنبوته، وتكذيب لرسالته، وصد لدعوته، وتجريح لشخصه الكريم وهو الذى اشتهر بينهم بالصادق الأمين.

والسورة من بدايتها إلى نهايتها خطاب موجه من الله ـ تعالى ـ إلى خاتم أنبيائه ورسله ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ وفى هذا الخطاب الإلهى تأكيد لنبوته، وتأييد لرسالته، وتهوين للأمر



عليه بحصر رسالته في البلاغ عن الله تعالى، والإنذار والتبشير، وترك الخيار للناس، استجاب من استجاب، وأبى من أبى لأن أمرهم بعد ذلك متروك لله - تعالى - وحده الذى قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

عرض موجز لسورة (طه)

يدور المحور الرئيسى للسورة حول عدد من ركائز العقيدة الإسلامية، وفى مقدمتها الإيمان بالله، وتوحيده - سبحانه وتعالى - وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله، والإيمان بملائكة الله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبحقيقة الوحى، ونبوة الأنبياء ورسالات المرسلين، وحتمية البعث والنشور، والحساب والجزاء بعد العرض الأكبر أمام الله تعالى، ولذلك أوردت السورة الكريمة بعض مشاهد القيامة، وأحداث يوم الحشر حتى يدخل أهل الجنة الجنةَ، ويدخل أهل النار النارَ.

كذلك عرضت السورة الكريمة لقصة موسى وهارون - عليهما السلام - بشىء من التفصيل، ومن ذلك موقفهما مع فرعون مصر، وما دار بينهما من حوارات وجدل انتهى بتحديه لهما بالسحرة، ثم هزيمتهم، وخضوعهم لأمر الله وإيمانهم به - سبحانه - وبما جاء به موسى ﷺ، وغير ذلك من تفاصيل لموقف المناجاة، والتكليف بالرسالة.

وتمتدح الآيات فى «سورة طه» القرآن الكريم الذى أنزله الله -تعالى- قرآنًا عربيًا، وصرف فيه من الوعيد لعل الخلق يتقون أو يحدث لهم القرآن عظة واعتبارا.

وفى عجالة عرضت هذه السورة الكريمة أيضا لقصة أبينا آدم ﷺ الذى غفر الله - سبحانه وتعالى - له خطيئته، وهداه إلى دينه الحق، كما هدى ذريته من بعده بإرسال الأنبياء والمرسلين إليهم مبشرين ومنذرين، وترك الخيار لهم ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وختمت «سورة طه» كما بدئت بخطاب إلى رسول الله وخاتم النبيين ﷺ أن يصبر على ما يقول الكفار والمشركون، وأن يسبح بحمد الله قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن آناء الليل وأطراف النهار، وأن يأمر أهله بالصلاة وأن يصطبر عليها، وأن ينفض يده من الكفار والمشركين بعد أن يخبرهم بقرار رب العالمين الذى يقول فيه: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ١٣٥]

والخطاب كما كان موجها إلى كفار ومشركى قريش، هو موجه إلى الكفار والمشركين، وإلى الظلمة المتجبرين على الخلق فى كل زمان وعصر إلى قيام الساعة، خاصة فى زمن الفتن الذى يعيشه أهل عصرنا فى هذه الأيام النحسات من تاريخ البشرية على هذه الأرض، وتجبر كل من العصابات الصهيونية الفاجرة على أرض فلسطين، وغطرسة الغزاة المجرمين من البريطانيين والأمريكيين وجرائمهم على أرض كل من العراق وأفغانستان قد جاوز كل الحدود، والقوانين، والأعراف، والمنطق والعقل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

من ركائز العقيدة فى «سورة طه»

(١) اليقين بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبدالله ﷺ الذى ذكرته السورة الكريمة باسم (طه)، وأنزلت باسمه الشريف لتكون تذكرة لمن يخشى.

(٢) الإيمان بأن الله تعالى هو خالق الأرض والسماوات العلى الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، وأنه - سبحانه وتعالى - هو الرحمن على العرش استوى - استواء يليق بجلاله - وأن من صفاته - جل جلاله - أنه لا يضل ولا ينسى، وأنه - سبحانه - يعلم السر وأخفى، وأنه وسع كل شىء علمًا، وأنه يعلم ما بين أيدى خلقه وما خلفهم، ولا يحيطون به علما، وأنه لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى.

(٣) التسليم بأن لله - سبحانه وتعالى - ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

(٤) التصديق بأن الله ـ تعالى ـ خلق أجساد الناس من الأرض، وفيها يعيدهم، ومنها يخرجهم تارة أخرى.

(٥) التسليم بأن عبادة الله ـ تعالى ـ بما أمر، وإقامة الصلاة لذكره هي من حقوق الله على خلقه، ومن هنا فلا يجوز التقصير فيها أبدا، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٧].

(٦) الإيمان بأن الساعة آتية لا محالة، يكاد الله ـ تعالى ـ أن يخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، وأن من لا يؤمن بها كافر هالك، وأن العذاب على من كذب وتولى، وأنه قد خاب من افترى من مثل افتراء كل من العصابات الصهيونية المجرمة على أرض فلسطين، وافتراء الغزاة الأنجلو/ أمريكيين على أراضي كل من العراق وأفغانستان.

(٧) اليقين بأن الجنة حق، وأن النار حق، وفي ذلك تقول السورة الكريمة: ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٤ ـ ٧٦].

(٨) التصديق بأن من يحلل عليه غضب الله فقد هوى، وأن الله ـ تعالى ـ يقول وهو أعز القائلين: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وأن الشيطان للإنسان عدو مبين، وأن السحر من الكبائر ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩]، وأنه من أبشع أنواع الظلم. . ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١].

(٩) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ هو الرزاق ذو القوة المتين.

(١) أن الله ـ تعالى ـ هو خالق الأرض والسماوات العلى، بمعنى أنها كلها مخلوقة، وليست أزلية ولا أبدية، بل لها بداية يحاول العلم التجريبى حسابها، وكل ماله بداية لا بد وأنه ستكون له فى يوم من الأيام نهاية ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ [طه : ٤]

(٢) الإشارة إلى مركزية الأرض من الكون، وإلى وجود حياة مزدهرة فى قطاع التربة، وذلك بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ [طه : ٦] وهى حقائق لم تكن معروفة لأحد من الخلق غير رسول الله ﷺ فى زمن الوحى، ولا لقرون متطاولة من بعده، وتظل مجهولة لغالبية الناس فى زمن تفجر المعارف العلمية الذى نعيشه اليوم؛ وبعضها من مثل مركزية الأرض من الكون لا يمكن للإنسان أن يكون له فيها قولاً مهما بلغ علمه.

(٣) الإشارة إلى ثلاث مراتب من التعبير وهى : **الجهر** الذى يعلمه صاحبه، ويعلمه من سمعه، ويعلمه الله ـ تعالى ـ **والسر** هو ما حدث الإنسان به غيره فى خفاء، والذى يعلمه صاحبه ومن أسر به إليه ويعلمه الله، ويجهله من لم يسمع به، **والأخفى** أى : هو الأخفى من السر، وقد يشير إلى الخواطر النفسية التى لا يحدث المرء بها غيره أو ما يعرف باسم «حديث النفس»، أو هو ما استقر فى العقل الباطن ولا يدرى به صاحبه ولكن الله ـ تعالى ـ يعلمه لأنه ـ سبحانه ـ علام الغيوب، وصدق الله العظيم القائل : ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه : ٧].

(٤) الإشارة إلى حقيقة الخلق وربوبية الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وإلى السنن الحاكمة لكل صغيرة وكبيرة فى هذا الكون وهى كلها من أمر الله وهدايته. ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠]

(٥) الإشارات إلى تمهيد الأرض، وشق السبل فيها، وإنزال الماء من السماء فى دورته حول الأرض، وإخراج أنواع النبات المختلفة فى زوجية واضحة، وهى سنة عممها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على جميع خلقه حتى يبقى متفرداً بالوحدانية المطلقة دون سواه ـ سبحانه وتعالى ـ ولذلك قال : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ

فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٣ ـ ٥٥].

وهذه الآيات تأمر الإنسان بالأكل مما خلق له الله ـ تعالى ـ من هذه النباتات، ويرعى أنعامه فيها، وبتأملها بنظرة العاقل البصير لأن فى كل منها آيات لأولى النُّهَى. وتؤكد الآيات خلق جميع المخلوقات من الأرض، ودفنهم فيها، وحتمية إخراجهم منها.

(٦) الإشارة إلى معجزة شق البحر لنبى الله موسى ﷺ ولمن آمن معه، والمعجزات حُجَجٌ على من شاهدها من الخلق، وهى خوارق للسنن، وبالتالى لا تستطيع العلوم المكتسبة تفسيرها، ولكن من رحمة الله بخلقه أن يترك لهم عدداً من الآثار الحسية المترتبة على وقوع بعض هذه المعجزات حتى يمكنهم التسليم بوقوعها، وياليتنا نهتم بتحقيق تلك الشواهد الحسية فى موقع عبور موسى من خليج السويس، إن كان قد بقى لها أثر، وبإبرازها للناس على هيئة رسالة دعوية مقنعة فى زمن العلم الذى نعيشه.

(٧) وصف مصير الجبال فى الآخرة وصفًا علميًا دقيقًا، وإن كنا نؤمن بأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا تماما، إلا أنه من رحمة الله بنا أن يبقى لنا من الشواهد الحسية فى صخور الأرض، وفى صفحة السماء ما يشير إلى إمكانية حدوث ما وصفه الله ـ تعالى ـ فى الآخرة، وفى وصف نهاية الجبال فى الآخرة يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى «سورة طه» ما نصه:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

ونحن نرى فى حياتنا الدنيا أن الجبال تتكون بعمليات الطى (العوج)[١] أو عمليات التصدع وما لها من صفات رفع سطح الأرض وخفضه (الأمت)[٢]، وقد

(١) العوج: الانخفاض أو التثنى والتموج.
(٢) الأمت: الارتفاع أو الاستقامة.

تشترك العمليتان فى تشكيل العديد من جبال الأرض اليوم، وهى حقائق لم تدرك إلا بعد تطور المعارف العلمية فى مجال علوم الأرض عبر القرنين الماضيين، وورودها فى كتاب أنزل من قبل أربعة عشر قرنا، على نبى أمى ﷺ، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لمما يجزم بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، الذى أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد - سبحانه وتعالى - بحفظه كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، فحفظ، فى نفس لغة وحيه - اللغة العربية - ولذلك بقى محتفظًا بجلال الربوبية الذى يتلألأ بين آياته وكلماته، وبعدد من صفاته التى تشهد بإعجازه ومن أوضحها الآيات الكونية فى هذا الكتاب العزيز.

وكل آية من هذه الآيات الكونية التى أنزلها ربنا - تبارك وتعالى - فى «سورة طه» تحتاج إلى معالجة خاصة، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على النقطة الثانية من القائمة السابقة، والتى جاءت فى الآية السادسة من «سورة طه»، وقبل البدء فى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله - تعالى - :

﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ** ﴾ [طه : ٦]

* ذكر ابن كثير - رحمه الله - ما مختصره : « . . . وقوله : ﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ** ﴾ أى الجميع ملكه وفى قبضته، وتحت تصرفه ومشيئته، وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه، وإلهه لا إله سواه، وقوله : ﴿ **وَمَا تَحْتَ الثَّرَى** ﴾ قال محمد بن كعب : أى ما تحت الأرض السابعة . . . ».

* وجاء فى تفسير الجلالين - رحم الله كاتبيه - ما نصه : « ﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ من المخلوقات ﴿ **وَمَا تَحْتَ الثَّرَى** ﴾ هو التراب الندى، والمراد الأرضون السبع لأنها تحته».

* وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما نصه : « . . ومع الهيمنة والاستعلاء، الملك والإحاطة : ﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ**

الثَّرَىٰ﴾ . . والمشاهد الكونية تستخدم فى التعبير لإبراز معنى الملك والإحاطة فى صورة يدركها التصور البشرى . والأمر أكبر من ذلك جدا . ولله ما فى الوجود كله وهو أكبر مما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . . » .

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن ـ رحم الله كاتبها ـ ما نصه : « ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ الثرى : التراب الندى . يقال : ثريت الأرض ـ كرضيت ـ ثرى فهى ثرية ، إذا نديت ولانت بعد الجدوبة واليبس ، والمراد : ما وراء الثرى وهو تخوم الأرض إلى نهايتها ، وخص بالذكر مع دخوله فى قوله : وما فى الأرض لزيادة التقرير » .

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيراً ـ ما نصه : «له ـ وحده ـ سبحانه ملك السماوات وما فيها والأرض وما عليها ، وملك ما بينهما ، وما اختبأ فى الأرض من معادن وخيرات» .

* وجاء فى صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خيراً ـ ما نصه : «له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، أى له سبحانه ما فى الوجود كله : السماوات السبع ، والأرضون وما بينهما من المخلوقات ، وما تحت التراب من معادن ومكنونات ، الكل ملكه وتحت تصرفه وقهره وسلطانه» .

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولا : ما فى السماوات

السماء لغة اسم مشتق من السمو بمعنى الارتفاع والعلو ، وعلى ذلك فإن سماء كل شىء أعلاه ، ولذلك قيل : كل ما علاك فأظلك فهو سماء ، والسماء الدنيا هى كل ما يقابل الأرض من الكون ، ويراد بها ذلك العالم العلوى من حولنا والذى يضم الأجرام السماوية المختلفة الموجودة على هيئات متعددة وما يوجد فيها أو حولها أو ينتج منها أو عنها من مختلف صور الطاقة التى تملأ فسحة الكون بصورة واضحة جلية ، أو مستترة خفية .

وقد خلق الله تعالى السماء ـ وهو خالق كل شىء ـ ورفعها بغير عمد نراها ، وجعل لها عمارا من الملائكة ، ومما لا نعلم من الخلق ، وحرسها من كل شيطان مارد ، فهى محفوظة بحفظه ـ تعالى ـ إلى أن يرث هذا الكون بما فيه ومن فيه .

أما من الناحية الفلكية فإن علماء الفلك يقدرون قطر الجزء المدرك من الكون المرئى بأكثر من أربعة وعشرين بليونًا من السنين الضوئية (٢٤ بليونا ×٥ ,٩ مليون مليون كم =٢٢٨ ألف مليون مليون مليون كم) وهذا كله جزء صغير مما نراه من السماء الدنيا، وهو دائم الاتساع بسرعات مذهلة إلى نهاية لا يعلمها إلا الله - سبحانه وتعالى - وذلك لقوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ (الملك : ٥) .

ولقوله - عز من قائل - :

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات : ٤٧) .

وهذا الجزء المدرك من الكون مبنى بدقة بالغة، وعلى نمط واحد، يبدأ بتجمعات عدد من الكواكب، والكويكبات، والأقمار والمذنبات، وغير ذلك من أجرام السماء حول نجم من النجوم التى تنتظم بملايين الملايين فى مجرات، وتنتظم المجرات فى مجموعات محلية، ثم فى الحشود المجرية، ثم فى تجمعات محلية للحشود المجرية، ثم فى حشود مجرية عظمى، ثم فى تجمعات محلية للحشود المجرية العظمى إلى ما هو أكبر من ذلك فى تصاعد مستمر إلى نهاية لا يعلمها إلا الله - سبحانه وتعالى - .

ويحصى العلماء فى الجزء المدرك من السماء الدنيا أكثر من مائتى ألف مليون مجرة، بعضها أكبر كثيرا من مجرتنا (مجرة الطريق اللبنى، درب اللبانة، أو سكة التبانة) والبعض الآخر أصغر قليلا منها. وبالمجرات أيضا السدم بمختلف أشكالها وأحجامها، والمادة الداكنة أو المادة الخفية .

وتنتشر المادة بين أجرام السماء على هيئة سحب دخانية يغلب على تركيبها غاز الأيدروچين المحمل بهباءات متناهية الدقة من بعض المواد الصلبة، وتتخلق النجوم من الدخان الكونى فى داخل السدم. وللنجوم مراحل حياة من الميلاد والطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة والاحتضار لتعود إلى دخان السماء، ومن مراحل النجوم ما يعرف باسم «النجوم الابتدائية» ومنها النجوم العادية، ومنها العماليق الضخمة. وعند انفجار النجوم العادية تتحول - حسب كتلتها - إلى العماليق الحمر أو العماليق الحمر العظام، وبعد ذلك تتحول العماليق الحمر إلى السدم الكوكبية والأقزام البيض، ثم إلى المستعر الأعظم من النوع الأول ويتحول العملاق الأحمر

الأعظم إلى المستعر الأعظم من النوع الثانى ثم إلى النجم النيوترونى أو إلى الثقب الأسود حسب الكتلة الابتدائية للنجم وظروف انفجاره.

وهناك أيضا أشباه النجوم (Quasars) وهى أجسام ضئيلة الكثافة جدا تنتشر على أطراف الجزء المدرك من السماء الدنيا وتصدر موجات راديوية عالية، وإن كان بعضها لا يصدر مثل تلك الموجات.

ولا يعرف أحد من أهل العلم إن كانت الأجرام السماوية فى الجزء المدرك من السماء الدنيا معمورة بخلق من خلق الله أم لا، ولكن الآية القرآنية الكريمة التاسعة والعشرين من سورة الشورى تشير إلى وجود خلق فى السماوات إنطلاقا من قول ربنا - تبارك وتعالى - :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩].

والعلوم المكتسبة لا تعرف إلا جزءًا يسيراً من السماء الدنيا، ولولا أن الله تعالى قد أخبرنا فى محكم كتابه أنه خلق سبع سماوات طباقا، ولولا أن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ قد مر بها فى ليلة الإسراء والمعراج، ما كان أمام الإنسان من وسيلة لإدراك ذلك، والسماوات السبع وما فيها ومن فيها ملك لله الخالق - سبحانه وتعالى - وحده.

ثانيا: وما فى الأرض

يقدر حجم الأرض بأكثر قليلاً من مليون مليون كيلومتر مكعب، ومتوسط كثافتها بحوالى ٥,٥٢ جم / سم ٣، وتقدر كتلتها بحوالى الستة آلاف مليون مليون مليون طن، وأرضنا مكونة من سبع أرضين متطابقة يغلف الخارج منها الداخل فيها على النحو التالى:

١ - **الأرض الأولى**: وتمثل بقشرة الأرض الصلبة التى نحيا عليها، ويتراوح سمكها بين حوالى ٥ - ٨ كيلومترات تحت المحيطات و٣٠ - ٤٠ كيلومترا فى القارات.

٢ - **الأرض الثانية**: وتمثل بما دون القشرة من الغلاف الصخرى للأرض ويتراوح سمكها بين ٦٠، ٧٠ كيلومترا تحت المحيطات، ٨٠ - ٩٠ كيلومترا تحت القارات.

٣ ــ **الأرض الثالثة**: وتمثل بالجزء العلوى من وشاح الأرض والذى يعرف باسم نطاق الضعف الأرضى، وتوجد فيه الصخور فى حالة لدنة، شبه منصهرة، عالية الكثافة واللزوجة، ويقدر سمكها بحوالى ٢٨٠ كيلومترا (من عمق ١٢٠ كم إلى عمق ٤٠٠ كم).

٤ ــ **الأرض الرابعة**: وتعرف باسم الجزء الأوسط من وشاح الأرض، وتوجد فيه الصخور فى حالة صلبة جامدة، ويقدر سمكها بحوالى ٢٧٠ كيلومترا (من عمق ٤٠٠ كم إلى عمق ٦٧٠).

٥ ــ **الأرض الخامسة**: وتعرف باسم الجزء السفلى من وشاح الأرض، وتوجد فيه الصخور فى حالة صلبة جامدة، ويقدر سمكها بحوالى ٢٢١٥ كيلومترا (من عمق ٦٧٠ كم إلى عمق ٢٨٨٥ كم تحت مستوى سطح البحر).

٦ ــ **الأرض السادسة**: وتعرف باسم لب الأرض السائل، ويتكون أساسا من الحديد (٩٠٪) والنيكل (٩٪) وقليل من العناصر الخفيفة (١٪) والكل فى حالة منصهرة، ويبلغ سمك الأرض السادسة حوالى (٢٢٧٠) كيلومترا (من عمق ٢٨٨٥ كم إلى عمق ٥١٥٥ كم تحت مستوى سطح البحر).

٧ ــ **الأرض السابعة**: وتعرف باسم لب الأرض الصلب وهو عبارة عن كرة مصمتة من الحديد (٩٠٪) والنيكل (٩٪) وبعض العناصر الخفيفة مثل الكبريت، والفوسفور، والكربون أو السليكون (١٪) ويبلغ نصف قطر هذه النواة حوالى (١٢١٦) كيلومترا (من عمق ٥١٥٥ كم إلى مركز الأرض على عمق ٦٣٧١ كم).

وعلى ذلك يقدر متوسط نصف قطر الأرض بحوالى ٦٣٧١ كيلومترا، ومتوسط محيطها بحوالى ٤٠٠٤٢ كيلومترا، ومساحة سطحها بحوالى ٥١٠ ملايين كيلومتر مربع.

ويقدر حجم الغلاف المائى للأرض بحوالى ٤ , ١ بليون كيلو متر مكعب، تغطى مساحة ٣٦٢ مليون كيلو متر مربع من مساحة سطح الأرض، تاركة ١٤٨ مليون كيلو متر مربع من اليابسة.

ويحيا على سطح الأرض اليوم أكثر من ستة مليارات نسمة من الآدميين يرجعون كلهم إلى أب واحد هو آدم عليه السلام، وأم واحدة هى حواء ـ عليها رضوان الله ـ.

ويعيش على سطح الأرض وفى أوساطها المائية أكثر من مليون ونصف المليون نوع من أنواع الحياة، بالإضافة إلى وجود سجل أحفورى لأكثر من ربع مليون نوع من أنواع الحياة المنقرضة، وبمعدل الاكتشافات السنوية لأنواع جديدة من الحياة المزدهرة اليوم، والمنقرضة، والتى تكتشف بقاياها فى صخور الأرض على هيئة الأحافير، يعتقد العلماء أن عدد أنواع الحياة على الأرض يصل إلى حوالى الخمسة ملايين نوع، مثل كل منها فى الماضى أو مثل اليوم ببلايين الأفراد.

ويقدر أقل عمر للأرض بحوالى الخمسة بلايين من السنين (٤,٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة)، بينما يقدر عمر الكون بنحو أربعة عشر بليونا من السنين، ويقدر متوسط عمر الإنسان على الأرض بما بين المائة ألف والمائتى ألف من السنين ومتوسط عمر الفرد من بنى الإنسان يقدر اليوم بحوالى الخمسين سنة تقريبا.

والأرض بها العديد من الثروات المعدنية من مختلف العناصر، والمركبات الكيميائية، ومصادر الطاقة المتعددة، ومصادر الماء، والثروات النباتية والحيوانية، وغير ذلك مما نعلم ومالا نعلم من خيرات الله، وينزل عليها سنويا ملايين الأطنان من العناصر والمركبات، والأشعات والطاقات. وهذا كله ملك لله تعالى وحده، وينزله من فضله، وكرمه، وجوده وإحسانه.

ثالثا: وما بينهما

فى عشرين آية قرآنية صريحة جاءت الإشارة إلى البينية الفاصلة للسماوات - على ضخامة أبعادها - عن الأرض - على ضآلة أبعادها بالنسبة إلى الجزء المدرك من السماء الدنيا -، وهذه البينية بالإضافة إلى شواهد عديدة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة، تشير إلى أن الأرض تقع فى مركز السماوات السبع التى تحيط بالأرض بهيئة كروية متطابقة يغلف الخارج منها الداخل، وأن أرضنا تضم كل الأرضين السبع فى هيئة كروية متطابقة كذلك يغلف الخارج منها الداخل، وأننا نحيا على الأرض الأولى من هذه الأرضين السبع.

أما ما بين السماوات والأرض فهو حيز مكانى / زمانى يفصل بين السماوات والأرض، وهذا الحيز ملىء بمختلف صور المادة والطاقة، ومسخر به السحاب بنص القرآن الكريم، ومسخرة به الملائكة، وربما غيرهم من خلق الله، وأن الأوامر

الإلهية المنزلة تتنزل عبر هذا الحيز الفاصل بين السماوات والأرض مما يؤكد مركزية الأرض بالنسبة إلى السموات السبع .

وتشير العلوم المكتسبة إلى أن خلق السماوات والأرض بعملية كالتى تصفها نظرية «الانفجار العظيم» ـ والتى يؤيدها القرآن الكريم ـ تشير إلى أن خلق كل من المكان والزمان، والمادة والطاقة قد تم فى وقت واحد، فلا يوجد ـ فى الجزء المدرك لنا من الكون مكان بلا زمان، ولا زمان بلا مكان، كما لا يوجد مكان وزمان بغير مادة وطاقة، وعلى ذلك فالمادة والطاقة منتشرتان بين كل أجرام السماء من مثل ما بين كل من الأرض والشمس، وما بينهما وبين بقية أفراد المجموعة الشمسية، ثم شاءت إرادة الله ـ تعالى ـ أن تدحى الأرض بثورة براكينها، فأخرج الله ـ سبحانه ـ من داخل الأرض كلاً من غلافيها المائى والغازى، والماء عاد بإرادة الله ـ تعالى ـ إلى الأرض ودار حولها فى دورة مذهلة، وغازات الأرض حين اندفعت من داخل الأرض اختلطت بمادة السماء لتكون نطاقًا متميزًا عن كل من الأرض والسماء وهو ما أطلق عليه القرآن الكريم وصف «ما بين السماء والأرض»؛ لأنه مغاير لكل منهما، وهذا النطاق يعرف اليوم باسم «نطاق الرجع ـ **The Troposphere**» وهو يمتد من سطح البحر إلى ارتفاع يختلف باختلاف النطق المناخية، ويتراوح بين ٦ كم و١٧ كم، ويتكدس فيه أكثر من ٦٦٪ من مادة الغلاف الغازى للأرض كله. وتتناقص فيه درجة الحرارة مع الارتفاع باستمرار حتى تصل عند نهايته إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر فوق خط الاستواء، ويعرف هذا المستوى باسم مستوى الركود الجوى (The Tropopause)، وذلك لتناقص الضغط الجوى فيه إلى حوالى عشر الضغط الجوى فوق مستوى سطح البحر .

ويتركب هذا النطاق الفاصل بين السماوات والأرض أساسا من جزيئات النيتروچين بنسبة ٧٨,١٪ بالحجم، والأكسچين بنسبة ٢١٪ -، والأرجون بنسبة ٠,٩٣٪، وثانى أكسيد الكربون بنسبة ٠,٠٣٪، وذلك بالإضافة إلى نسب ضئيلة من بخار الماء، وآثار طفيفة من كل من غازات الميثان والأيدروچين، وأول أكسيد الكربون، وأكاسيد النيتروچين، والهليوم، والأوزون، وبعض الغازات الخاملة مثل الأرجون. وهذا التركيب مغاير تماما لتركيب المادة بين الكواكب الأخرى والنجوم، ومغاير لتركيب الدخان الكونى الذى خلقت منه السماوات والأرض

ابتداء، ومن هنا كانت الإشارة إليه من المعجزات العلمية فى كتاب الله، وفى سنة رسوله ﷺ الذى يروى عنه قوله الشريف: «**سبحان الله عدد ما خلق فى السماء، سبحان الله عدد ما خلق فى الأرض، سبحان الله عدد ما خلق بينهما، سبحان الله عدد ما هو خالق**»(١)، وهذا النطاق الفاصل بين السماوات والأرض بكل ما فيه ومن فيه هو ملك كامل للذى فطر السماوات والأرض الذى لا ينازعه فى سلطانه أحد من خلقه، وليس له شريك فى ملكه، ولا شبيه له من عباده، ولا صاحبة، ولا ولد له.

رابعا: وما تحت الثرى

احتار المفسرون فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ فقال بعضهم: إن المقصود بذلك هو أن جميع الموجودات ملكه وخلقه، وتحت قهره وسلطانه، أى أن الله ـ تعالى ـ هو المالك لكل شىء من الخلق والعجائب.

و(الثرى) فى اللغة هو التراب الندى، ومن المعروف علميّا أن التربة الدبالية ـ أى المحتوية على الدبال وهو المادة السمراء التى تنشأ عن تحلل المواد العضوية نباتية كانت أم حيوانية ـ لها قدرة عالية على الاحتفاظ بالماء، وهى تربة غنية بمركبات معدنية عديدة مثل نترات وكبريتات العناصر، وهى جيدة التهوية، وتعطى ما بها من ماء بسهولة، ونتيجة لذلك فقد ثبت أن هذه التربة، وما تحتها من نطق قطاع التربة غنية جدا بالكائنات الحية التى تسكنها، ومن ذلك ما يلى:

(١) مجموعات من النباتات الدقيقة ومن البقايا الدقيقة للنباتات الكبيرة وذلك من مثل البكتيريا، والفطريات، والطحالب والأبواغ وحبوب اللقاح، وغيرها بمختلف أشكالها وهيئاتها، ومن البكتيريا مايعمل على تثبيت النيتروچين، أو الأيدروچين، أو ثانى أكسيد الكربون أو الكبريت، أو الحديد، أو المنجنيز أو غير ذلك من العناصر والمركبات التى تزيد من خصوبة التربة، ومنها ما يقوم بتكسير المواد الكربوهيدراتية، أو السليلوزية، أو البروتينية، أو الدهنية فى البقايا العضوية الموجودة بالتربة فتثريها بما يحتاجه النبات النامى فوقها من غذاء.

(٢) مجموعات من الحيوانات المتباينة الأحجام والصفات، منها الدقيقة مثل الأوليات ـ الطلائعيات ـ، والمتوسطة إلى الكبيرة مثل الديدان، والرخويات،

(١) [صحيح] أبو داود فى: الدعاء ب (٢)، وابن حبان (٢٣٣٠).

والحشرات ويرقاتها، والعناكب، وبعض القشريات، والفقاريات الصغيرة الحفارة، وغيرها.

وتقسم التربة عادة إلى ثلاثة نطق متميزة تعلو صخور الأرض التى استمدت منها بفعل عوامل التعرية المختلفة، وهذه النطق هى من أعلى إلى أسفل على النحو التالى:

(١) **المنطقة العليا (نطاق الثرى)**: وهى أكثر أجزاء التربة تعرية ورطوبة وقد تمتد من سطح الأرض إلى الركام الصخرى أو إلى الصخر غير المعرى ذاته. وتتجمع فيها بعض البقايا العضوية، ولكن حركة الماء فيها من أعلى إلى أسفل تنزع منها كثيرا من محتواها الغذائى للنبات، ويتراوح سمكها بين سنتيمترات قليلة إلى عشرات السنتيمترات.

(٢) **المنطقة الوسطى (نطاق ماتحت الثرى)**: وتمتد من قاعدة نطاق الثرى إلى عمق يصل إلى قرابة المتر، وهى منطقة متوسطة التعرية لكن حركة الماء إليها من المستويات التى تعلوها تثريها بالعديد من المركبات الكيميائية المهمة المنزوعة من منطقة الثرى ولذلك فهى أغنى قطاعات التربة فى الحياة.

(٣) **النطاق الصخرى**: وهو الذى استمد منه النطاقان العلويان مادتيهما بفعل عوامل التعرية بصورها المختلفة.

وازدهار الحياة فيما تحت الثرى من التربة، حقيقة لم تكن معروفة فى زمن تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعده، ووجود الإشارة إليها فى هذا الكتاب العزيز يشهد له بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبى الخاتم الذى تلقاه، وبأنه (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم) كان موصولاً بالوحى، ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿... كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

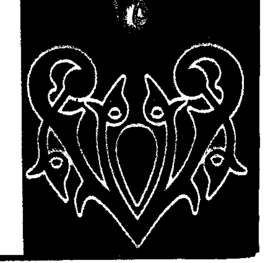
(البقرة: ٢٦٥)

هذا النص القرآنى المعجز جاء فى العشر الأخير من «سورة البقرة»، وهى سورة مدنية، وعدد آياتها ست وثمانون ومائتان بعد البسملة، وهى أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المعجزة التى أجراها ربنا - تبارك وتعالى - على يدى نبيه موسى - على نبينا وعليه من الله السلام - حين تعرض شخص من بنى إسرائيل فى زمانه للقتل، ولم يعرف قاتله، فأوحى الله - تعالى - إلى عبده موسى أن يأمر قومه بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله، ويخبرهم عن قاتله إحقاقا للحق، وشهادة لله تعالى بالقدرة على إحياء الموتى.

ومن مزايا هذه السورة المباركة أن رسول الله ﷺ قد أوصى بقراءتها فى البيوت فقال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة**» (أخرجه مسلم والترمذى)[١].

---

(١) مسلم فى «صحيحه» (٢١٢/ ٧٨٠)، والترمذى (٢٨٧٧).



وقال ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ أيضا: **«اقرأوا سورة البقرة،فإن أخذها بركة،وتركها حسرة،ولايستطيعها البطلة»** (رواه مسلم)[1].

ويدور المحور الرئيسى لسورة البقرة حول قضية التشريع الإسلامى فى العبادات والأخلاق والمعاملات، وإن لم تغفل ركائز العقيدة الإسلامية من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتنزيه الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله من نحو افتراض الشريك أو الشبيه أو المنازع أو الصاحبة أو الولد، وكلها من صفات المخلوقين ولا تليق بجلال الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ .

كذلك حددت السورة الكريمة صفات كل من المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، وسجلت قصة الخلق البشرى ممثلا فى أبوينا آدم وحواء ـ عليهما من الله السلام ـ وأشارت إلى عدد من أنبياء الله ورسله من مثل إبراهيم، وولده إسماعيل، وحفيده يعقوب، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى ابن مريم ـ على نبينا وعليهم من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ .

وتناولت سورة البقرة أهل الكتاب بإسهاب وصل إلى أكثر من ثلث السورة، وختمت بإقرار حقيقة الإيمان وبدعاء إلى الله ـ تعالى ـ يهز القلب والروح والعقل معا، ويمكن إيجاز أهم معطيات سورة البقرة فيما يلى:

أولا: من ركائز العقيدة الإسلامية فى سورة البقرة

(١) الإيمان بالقرآن الكريم، آخر الكتب السماوية التى أنزلها الله ـ تعالى ـ بالحق، وأتمها وأكملها، ولذلك تعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بحفظ رسالته الخاتمة فى ذات اللغة التى أوحيت بها ـ اللغة العربية ـ، وحفظها كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا على مدى أربعة عشر قرنا أو يزيد، وإلى قيام الساعة، تحقيقًا للوعد الإلهى الذى قطعه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على ذاته العلية فقال عز من قائل:

﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: ٩].

---

(١) مسلم فى «صحيحه» (٢٥٢/ ٨٠٤).

ونظرا لهذا الحفظ الدقيق للقرآن الكريم بصفائه الربانى، وإشراقاته النورانية، كان هذا الكتاب العزيز معجزا فى كل أمر من أموره، وبذلك تحدى الله ـ تعالى ـ به الجن والإنس متعاضدين أن يأتوا بسورة من مثله، ولا يزال هذا التحدى قائما دون أن يستطيع أحد من العقلاء أن يجابهه.

(٢) الإيمان بالغيب انطلاقا من الإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وانطلاقًا من الإيمان بملائكته، وبجميع كتبه ورسله، بغير تمييز، ولاتفريق، وباليوم الآخر الذى ترجع فيه كل الخلائق إلى الله خالقها ليجزى المحسن على إحسانه، والمسىء بإساءته، ثم الخلود فى الآخرة إما فى الجنة أبدا، أو فى النار أبدا.

(٣) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ منزه عن الشبيه، والشريك، والمنازع، والصاحبة والولد، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ هو خالق كل شىء، وأنه على كل شىء قدير، وأن من خلقه السماوات السبع والأرضين السبع، وأنه ـ تعالى ـ أحيا الخلق من العدم، وأنه سوف يميتهم فردًا فردًا، ثم يحييهم بعثًا واحدًا ليعودوا إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى يعلم غيب السماوات والأرض فيحاسبهم ويجازيهم وهو الرحمن الرحيم، وأنه تعالى شديد العقاب، وقد وصف ذاته العلية بقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(٤) الإيمان بوحدة الجنس البشرى، وبانتهاء نسبه إلى أبوينا: آدم وحواء ـ عليهما من الله السلام ـ، ومن هنا العمل على نبذ جميع أشكال العصبيات العرقية والدينية والاجتماعية.

(٥) الإيمان بأن الله ـ تعالى ـ قد علم آدم الأسماء كلها، وبذلك يكون الإنسان قد بدأ وجوده عالما عابدا، وليس جاهلاً كافرًا كما يدعى أصحاب الدراسات الوضعية فى علم الإنسان.

(٦) الإيمان بوحى السماء، وبوحدة جميع الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله تعالى بالإسلام الصافى، والتوحيد الخالص لله، وقد تكاملت رسالاتهم جميعا فى الرسالة الخاتمة التى بعث بها النبى الخاتم والرسول الخاتم ﷺ الذى بعثه الله - تعالى - بالحق بشيراً ونذيراً للخلق كافة.

(٧) الإيمان بأن الشرك من أبشع صور الكفر بالله، وأن من الكفر بالله أيضا منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، أو السعى فى خرابها.

(٨) الإيمان بأن الشيطان للإنسان عدو مبين، وأنه يأمر بالسوء والفحشاء، ويغرى العباد بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون، ومن هنا كانت مخالفته من الأمور الواجبة على كل مسلم ومسلمة، اعتصامًا بحبل الله المتين، ونجاة من وساوس هذا اللعين، وللتأكيد على ذلك عرضت السورة الكريمة لقصة الشيطان مع أبوينا آدم وحواء - عليهما السلام - حتى تم إخراجهما من الجنة بوسوسته وغوايته، ثم توبتهما، وقبول الله تلك التوبة، وأن ذنب هذه المعصية لايطول أحدا من ذريتهما أبدا لأن ذلك يتنافى مع العدل الإلهى المطلق الذى قرره ربنا - تبارك وتعالى - بقوله - عز من قائل - :

﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾

[النجم: ٣٨ - ٣٩].

(٩) الإيمان بأن الإسلام مبنى على السماحة واليسر وعلى رفع الحرج وأن من أصوله الثابتة أنه ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ... ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(١٠) الإيمان بحتمية الآخرة وبضرورتها، وبالحذر من فجائيتها وأهوالها، وفى ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]

ثانيا: من أسس العبادة فى سورة البقرة

(١) إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإنفاق فى سبيل الله، والإحسان إلى الخلق بصفة

عامة، واليقين بأن ذلك كله كان من متطلبات العبادة فى كل الشرائع السماوية السابقة وكلها كانت إسلامًا لله.

(٢) الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله، ردعًا للمعتدين والغاصبين والمتجبرين، فالقتال مشروع فى الإسلام لدفع الظالمين والغائرين على أراضى المسلمين، المعتدين على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ومقدساتهم ودينهم، وذلك صونا لكرامة الإنسان، وإقامة لعدل الله فى الأرض، وإعزازا للدين الذى لا يرتضى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من عباده دينا سواه.

(٣) الدعوة إلى أداء الحج والعمرة لمن استطاع إلى ذلك سبيلا، وقد وضحت سورة البقرة آداب هاتين الشعيرتين وضوابطهما الشرعية.

(٤) الالتزام بفريضة صوم رمضان، وآداب الصوم وضوابطه الشرعية.

(٥) الدعاء إلى الله ـ تعالى ـ وحده وأوقات ذلك المفضلة وآداب الدعاء.

(٦) مراعاة حرمة الأشهر الحرم وتوقيرها، وإقامة السنن التى شرعها لنا رسول الله ﷺ فيها.

(٧) التزام تقوى الله ـ تعالى ـ فى كل حال.

ثالثًا: من مكارم الأخلاق التى دعت إليها سورة البقرة

(١) الصبر فى البأساء والضراء وحين البأس.

(٢) الوفاء بالعهود والمواثيق.

(٣) الشجاعة والإقدام أملاً فى الاستشهاد فى سبيل الله.

(٤) الجرأة فى مناصرة الحق، وإعلان الرأى، وعدم كتمان الشهادة.

(٥) الجود والكرم والإنفاق فى سبيل الله.

(٦) الحرص على العمل الصالح، وقول المعروف، والعفو عن الناس.

(٧) إكرام الوالدين والإحسان إلى ذى القربى واليتامى والمساكين وإلى الناس كافة دون مَنٍّ أو أذى.

(٨) تجنب المال الحرام بكافة صوره وأشكاله، وفى مقدمته الربا.

رابعًا: من التشريعات الإسلامية فى سورة البقرة

(١) فصلت سورة البقرة أحكام الأسرة المسلمة من الخطبة إلى الزواج، والطلاق، والمتعة، والرضاعة، والعدة وغيرها، وأمرت باعتزال النساء فى المحيض، ونهت عن نكاح المشركات والمشركين حتى يؤمنوا.

(٢) عددت هذه السورة الكريمة المحرمات من الطعام من مثل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه، كما حرمت كلا من الخمر والميسر.

(٣) وشرعت للقصاص فى القتلى.

(٤) وحضت على كتابة الوصية قبل الموت، وحرمت وجرمت تبديلها أو إخفاءها.

(٥) وحرمت أكل أموال الناس بالباطل.

(٦) ووضعت ضوابط للتعامل بالدين.

(٧) وحرمت التعامل بالربا تحريمًا قاطعًا.

(٨) وحضت على رعاية اليتيم وحددت ضوابط الإنفاق فى سبيل الله.

(٩) وحرمت إنكار المعلوم من الدين بالضرورة.

خامسًا: من القصص القرآنى فى سورة البقرة

جاء فى سورة البقرة ذكر عدد من أنبياء الله ورسله، كما جاءت الإشارة إلى عدد من الأحداث للاعتبار بها وأخذ الدروس منها ونوجز ذلك فيما يلى:

(١) قصة أبوينا آدم وحواء - عليهما من الله السلام -.

(٢) قصة بنى إسرائيل مع فرعون مصر وخروجهم منها مع نبى الله موسى عليه السلام، وعبور موسى بهم البحر، وتفجير الأرض لهم بالماء الزلال، وعصيانهم من بعد ذلك كله، وارتدادهم إلى عبادة العجل، وصعقهم ثم إحياؤهم، ومسخ الذين اعتدوا منهم فى السبت إلى قردة وخنازير، ثم كفرهم بآيات الله، وقتلهم للأنبياء بغير حق، وتحريفهم للتوراة، وعصيانهم لأوامر

الله، واعتداؤهم على حدوده، ورفع الطور فوقهم تهديدا لهم وتخويفا، وقصتهم مع القتيل، وأمر الله لهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل ببعضها فيبعثه الله تعالى حتى يخبر عن قاتله ثم يموت، وقصتهم مع كل من طالوت ملكهم وجالوت وداود عليه السلام.

(٣) قصص بعض أنبياء بنى إسرائيل من أمثال كل من داود وسليمان - عليهما السلام -.

(٤) قصة نبى الله إبراهيم وولده إسماعيل - عليهما من الله السلام -، ورفعهما لقواعد الكعبة المشرفة، ودعوتهما إلى الله - تعالى - أن يبعث خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم فى مكة المكرمة، وحوار إبراهيم عليه السلام مع نمرود بن كنعان أول من ادّعى الربوبية كذبا وبهتانا.

(٥) قصة نبى الله يعقوب عليه السلام.

(٦) حادثة تحويل القبلة.

(٧) قصة نبى الله عيسى ابن مريم - عليهما السلام -.

(٨) قصة الرجل الصالح عزير الذى مر على بيت المقدس بعد أن خربها بختنصر ويرويها القرآن الكريم بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

سادسًا: من الإشارات الكونية فى سورة البقرة:

جاء فى هذه السورة المباركة عدد كبير من الإشارات الكونية نوجزها فيما يلى:

(١) التفرقة الدقيقة بين الضياء والنور وهما أمران متمايزان، والمقابلة بين الظلمات والنور، وهذه من الحقائق العلمية التى لم تدرك إلا مؤخرًا.

(٢) تقديم حاسة السمع على حاسة الإبصار، وقد ثبت علميًا سبق السمع فى مراحل خلق الإنسان.

(٣) وصف التلازم الدقيق بين هطول المطر الغزير وبين كل من الظلمات والرعد والبرق والصواعق.

(٤) الإشارة إلى إمكانية خطف البصر بواسطة البرق.

(٥) الإشارة إلى المراحل المتتالية فى إعداد الأرض لعمارتها بخلق الإنسان، ومن ذلك تمهيد سطحها، وبناء السماء من حولها، وإنزال الماء عليها، وإخراج الثمرات رزقًا للعباد، وإحياء الأرض بعد موتها وبث كل دابة فيها.

(٦) ذكر معجزات فلق البحر لنبى الله موسى ﷺ ونجاته ومن معه وهلاك فرعون وجنده، وكذلك تفجير اثنتى عشرة عينًا مائية بضربة من عصى موسى - على نبينا وعليه من الله السلام - وتلك العيون لا تزال موجودة حتى اليوم على طول صدع أرضى واحد بالمنطقة الشرقية من خليج السويس وتعرف باسم «عيون موسى».

(٧) الإشارة إلى أمراض القلوب ومنها الخوف، والوسوسة، والشك، وقد أثبتت الدراسات النفسية أنها حقائق علمية لم تكن معروفة وقت تنزل القرآن الكريم.

وتشبيه قسوة قلوب اليهود بأنها أشد من قسوة الحجارة؛ لأن من الحجارة ما يلين بتفجرها بالأنهار، أو بتشققها وخروج الماء منها، أو بهبوطها من خشية الله تعالى، وقسوة قلوب اليهود لا تلين أبدا.

(٨) الحديث عن المشرق الحقيقى والمغرب الحقيقى للأرض مما يشير إلى وسطيتها للكون، وهى مما لا يستطيع العلم الكسبى إدراكه.

(٩) الإشارة إلى خلق السماوات والأرض والعلم ينفى الادعاء الباطل بأزليتهما، والإشارة كذلك إلى اختلاف الليل والنهار تأكيدًا على دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وإلى الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس إشارة إلى ما فى ذلك من قدرة وحكمة، وبأن ذلك كله لله.

(١٠) الإشارة إلى تصريف الرياح، وإلى السحاب المسخر بين السماء والأرض وهى حقائق لم تدرك بشىء من التفصيل إلا فى العقود المتأخرة من القرن العشرين.

(١١) وصف الأهلة بأنها مواقيت للناس والحج.

(١٢) الإشارة إلى أذى المحيض، والنصيحة باعتزال النساء فيه وقد أثبتت الدراسات الطبية صحة ذلك.

(١٣) التأكيد على ما فى كل من الخمر والميسر من آثام تفوق أية منافع يمكن أن تجتنى من ورائهما.

(١٤) التأكيد على حقيقة أن الجنة ـ أى الحديقة ذات الأشجار الكثيفة الملتفة على بعضها البعض ـ بالربوة المرتفعة عن السهول المحيطة بها إذا أصابها وابل ـ أى مطر غزير ـ آتت أكلها ضعفين لأن احتمال إغراقها بماء المطر الغزير غير وارد لسرعة انحسار الماء عنها بعد أخذ كفايتها منه نظرا لارتفاعها فوق أعلى منسوب للسهول المحيطة بها. وفى حالة عدم هطول المطر الغزير فإن ـ الطل أى رذاذ المطر الخفيف أو الندى ـ يكفيها لرى نباتاتها وطيب ثمارها ووفرة عطائها. والمقصود بذلك أن الجنة بالربوة العالية تزكو وتزدهر وتثمر وتجود بعطائها سواء كثر المطر عليها أو قل. وقد وصفت سورة البقرة إنفاق الصالحين من عباد الله، الذين لايبغون من وراء إنفاقهم إلا مرضاة الله والثبات على الحق بأنه يزكو عند الله ويطيب ـ زاد قدره أم قل ـ تمامًا كما يزكو عطاء الجنة بالربوة العالية زاد المطر عليها أو قل.

وكل قضية من هذه القضايا العلمية تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فإنى سوف أقصر حديثى هنا على النقطة الأخيرة منها وهى المتعلقة بوصف الجنة بالربوة العالية، وقبل الدخول إلى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين فى تفسير تلك الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[البقرة : ٢٦٥].

* ذكر ابن كثير ـ يرحمه الله ـ ما مختصره : «وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم فى ذلك (**وتثبيتا من أنفسهم**) أى وهم متحققون ومتثبتون. أن الله سيجزيهم عن ذلك أوفر الجزاء.

قال الشعبى : ﴿**تَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ أى تصديقًا ويقينًا وقوله ـ تعالى ـ : ﴿**كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ**﴾ أى كمثل بستان بربوة، وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض، وزاد ابن عباس والضحاك : وتجرى فيه الأنهار وقوله تعالى : ﴿**أَصَابَهَا وَابِلٌ**﴾ وهو المطر الشديد. . . ﴿**فَآتَتْ أُكُلَهَا**﴾ أى ثمرتها ﴿**ضِعْفَيْنِ**﴾ أى بالنسبة إلى غيرها من الجنان، ﴿**فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ**﴾. قال الضحاك : هو الرذاذ وهو اللين من المطر، أى هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبدا لأنها إن لم يصبها وابل فطل، وأيّا ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبدًا بل يتقبله الله ويكثره وينميه، كل عامل بحسبه، ولهذا قال : ﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ أى لا يخفى عليه من أعمال عباده شىء».

* وجاء فى تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما مختصره : «(ومثل) نفقات ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ**﴾ طلب ﴿**مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ أى : تحقيقا للثواب عليه، بخلاف المنافقين الذين لا يرجونه، لإنكارهم له و﴿**مِّنْ**﴾ ابتدائية ﴿**كَمَثَلِ جَنَّةٍ**﴾ بستان ﴿**بِرَبْوَةٍ**﴾ بضم الراء وفتحها، مكان مرتفع مستو﴿**أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ**﴾ أعطت (أكلها) بضم الكاف وسكونها، أى : ثمرها ﴿**ضِعْفَيْنِ**﴾ مثلى ما يثمر غيرها ﴿**فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ**﴾ مطر خفيف، يصيبها ويكفيها لارتفاعها، المعنى :

تثمر وتزكو ، كثر المطر أم قل فكذلك نفقات من ذكر ، تزكو عند الله كثرت أم قلت ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم به» .

* وذكر صاحب صفوة البيان لمعانى القرآن ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه : «﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى كما أنفقوا أموالهم فى سبيل الله ابتغاء مرضاته أنفقوها توطينا لأنفسهم على حفظ هذه الطاعة وترك ما يفسدها ، فى ﴿مِّنْ﴾ بمعنى اللام ، أو تثبيتًا للإسلام وتصديقًا به ، وتحقيقًا للجزاء الموعود به من أصل أنفسهم ، فهى الدافعة له وهى المنشأ والمبتدأ . ﴿جَنَّةٍ﴾ تطلق على الأشجار الملتفة المتكاثفة ، وهى الأنسب هنا ، كما تطلق على الأرض المشتملة عليها . ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ بمكان من الأرض مرتفع عن السيل ، والعادة فى أشجار الربى أن تكون أحسن منظرًا وأزكى ثمرًا . ﴿أُكُلَهَا﴾ ثمرها . وكل مأكول : أكل . (فطل) فمطر خفيف يكفيها لطيبها وكرم منبتها . والطل : أضعف المطر وهو الرذاذ ، وجمعه طلال وطلل . والمراد : أن هذه الجنة تزكو وتثمر ، كثر المطر أو قل ، فكذلك نفقة هؤلاء ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم تزكو عند الله وتطيب ، كثرت أو قلت» .

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيرا ـ ما نصه : «حال الذين ينفقون أموالهم طلبًا لمرضاة الله وتثبيتًا لأنفسهم على الإيمان ، كحال صاحب بستان بأرض خصبة مرتفعة يفيده كثير الماء وقليله ، فإن أصابه مطر غزير أثمر مثلين ، وإن لم يصبه المطر الكثير بل القليل فإنه يكفى لإثماره لجودة الأرض وطيبها ، فهو مثمر فى الحالتين ـ فالمؤمنون المخلصون لا تبور أعمالهم ـ والله لا يخفى عليه شىء من أعمالكم» .

وجاء تعليق الخبراء فى الهامش بالنص التالى : «فى تعبير القرآن الكريم بكلمة ربوة وهى الأرض الخصبة المرتفعة إشارة إلى ما كشفه العلم الحديث ؛ لأنه بارتفاعها تبعد عن المياه الجوفية ليغوص المجموع الجذرى فى التربة من غير ماء يضره ، ويتضاعف عدد الشعيرات الماصة لأكبر كمية من الغذاء للسيقان والمجموع الخضرى فيتضاعف المحصول ، وللوابل من الأمطار فائدة فوق التغذية أنه يذيب بعض المواد التى لا تحتاج إليها النباتات ، ويغسلها من التربة لأن وجودها مما يعطل نمو النباتات ، كما يغسلها من الآفات» .

* وجاء فى كل من تفسير الطبرى والظلال ـ رحم الله كاتبيهما برحمته الواسعة ـ وصفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خيراً ـ كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره هنا.

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

من الأمور المشاهدة أن سطح الأرض ليس تام الاستواء، فهناك القمم السامقة للسلاسل الجبلية، وهناك السفوح الهابطة، لتلك السلاسل حتى تصل إلى السهول المنبسطة والممتدة إلى ما فوق مستوى سطح البحر بقليل.

وبين القمم السامقة والسهول المنبسطة نجد الروابى أو الربى ـ جمع ربوة أو رابية ـ، والتلال جمع تل، والآكام (جمع أكمة) وهى النتوءات الأرضية المختلفة دون الربوة، ثم الهضاب ـ جمع هضبة ـ أو النجود (جمع نجد)، ثم السهول ومن بعد السهول يأتى كل من المنخفضات الأرضية على اليابسة، والمنخفضات البحرية المغمورة بماء البحار والمحيطات. ويرجع السبب فى تباين تضاريس سطح الأرض إلى اختلاف التركيب الكيميائى والمعدنى للصخور المكونة لها، وبالتالى إلى اختلاف كثافة تلك الصخور؛ وذلك لأن كتل الغلاف الصخرى للأرض تطفو فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة، يعرف باسم «نطاق الضعف الأرضى» يحكمها فى ذلك قانون الطفو: تماما كما تطفو جبال الجليد فى ماء المحيطات.

ويصل ارتفاع أعلى نقطة على سطح الأرض ـ وهى قمة جبل إفرست فى سلسلة جبال الهمالايا ـ إلى ٨٨٤٨ متراً فوق مستوى سطح البحر، بينما يقدر منسوب أخفض نقطة على اليابسة ـ وهى حوض البحر الميت ـ بحوالى الأربعمائة متر تحت مستوى سطح البحر، ويقدر متوسط منسوب سطح اليابسة بحوالى ٨٤٠ مترا فوق مستوى سطح البحر.

وفى المقابل يصل أكثر أغوار المحيطات عمقًا ـ وهو غور ماريانا فى قاع المحيط الهادى بالقرب من جزر الفيليبين ـ إلى أكثر قليلا من (١١) كيلومتراً، بينما يصل متوسط أعماق المحيطات إلى حوالى الأربعة كيلو مترات (٣٧٢٩ متراً إلى ٤٥٠٠ متر) تحت مستوى سطح البحر.

وهذا التباين في المناسيب وفر عددا هائلا من البيئات التي يتناسب كل منها مع أنواع محددة من صور الحياة، ومن ذلك أن أشجار الفاكهة والكستناء وأشجار الثمار بصفة عامة تجود في المرتفعات التي لا تتعدى مناسيبها الألف متر فوق مستوى سطح البحر، بينما يتوقف نمو الحبوب ودرنات البطاطس عند حوالى الألفي متر فوق مستوى سطح البحر (٢١٦٠ مترًا تقريبًا)، ويصل الحد الأعلى لنمو الغابات إلى حوالى ٢٦٦٠ مترًا فوق مستوى سطح البحر.

وتحديد بيئة الروابي للجنة المضروب بها المثل في الآية الكريمة التي نحن بصددها تحديد معجز، لأن هذه البيئة هي أفضل البيئات المعروفة لنا لنمو كل من أشجار الفاكهة وأشجار الثمار الأخرى كالزيتون واللوزيات والصنوبريات وغيرها، وذلك لأن بيئة الروابي تتميز بلطف مناخها، ووفرة مائها، وزيادة فرص تعرضها لأشعة الشمس، ولأمطار السماء، ولرطوبة الجو، ولحركة الرياح، ولتجدد الهواء حولها، ولذلك فهي أنسب البيئات لنمو الأشجار بصفة عامة، ولنمو أشجار الثمار بصفة خاصة.

فالروابي من أشكال سطح الأرض المستوية والمرتفعة فوق مستوى سطح البحر ارتفاعا متوسطا يتراوح بين الثلاثمائة والستمائة متر. لأنها دون الجبل وفوق التل، وعلى ذلك فإن ماء المطر لا يغرقها مهما انهمر بغزارة لاندفاعه بالجاذبية إلى المستويات الأقل في منسوبها من الربوة في المنطقة المحيطة بها، وذلك بعد تشبع تربتها وصخورها بالقدر اللازم من الماء المرطب لها والذي يخزن بقدر فيها. وضبط هذا المخزون المائي يساعد النبات على القيام بجميع أنشطته الحيوية بكفاءة دون إغراق أو جفاف، وذلك لأن الجفاف يقضي على النبات، كما أن الإغراق بالماء، أو الزيادة في مخزون الصخور والتربة منه يؤدي إلى تعفن جذوره وتعطنها وتحللها مما ينتهي بالقضاء عليه.

وعند هطول المطر على الربوة فإن كلاً من تربتها وصخورها، والنباتات النامية عليها يأخذ كفايته من الماء، ويفيض الزائد عن تلك الكفاية إلى المناسيب الأخفض حتى يصل إلى الأودية والسهول المحيطة بالربوة. ويساعد انضباط كمية المخزون المائي في تربة وصخور الربوة على امتداد المجموع الجذري للنباتات بصفة

عامة، وللأشجار منها بصفة خاصة إلى أبعاد أعمق فى كل من التربة والصخور مما يضاعف من كمية العناصر والمركبات التى يتاح لجذور النبات الوصول إليها وامتصاصها مع عصارته الغذائية التى تستخلصها تلك الجذور من الأرض، كما يساعد على زيادة تثبيت النباتات بالأرض ومقاومتها لشدة هبوب الرياح، وغيرها من المتغيرات البيئية.

ومن مميزات بيئة الروابى أنها إذا نزلت بها الأمطار هاطلة تضاعف إنتاجها وإذا تضاءلت الرطوبة فى الجو من حولها إلى الرذاذ أو الندى فقط فإنها تعطى ثمارها وافرة، لأن نباتات الربوة يمكنها الاستفادة بماء المطر مهما قل وبماء الندى الذى يتكثف من حولها بمعدلات أعلى من تكثفه فى السهول أو فى بطون الأودية المغلقة خاصة فى المناطق الجافة.

وعلى ذلك فإن إثمار كل من أشجار الفاكهة، وغيرها من أشجار الثمار الأخرى كالزيتون واللوزيات والصنوبريات يجود بشكل ملحوظ فى الروابى المرتفعة فوق مستوى سطح البحر عنها فى السهول المنبسطة والأودية المغلقة، وذلك لأنها إذا أصابها المطر الغزير أفادها ولم يضرها لسرعة انحسار مائه عنها بعد ريها ريا كافيا فتتحسن وتثمر ثمراً مضاعفًا، وإن لم يصبها هذا الوابل من المطر الغزير فإن الرذاذ الخفيف أو الندى المتكثف حولها يمكن أن يوفيها حاجتها من الماء فتستمر فى الحياة وتؤتى أكلها بإذن الله.

هذا وقد شبهت الآية الكريمة المؤمنين الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله، ابتغاء مرضاته، وابتغاء التثبيت من أنفسهم - مهما تكن إمكاناتهم المادية - بالجنة من الأشجار المثمرة النامية على الربوة المرتفعة تحت ظروف بيئية طيبة وفرت لها كل أسباب النماء والعطاء فأثمرت وأعطت بسخاء شديد إذا نزل عليها ماء المطر، وبسخاء أيضا إذا قل عليها المطر، فعطاؤها لايتوقف ولا ينقطع تحت مختلف الظروف وكذلك المؤمنون الذين ينطلقون من منطلق الإيمان الجازم بأن الله - تعالى - هو الرزاق ذو القوة المتين فيبذلون فى سبيله سواء كثرت إمكاناتهم أو

قلت، وذلك طلبا لمرضاته، وتثبيتا من أنفسهم لأن من وسائل تربية النفس الإنسانية إخراج المال فى سبيل الله، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥]

وفى هذه الآية الكريمة إشارة واضحة إلى تفضيل زراعة أشجار الثمار فى أراضى الروابى بصفة عامة، وهى أراض مسطحة مرتفعة، دون الجبل، وفوق التل ـ يتراوح ارتفاعها بين ثلاثمائة وستمائة من الأمتار فوق مستوى سطح البحر ـ، وهذه حقيقة علمية أثبتتها التجارب على مدى عقود متتالية، وورودها فى كتاب الله الذى أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبى أمى ﷺ فى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وكانت تعيش فى صحراء جرداء قاحلة، لا تعرف الجنات ولا تعرف الأشجار المثمرة غير نخيل التمر وبعض الأعناب إلا فى أماكن محدودة جدا منها، ومن هنا يأتى هذا الوصف القرآنى شاهداً للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ .

ولكونه الرسالة الخاتمة فقد تعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بحفظه بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ فحفظه كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، من أية زيادة أو نقص، أو تبديل أو تغيير على مدى يزيد على الأربعة عشر قرنا وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها وذلك تحقيقًا للوعد الإلهى الذى قال تعالى فيه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، والحمد لله فى الآخرة والأولى والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

***

الخاتمة

جاءت الإشارة إلى النبات فى أكثر من مائة موضع من القرآن الكريم، وقد ناقشنا فى هذا الكتاب عشراً من الآيات أو النصوص القرآنية الكريمة التى أشارت إلى النبات، وأوضحنا ما فيها من سبق بالإشارة إلى العديد من حقائق عالم النبات، ويمكن إيجاز ذلك فيما يلى :

(١) فى قول ربنا - تبارك وتعالى - :

﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج : ٥]

وفى هذا النص القرآنى إشارة إلى تكوين التربة أساساً من المعادن الصلصالية ذات القابلية العالية لامتصاص الماء والتميؤ به، مما يؤدى إلى زيادة حجمها واهتزازها وانتفاضها بمجرد نزول الماء عليها. كما يشير إلى الغازات الموجودة بين رقائق معادن الصلصال، والتى يطردها الماء بمجرد وصوله إلى المسافات الفاصلة بين تلك الرقائق، ويعين الماء على انتعاش صور الحياة فى التربة، وعلى التفاعلات الكيمائية وعلى التنافر بقطبية مع الشحنات المشابهة، كما يشير إلى دقة حجم حبيبات المعادن الصلصالية مما يحولها إلى الحالة الغروية بمجرد وصول الماء إليها، وهى حالة تتدافع فيها جسيمات المادة بقوة وبأقدار غير متساوية فى كل الاتجاهات فى حركة دائبة تعين على اهتزاز التربة وانتقاضها بشدة إلى أعلى.

وهذه الحقائق لم تدركها العلوم المكتسبة إلا فى القرن العشرين.

(٢) فى قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ [الأنعام : ٩٥].

إشارة إلى أن للبذور النباتية اسمين متمايزين : الحب والنوى، والأولى تشمل البذور المستخدمة كمحاصيل غذائية أساسية للإنسان مثل القمح، والشعير، والذرة،

والشوفان، وهى من البذور ذات الفلقة الواحدة، أو ذات الفلقتين فتسمى بالبذور مثل الفول، الحمص، البازلاء، العدس، الترمس، وغيرها. أما البذور التى لها قدر من الصلابة فيطلق عليها اسم «النوى».

ويغلف البذور بما فيها من جنين ومواد غذائية مكتنزة عدد من الأغلفة اللازمة لحمايتها من المؤثرات الخارجية، وهناك شروط داخلية وخارجية لإنبات البذور منها وفرة الماء، وشق التربة نتيجة لانتفاخ البذرة بالماء (بقوة الإنبات) وبدء نمو الجنين وبدء الزيادة فى حجمه، وهى عملية معقدة للغاية لا يقوى عليها أحد من الخلق، ولا يمكن لها أن تتم بغير توجيه وهداية ربانية: وهى حقائق لم تدرك إلا فى القرنين الماضيين.

(٣) وفى قوله ـ تعالى ـ: **﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾** [الروم: ١٩].

إن خلق الأحياء من تراب الأرض ومائها لهو من أجمل صور إخراج الحى من الميت، وكذلك قدرة الكائنات الحية على تحويل عناصر الأرض وجزيئات الماء والهواء إلى خلايا حية ـ وكلها مواد ميتة ـ وهى صورة من تلك الصور، وعلى الجانب الآخر فإن عدد الخلايا التى تموت من جسم الإنسان فى كل ثانية يقدر بحوالى ١٢٥ مليون خلية فى المتوسط، وهى صورة من صور إخراج الميت من الحى.

وهذه حقائق لم تدركها العلوم المكتسبة إلا فى أواخر القرن العشرين.

(٤) فى قوله ـ عز من قائل ـ: **﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾** [الرعد ٤].

عدد من الحقائق العلمية منها:

ـ تكوّن الغلاف الصخرى للأرض من عدد من الألواح المتجاورة.

ـ تكون كل واحد من ألواح الغلاف الصخرى للأرض من الأنواع الثلاثة الرئيسية للصخور.

- تباين أنواع التربة الناتجة من تحلل تلك الأنواع المختلفة من الصخور.

- تباين صور الحياة بتباين البيئات.

- تباين الشفرات الوراثية من نبات إلى آخر.

- أن لثمرة العنب من الميزات الصحية ما لا يتوفر لغيرها من الثمار.

- ميزة النخيل وميزة ثماره على غيره من النباتات وثمارها.

(٥) فى قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

- إشارة إلى أن الماء المخزون تحت سطح الأرض كله من ماء المطر.

- إخراج الزروع مختلفة الألوان من الأرض بمجرد نزول المطر عليها.

- سيادة الاصباغ الخضراء فى بدء حياة النبتة، ثم الصفراء الشبيهة بأصباغ الجزر عند تمام نضجها. ثم تجف النبتة وتفقد ماءها وتبدأ فى التحلل، وتبدأ عوامل التعرية فى تفتيتها.

وهذه الحقائق لم تصل إليها العلوم المكتسبة إلا فى القرن العشرين.

(٦) فى قوله - تعالى -:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾

إشارة إلى اختلاف ألوان الثمار، بمعنى اختلاف أصباغها، وإلى فوائد ذلك لكلّ من النبات ذاته وللإنسان آكل تلك الثمار.

(٧) فى قوله - تعالى -:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا...﴾ [الأنعام: ٩٩].

إشارة إلى دور النبات الأخضر فى عمليات التمثيل الضوئى، والتى يوظفها فى صناعة سلسلة الكربوهيدرات المكونة لأغلب الثمار ولأجزاء النبات المختلفة.

(٨) فى قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

إشارة إلى دورة الماء حول الأرض وهى دورة يطهر بها ماء الأرض الذى يعيش ويموت فيه مئات البلايين من الكائنات الحية فى كل لحظة، ولولا هذه الدورة المحكمة لفسد ماء الأرض وأسن، وما كان صالحًا لشرب الإنسان والحيوان ولا لسقيا النبات، وماء المطر النازل من السماء والثلوج المتساقطة معه يمثلان أنقى حالات الماء الطبيعى على سطح الأرض.

ولذلك قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾.

(٩) فى قوله ـ سبحانة وتعالى ـ:

﴿لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦].

إشارة إلى ثراء قطاع التربة فى مختلف مجموعات النباتات الدقيقة مثل البكتريا، والفطريات، والطحالب والأبراغ وحبوب اللقاح وغيرها، ومن البقايا الفتاتية للنباتات الكبيرة، ومن بقايا الحيوانات المتباينة الأحجام والصفات، مما يثرى التربة فى المواد العضوية والدوبلاية.

(١٠) فى قول ربنا ـ عز من قائل ـ:

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

إشارة إلى أن الروابى هى أنسب أماكن الأرض لزراعة أشجار الفاكهة وأشجار الثمار الأخرى، وذلك نظرًا لتميزها بلطف مناخها، ووفرة مائها، وزيادة فرص تعرضها لأشعة الشمس، ولمطر السماء، ولرطوبة الجو، ولحركة الرياح، وإذا نزلت بها

الأمطار هاطلة تضاعف إنتاجها، وإذا تضاءلت الرطوبة فى الجو من حولها فإنها تعطى ثمارها وافرة.

وهذه الحقائق كلها لم تكن معروفة للناس فى زمن الوحى ولا لقرون متطاولة من بعد زمن الوحى، وورودها فى كتاب أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبى أمى - صلى الله عليه وسلم - وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده فى نفس لغة الوحى الذى أنزل به - اللغة العربية، وحفظه حفظًا كاملاً: كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية وإلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد الله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

ثبت بالمراجع

أولاً: القرآن الكريم وعلومه:

١ - **الألوسي:** أبو الفضل شهاب الدين محمود شكرى (ت ١٢٧٠ هـ): «روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى» - إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة (بدون تاريخ)؛ دار الفكر - بيروت (١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م)؛ دار إحياء التراث العربى/ الحلبى/ مصر (ط ٤) ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

٢ - **ابن أبى الإصبع، العدوانى المصرى:** «بديع القرآن» - القاهرة (١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٧م).

٣ - **ابن حزم الأندلسى، على بن أحمد بن حزم الظاهرى:** «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» وبهامشه الملل والنحل للشهرستانى، المطابع الأميرية - القاهرة (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م).

٤ - **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد:** «المقدمة» - القاهرة (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م)؛ دار الفكر - بيروت (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)؛ دار الشعب - القاهرة بتحقيق د. على عبد الواحد وافى (بدون تاريخ).

٥ - «ديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر» - بيروت (١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م) - (١٣٨١هـ/ ١٩٦١م).

٦ - **ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت ٢٢٤هـ):** «فضائل القرآن»؛ دار الكتب العلمية - بيروت (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٧ - **ابن عاشور، محمد الطاهر:** تفسير «التحرير والتنوير»، الدار التونسية للنشر - تونس (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٨ - **ابن العربى، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣)**: «أحكام القرآن»، مطبعة دار السعادة - القاهرة - (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م).

٩ - **ابن عطية الأندلسى، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت ٥٤٦هـ)**: «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» (نشر رئاسة المحاكم الشرعية بقطر - الدوحة) (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)؛ دار الكتب العلمية (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) توزيع دار الباز بمكة المكرمة.

١٠ - **ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤هـ)**:«تفسير القرآن العظيم» (٤ أجزاء)؛ مطبعة الاستقامة - القاهرة (ط ٢)، (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م).

١١ - «فضائل القرآن» - مطبعة المنار - (القاهرة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م).

١٢ - **أبو حيان الأندلسى، أبو عبد الله محمد بن يوسف**: «تفسير البحر المحيط» - مطبعة دار السعادة - القاهرة - (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م)، دار الفكر - بيروت (ط ٢) (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

١٣ - **إمام، محمد سعيد**: «حديث الإسلام عن الأشجار» المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر - (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

١٤ - **أبو السعود، محمد بن محمد العمارى**: تفسير أبى السعود المعنون «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» (جزءان)، المطبعة الأميرية - بولاق - القاهرة - (١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م).

١٥ - **الباقلانى، القاضى أبو بكر محمد بن الطيب (ت٤٠٣هـ)**: «إعجاز القرآن» - تحقيق أحمد صقر، المطبعة السلفية، (القاهرة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)؛ ومصطفى الحلبى (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، وعالم الكتب - بيروت (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

١٦ - **البغوى، أبو محمد الحسين**: تفسير البغوى المسمى «معالم التنزيل» - تحقيق خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة - بيروت (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

١٧ - **البقاعى، برهان الدين بن عمر**: «نظم الدرر فى تناسب الآى والسور»، دار الكتاب الإسلامى - القاهرة (ط ٢)، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)؛ دار الكتب العلمية- بيروت (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

١٨ - بنت الشاطئ (**عائشة عبد الرحمن**): «الإعجاز البيانى للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية، لغوية، وبيانية»، دار المعارف (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

١٩ - «التفسير البيانى للقرآن الكريم» (فى جزأين) - دار المعارف - القاهرة (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م).

٢٠ - **البيضاوى، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازى**: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (جزءان)، المطبعة العثمانية - القاهرة (١٣٠٥هـ/ ١٩١٠م).

٢١ - **البيومى، محمد رجب**: «البيان القرآنى» - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

٢٢ - **التجيبى، أبو يحيى محمد بن صمادح**: «مختصر تفسير الإمام الطبرى» - دار الفجر الإسلامى - دمشق (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

٢٣ - **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ)**: «الحيوان»: تحقيق عبد السلام محمد هارون؛ مكتبة الخانجى - القاهرة؛ دار الرفاعى بالرياض (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٢٤ - **الجرجانى، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ)**: «دلائل الإعجاز»، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، مطبعة الخانجى - القاهرة (ط ٢)، مطبعة المنار - القاهرة (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م)، أعيدت طباعته بالاتفاق بين مكتبتى الخانجى والأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

٢٥ - «الرسالة الشافية فى إعجاز القرآن» نشرت ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام - دار المعارف - القاهرة

(١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ونشرت هذه الرسائل فى سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

٢٦ - **الجسر، نديم**: «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن»، توزيع دار العربية - بيروت - الطبعة الثالثة (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م). منشورات المكتب الإسلامى - بيروت (الطبعة الأولى: ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م).

٢٧ - **جوهرى، طنطاوى (ت ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م)**: «الجواهر فى تفسير القرآن الكريم» (المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات) - (فى ٢٦ جزءًا، ١٣ مجلدًا) مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر - (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٠م) (الطبعة الثانية: شوال ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م).

٢٨ - **حوى، سعيد**: «الأساس فى التفسير» - دار السلام: القاهرة، حلب، بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٢٩ - **الخازن، علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الصوفى**: تفسير الخازن المعنون «لباب التأويل فى معانى التنزيل» وبهامشه تفسير البغوى (فى ٧ أجزاء)، المطبعة الأميرية - القاهرة (١٢٣١/ ١٢٣٢هـ) الموافق (١٨١٥/ ١٨١٦م). أعاد طباعته كل من دار المعرفة، ودار الفكر - بيروت.

٣٠ - **الخطابى، أبو سلمان حمد محمد بن إبراهيم (ت ٣٨٨هـ)**: «بيان إعجاز القرآن» مطبوع ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ونشرت هذه الرسائل فى سلسلة بعنوان «من ذخائر العرب».

٣١ - **دراز، محمد عبد الله**: «النبأ العظيم: نظرات جديدة فى القرآن»، القاهرة (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م).

٣٢ - **الذهبى، محمد حسين**: «التفسير والمفسرون»، دار الكتب الحديثة - القاهرة (الطبعة الثانية: ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م).

٣٣ - **الرازى، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ)**: تفسير الرازى أو التفسير الكبير المسمى «مفاتيح الغيب» (فى ٨ مجلدات)، المطبعة البهية -

القاهرة (١٣٠٧هـ/ ١٣٢١هـ) الموافق (١٨٨٩م/ ١٩٠٣م)، أعادت طباعته كلٌ من دار الكتب العلمية - طهران (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، ودار الفكر - بيروت (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٣٤ - **الرازى، محمد بن أبى بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦هـ)**: بترتيب السيد محمود خاطر - (الطبعة العاشرة) الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

٣٥ - **الراغب الأصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل (ت٥٠٣هـ)**: «معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم» - تحقيق: نديم مرعشلى، دار الكاتب العربى (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

٣٦ - **رضا، محمد رشيد**: «تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار» - دار المنار/ القاهرة (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م)؛ دار المعرفة - بيروت (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

٣٧ - **الرمانى، أبو الحسن على بن عيسى (ت٣٨٦هـ)**: «النكت فى إعجاز القرآن» طبع ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز بتحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام - دار المعارف - القاهرة (١٤١١هـ/ ١٩٩١م) صدرت تحت عنوان «من ذخائر العرب».

٣٨ - **الزرقانى، محمد بن عبد العظيم (ت ١٣٦٧هـ)**: «مناهل العرفان فى علوم القرآن» (فى جزأين) مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه/ دار إحياء الكتب العربية (١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م).

٣٩ - **الزركشى، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ)**: «البرهان فى علوم القرآن» - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (فى أربعة أجزاء)، دار إحياء الكتب العربية - الحلبى - القاهرة، (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)؛ أعادت طباعته دار المعرفة - بيروت (١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م).

٤٠ - **الزمخشرى، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨)**: «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل» - (فى أربعة أجزاء) - مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده - مصر (١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥م)، (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م)، (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م).

٤١ - **السعدى، عبد الرحمن بن ناصر**: «تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان» من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

٤٢ - **سعيد، عبد الستار فتح الله**: «المدخل إلى التفسير الموضوعى»، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة (الطبعة الثانية: ١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٤٣ - **السيوطى، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن كمال الدين - أبو بكر - الأسيوطى أو السيوطى (ت ٩١١هـ)**: «الدر المنثور فى التفسير بالمأثور» (فى ستة أجزاء) مطبعة ومكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده - مصر (١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م)؛ دار الفكر - بيروت (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٤٤ - «الإتقان فى علوم القرآن» وبهامشه إعجاز القرآن للباقلانى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة التجارية (الطبعة الأولى: ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م)، مصطفى الحلبى (الطبعة الرابعة: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، مكتبة دار التراث - القاهرة (الطبعة الخامسة: ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٤٥ - **شحاته، عبد الله**: «آيات الله فى الكون تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم»، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).

٤٦ - **الشنقيطى، محمد الأمين بن محمد المختار الجكنى**: «أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن»، مطبعة المدنى بالرياض (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).

٤٧ - **الشوكانى، محمد بن على بن محمد (ت ١٢٥٠هـ)**: «فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير» مطبعة مصطفى البابى الحلبى - مصر (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٠م)، (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)، دار الفكر - بيروت (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٤٨ - **الصابونى، محمد على**: «مختصر تفسير ابن كثير» (فى ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم - بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م).

٤٩ - «صفوة التفاسير» (فى ثلاثة مجلدات)، دار القرآن الكريم - بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م).

٥٠ - **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)**: تفسير الطبري المعنون «جامع البيان عن تأويل آى القرآن»، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، المطابع الأميرية - بولاق - القاهرة (فى ١٥ مجلدًا)، ودار المعارف - القاهرة (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م)، ثم طبعات تالية من نفس الدار (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م)، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ثم طبعة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، وطبعة دار الفكر ببيروت (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، وطبعة دار الحديث بالقاهرة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٥١ - **عبد الباقى، محمد فؤاد**: «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، دار ومطابع الشعب - القاهرة (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م).

٥٢ - **العك، خالد عبد الرحمن**: «أصول التفسير لكتاب الله المنير»، مكتبة الفارابى - دمشق (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

٥٣ - **الغزالى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالى (ت ٥٠٥هـ)**: «إحياء علوم الدين»، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م)؛ دار المعرفة - بيروت؛ دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م).

٥٤ - «جواهر القرآن»، مكتبة الجندى - القاهرة (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)؛ الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة - بيروت (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

٥٥ - **الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ)**: «معانى القرآن»، تحقيق النجاتى، مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م).

٥٦ - **القاسمى، محمد جمال الدين**: «محاسن التأويل»، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)، تعليق وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقى.

٥٧ - **القرطبى، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى (ت ٦٧١هـ)**: تفسير القرطبى المسمى بـ«الجامع لأحكام القرآن» (فى ٢٠ مجلدًا) دار الكتب المصرية (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)، (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، (١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م)، (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)؛ دار القلم بيروت

(١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)؛ دار الكتب العلمية - بيروت (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)؛ دار الفكر - بيروت (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٥٨ - **القطان، مناع خليل**: «مباحث فى علوم القرآن»، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

٥٩ - **قطب، سيد**: «فى ظلال القرآن» (فى ستة مجلدات)، دار الشروق، بيروت (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

٦٠ - **قطب، سيد**: «التصوير الفنى فى القرآن»، مكتبة وهبة - القاهرة (١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م).

٦١ - **كنعان، محمد أحمد**: «قرة العينين على تفسير الجلالين» المكتب الإسلامى: بيروت، دمشق (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٦٢ - **لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ج.م.ع.**: «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم»، (الطبعة الثالثة) (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م). المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ج. م. ع. القاهرة.

٦٣ - **مخلوف، حسنين محمد**: «صفوة البيان لمعانى القرآن» من منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٦٤ - **النسفى، أبو البركات عبد الله بن أحمد**: تفسير النسفى المعروف باسم «الإكليل على مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (فى مجلدين) مطابع الحلبى - القاهرة (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م).

٦٥ - **المراغى، أحمد مصطفى**: «تفسير المراغى» - دار إحياء التراث العربى - بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٦٤ - **مسلم، مصطفى**: «مباحث فى التفسير الموضوعى» دار القلم - دمشق، بيروت - الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٦٧ - «مباحث فى إعجاز القرآن» - دار المنارة - جدة (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

❊ ❊ ❊

ثانيًا: الكتب العامة:

٦٨ - **بوكاى، موريس:** «القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة» - دار المعارف - القاهرة (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م). (Maurice Bucaille (1976): "La Bible, le Coran et la Science", Editions Seghers, 31 Rue Falguière, Paris, Cedex 15).

٦٩ - **مونسما، چون كلوڤر** (مشرف على التحرير): «الله يتجلى فى عصر العلم» ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة: الدكتور محمد جمال الدين الفندى، الناشر: مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة (The Evidence of God in an Expanding Universe: edited by: John Clover Monsma; 1958; Pubished by G. P. Putnam's Sons, New York).

❊ ❊ ❊

رقم الإيداع ٢٠٦٣٦/ ٢٠٠٣

الترقيم الدولى I.S.B.N - 977-09-1027-9